

رواية
قصور المييد

خيرى حداد

الرواية الرابعة للمؤلف

الطبعة الأولى
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إهداء إلى :

اتحاد كُتّاب مصر .. إلى نادي القصة المصري

إلى أبي وأمي ..

إلى أبنائي الأعزاء محمد وسنت وإسلام ..

إلى زوجتي ..

رواية قصور العبيد

هذه رواية هامة لمؤلف قطع شوطاً لا بأس به ؛ فهذه روايته الرابعة بعد ثلاث روايات سبقتها هي (المرأة وآلهة الحب) و(السطح الأملس) و(المدينة الحافية) ، وقد حصل على الجائزة الثانية للإبداع الروائي التي ينظمها نادي القصة عام ١٩٨٦ عن روايته السطح الأملس ، ثم فاز بالجائزة الأولى للمسابقة نفسها عام ١٩٩٢ عن روايته المدينة الحافية ، والروائي الأستاذ / خيرى حداد لا يكتب إلا من خلال تجاربه الذاتية ، ولكنه ككل فنان مبدع يستمد من هذه التجربة طاقة إبداع ينعش بها مخيلته ثم يحول الخاص إلى عام والذاتي إلى موضوعي ، ويقدم رواية جيل يحيا مؤرجحاً بين الطموح والسقوط وهذه قيمة مضافة لرواية قصور العبيد التي تعدّ تكملة لرواية سبقتها هي « المدينة الحافية » وقد تكملها رواية ثالثة يضع كلمة الختام لهذه الأحداث المأساوية لبطل الروايتين سلامة .

ولهذه الرواية « قصور العبيد » أهمية أخرى قد تكون الرواية المصرية الوحيدة التي تناولت محنة الهجرة من الوطن ، والمؤلف له إتجاه أخلاقي صارم ينزع إليه من أول الرواية إلى آخرها ، فهذه الرواية تنسجم مع الدعوة التي يتبناها بعض دارسي الأدب في بعض البلاد العربية عن الأدب الإسلامي ، ومؤلفنا ينسجم مع هذه الدعوة بون أن يكون ملتزماً بما تدعو إليه ، وهو الالتزام قائم في أساسه على الاختيار الحر لا على الالتزام الحزبي ، ولهذا السبب

نجد الكاتب يتجه دائماً ، وكلما تلزم الموقف بين بطل روايته «سلامة» وبين أي من شخصياتها المحورية إلى إستلهاهم الحل بالقيم والأخلاقيات التي ينهلها من ثقافته القرآنية ومعرفته البينية ، ومع ذلك ألاحظ أن بطل روايته لم يسر دائماً على هذا النمط المرسوم من القيم ، وهناك ميزة جديدة تضاف إلى كاتبنا في هذه الرواية «قصور العبيد» أنها كشفت عن دوافع الانحراف في الداخل والخارج ، وافتقار الحوار بين الأجيال ، وأن إفتقار الناس إلى القيم جعلهم فقدوا قيمة إنسانيتهم فعاشوا أدميين في مظهرهم حيوانيين في وجدانهم فسهل إلتقاطهم كقوى تدمير لمجتمعاتهم تحت دعاوي مزيفة عن الجهاد ورفع الشعارات .

إنني أحمد للرواية وللروائي خيرى حداد أنه كشف عن هذه الطبقات من الحياة والواقع التي لم يتناولها عمل روائي من قبل بهذا الإقتدار والوعي القائم على المعرفة التجريبية ورصد الظاهرة من الواقع وتحليلها بعناية وموضوعية ، كما أشعر بأن هذا الكاتب لديه المزيد ليقال ، وإن كان بطبعه أو بحكم عمله عزوفاً عن الإندماج في الحياة الأدبية ومنتدياتها وندواتها ، فمن واجبنا أن نبحث عن أصحاب المواهب والجادين مثله لننتفع بعطائهم الأدبي .

دكتور / عبد البديع عبد الله

أستاذ الأدب الحديث والأدب المقارن

بجامعة الفناة

الفصل الأول

وانطلقت العربية في طريق الشمال وقالت وهي تميل نحوه
بوجهها :

- إنهم يريدون قوماً كالبهائم .. حتى البهائم تحب الحرية مثل كل
خلق الله .. إنهم يريدون من هم أقل درجة من الحيوانات ..
وأمسك سلامة بأطراف أصابعها وقال :

- بالله عليك .. هل المدينة التي نذهب إليها أفضل من تلك المدينة
الحافية .. وأشار بيده إلى الخلف ..

تقول ربما وهي تدع يدها بين كفيه : إن الناس في المدينة
الجديدة يهيمنون على وجوههم ويطالبون بكل شيء علناً وبلا خوف
.. إنهم يدافعون عن مطالبهم بالسلاح في الجبال والشوارع وفوق
كل بيت وخلف كل باب .. هناك موتى كل يوم وأرامل كل صباح ..
مدينة تكاد أن تكون خالية من الرجال ..

- ألا يوجد أطفال ورجال كبار ..

- الرجال الكبار هم زعماء التلال والجبال .. وقل أن يوجد طفل في
بيت .. والنساء في البيوت والفنادق والشوارع .. عرايا بلا خجل
.. إنهم يطالبون بالحرية والعدالة والحياة .. وأحياناً يطلبون من
الرجال العودة إلي بيوتهم لكنهم لا يستطيعون ..

وشعر بأن المجهول هو عالمه في تلك المدينة .. وأحسّت
ربما ببرودة كفيه التي تمسك يدها فسحبتهما منه ووضعتها في
حجرها ..

وكانت الطرق بين الجبال معلقة مثل الجسور .. وكان الليل
يهبط والطريق خالياً من المركبات .. وربما تكاد تغفو وسلامة يرقبها
تارة وأخرى يرقب السائق وثالثة يتطلع إلى الجبال الوعرة .. وقلبه

يعلو ويخفق ثم يهوى .. ولولا أن هناك امرأة قوية وجميلة من أهل المدينة .. أصابع يدها طيعة له كلما أمسك بها لحاول أن يوقف العربية ويجري إلى جبل عال ويتخلص من حياته الوعرة الشاقة .. العربية السوداء تنطوي بين الوديان والتلال وسلاسل الجبال .. وكان سلامة يشعر والطريق يتبدل حوله بأن العربية معلقة بين السماء والأرض .. وأن عنق السماء أقرب إليه من باطن الأرض .. وكانت السيدة من حين لأخرى تخاطب السائق :

- الله معك .

- بالراحة .. هدي .. على مهلك ..

وكان السائق الأسود يرد عليها في أدب جم .. وانقضى بعض الوقت ، فيه غفل سلامة ووضعت ريماً رأسها على زجاج النافذة ثم أشعلت سيجارة ، وكانت تنظر في الأفق البعيد لترى أسنة الجبال والأشجار الثابتة الضخمة ترتمي في أحضان الصخور .. وكان شيء ما يلبس بروحها ويشدّها إلى الخلف مرة وإلى الأمام أخرى ، وإستشعرت أمين زوجها يناديها وكأن شيئاً في ذلك الأفق عند أطراف الأشجار التي تلامس سفح الجبال المتلاحقة يشدّها ويخرجها من المركبة إنه ذلك الشعور القوي الدفين الذي يشد امرأة إلى رجل كان زوجها وكان صالحاً .. وفجأة أمسكت برأسها بقوة وسمعت كأن في هذه الطبيعة شيئاً يشق من أجلها .. وأن رحاباً واسعة في ذلك الأفق تستجيب لمطالبها في تلك الحياة .. وشعرت بأنها تتداعى فأمسكت بيد الرجل النائم بجوارها .. لقد كانت الطهارة وعزة النفس معايير حياتها التي مضت ، وإنها مازالت تتمسك بها .. غير أنها في حاجة إلى رجل .. رجل قوي من المدينة وليس هذا الرجل .. إنها مازالت تعشق الجاه والسلطان في

الرجل .. وهذا الكاني .. لا .. وسحبت يدها من يده .. وتملكتها في لحظة أفكار قوية متمردة . ما هذا الكاني الغارق في أحضان أي مدينة من أجل حفنة مال .. إنها في المدينة القادمة إن لم تجد هذا الرجل فلا مانع أن يكون هذا الكاني .. ثم غفلت قليلاً ورأت في غفوتها أنها سوف تتشغل بعالمها عن كل هذا العالم .. وأنها تستطيع أن تجد الرجل الذي يركع أمامها بالمال والجاه والعز .. واستيقظت على صوت السائق يستئذنها في التوقف قليلاً ليستريح .. ووافقت .. وركن السائق برأسه على عجلة القيادة ثم احتضنها بذراعيه .. وكان الوقت يدخل إلى الرابعة قرب الفجر وكانت في أعماقها تنتظر لقاء أمها وأخواتها والمدينة في لهفة وعن رجل حقيقي في كيانه وجاهة وسلطانه تسوقه إليها الصدفة أو أهلها أو أحد من الدالين .. ومرت عربتان متجهتان إلى المدينة في الشمال .. وحاولت أن تغفو قليلاً ، كما فعل السائق والكاني لكنها لم تستطع .. وتقلب سلامة يمنا ويسرة وأجفل وقال :

- أين نحن الآن ؟

- مازلنا بالطريق .

- والمدينة ؟

- بعد قليل .

وفى رقة أمسك بيدها وقبل أصابعها ثم قال :

- لولاك لقبضت عليّ الأفاعي وكنت في خبر كان ..

- في أي مكان يقبضون عليك .. أنت لم تفعل شيئاً حتى الآن ..

وقد لا يعرفون عنك شيئاً البتة .. لقد كان عبد اللطيف يعمل

معهم بقوة ولما إنتهى من مهمته التي كلّفوه بها عدة سنوات

قرروا التخلص منه .. مثل كثيرين غيره من الكانيين .. لقد

سوّلت لهم أنفسهم القيام بأعمال حقيرة فاستحقوا هذا
المصير ..

وقبل يدها ثانية وتشبّث بكفها بين يديه فابتسمت قائلة :

- أهذا أسلوب الكائنين لدخول المدينة ؟

فضحك من أعماقه وقال :

- كان لي جدٌ من أمي يفعل ذلك مع جدتي .. كان رقيقاً معها
وتعنيّت أن أفعل ذلك عندما أكبر .. وفعلت لما وجدت واحدة
جميلة مثلك ..

- وقبل ذلك عملت هذا مع هند ..

- لا .. لا ..

- بالله عليك لماذا تكذب .. ألم تكن زوجتك ؟ .. تعال نعود إلى
الجنوب لنسأل السندرة التي كنتم تتخذون منها بيت هذا
الزواج.

- برب هذا الكون أحبك .

- لا تتعجل .. إنك لا تعرف ما تخبئه الأيام .. وأنت في كل الأحوال
رجل جئت إليّ من امرأة ..
وقال سلامة مشدوهاً :

- وما العيب من ذلك ..

- أريد رجلاً من صناعي ..

- هكذا تضعين الحواجز بيني وبينك .

- إن لم أجد في المدينة رجلاً من صناعي .. ف .. فأنت موجود .

- إذاً هذه الحقيقة .. هذا جوهر علاقتك بي ..

- أنا أعتبرك شيئاً عزيزاً ورجلاً ووداً ولكن عيبك أنك غريب ..
والغريب في أي مدينة ضعيف .. وفي أي وقت تتركني وتذهب

إلى بلدك .. ولا أخفي عليك أنك جئت إلى المدينة من أجل حفنة
نقود تعود بها إلى مدينتك تتزوج بها .. إذاً أين عنصر التكافؤ
.. الوحيد الذي لديك أنك رجل ولولا أنك رجل لما تزوجتك هند ..
وبعد ذلك لا شيء .. لا بيت .. لا عمل .. لا جاه .. لا سلطان ..
وهذه كلها مقاييس أريدها في الرجل .. وقد لا أجد رجلاً فيه كل
هذا .. ولكني الآن مهووسة وأنا أدخل المدينة برجل يحمل هذه
المقاييس .. دعني أجن .. دعني أتخيل .. كل هذا من حقي ..
وإن لم أجد هذا كله .. سأعود إليك ..

- ولماذا تعودين إلى رجل غريب فقير بلا .. بلا أي شيء ..
- هذه واقعية في حياتي قلتها لك بصراحة .. وأنت في ذلك حين
أعود إليك ستكون أفضل رجل في المدينة .. إنني أشعر بأنني
سأجد في المدينة رجلي ..

- ولماذا فعلت ذلك من أجلي ؟ .. ولماذا أتيت الآن إلى بيت أمك ؟ ..
- قلت لك رأيي واضحاً ..

وهو يهز رأسه يقول :

- إحتياطي لرجل تمنيته ..

- بالضبط .. تماماً .. ولا تحزن من الحقيقة .. إن هذا ما يعمل
في رأسي ..

- بالله أرحت نفسي .. ولماذا أحزن ؟ .. ولكني كيف ستقدميني إلى
أهلك ..

- إنه يا أمي رجل وفي وودود ساعدني كثيراً في المدينة .. وأحاول
أن أجد له عملاً في المدينة .. وقد أتخذ رجلاً .. حين لا أجد
رجلاً في المدينة ..

وكاد ينطق قائلاً .. يا لضعفي .. لكنه لم يفعل .. لقد اختار
هذا الطريق .. طريق النساء المؤدي إلى العمل .. وكانت الطبيعة
التي تحتضن المكان كله تنطق بعظمة الله وقدرته مما جعل سلامة
ينزل من العربة ويمشي نحو الجنوب ويجلس على إحدى الصخور ..
حتى هذه المرأة التي تتعامل مع الحياة بهذه المادية إنبهرت بعظمة
الطبيعة ونزلك هي الأخرى ومشيت وهي تتحني إلى الشمال وكأنها
تؤكد شيئاً في نفسها بأنها تسير في الطريق المخالف لسلامة
وأصرت على ذلك وكان يراها وهو شبه بانس .. وفجأة عادت
مهولة لما وجدت جرفاً هاوياً يؤدي إلى وادٍ سحيق .. امرأة فارعة
الطول بشعرها الأسود الفخم وعينيها السوداوين وجبينها الناصع
العريض .. ولما بان له رؤي العين في ضوء النهار الذي بدأ ينبج
عن الليل .. وقال وهو يحدث نفسه .. هذه المرأة وهذا الجمال وذلك
الجاه والسلطان الذي تتشده .. بالله عليّ إلى أين معها ؟ إن
طريقها غير طريقي .. وقال إنها تنفع أن تكون رجل أعمال وأنا
أمشي معها وكأنني أمين سر هذا الرجل وفجأة جال بخاطرها وهي
تدخل العربة .. لماذا لا أبني بيتاً هنا .. في هذا الصمت وحوله هذا
الكون العجيب وأشارت إليه من الزجاج الخلفي فأتاها .. وانتوى
أن يكون أميناً لسرها .. ولما دخل إلى جوارها قبلها قبلة رقيقة في
جبينها .. وأخرى على شالها وثالثة فوق الاكتاف .. وعلى وجهها
حبور بالرضا والسعادة وشعرت بأنه حقاً ودود وهاديء ورقيق ..
فاستسلمت قليلاً ولما شعر بذلك أمسك بذراعها واحتضنه بيديه فوق
حجره وحاولت أن توقفه عن مشاعره فلم تستطع لكنها قالت في
صوت خفيض :

- هل أنت متعب ؟

- نعم .

- إسترح .

- كيف ؟

وهي تربت على صدره قالت :

- نم قليلاً ..

وترك لها يدها وتتأعب وقال متظاهراً بالطاعة :

- نعم أنا في حاجة إلى النوم ..

وراحت تمنع النظر إليه قليلاً وراح في غفوة .. وطفرت دمعتان من عينيها .. وراحت تحديق عبر النافذة .. شعرت بحاجتها للبكاء بصوت عال .. وحاولت أن تمسك بتلابيبها .. وقالت بصوت سمعه السائق الأسود وهو يتقلب على عجلة القيادة :

- ربي .. ربي .

فقال السائق - نعم ربي .. ربي .. ونعم بالله .

ولما كان ضوء النهار قد صدح قال الرجل ثانية :

- قل أعوذ برب الفلق .. كل أعوذ برب الفلق ..

وانطلقت العربية ثانية .. وغفا كل من سلامة وريما وراحا في نوم عميق وكان دخول المدينة قد أضفى عليهما نوعاً من الطمأنينة .. وفي لحظة هبت الريح بين الجبال وعصفت بالورق والتراب وبعض الحصى على الطريق .. وبعد قليل زح المطر .. وكان الضباب يملأ الأفق ويمشي بين طيات السحب ، ثم برقت بطون السماء ، وأبصر سلامة فرأى البيوت المقامة في جوف الجبل والأشجار الباسقة أمام أبوابها ، وفجأة كثر عدد المركبات وظهرت من بعيد نقطة للمرور ،

ومدَّ السائق يده تمسك شالاً وقال لسلامة :

- إقعه فوق رأسك ولف به وجهك ولا تُظهر إلا عينيك ..

وفعل سلامة في لحظات وعمل كأنه يغط في نوم عميق ..

ووقفت العربية أمام نقطة المرور قليلاً .. كان الجندي يقعد

على دكة خشبية وزعق بصوت عال محاولاً أداء عمله :

- إلى أين ؟

السائق - المدينة .

الجندي - من معك ؟

السائق - كما ترى يا ملازم .. نهارك خوش^(١) .

الجندي - هلا .. هلا ..

وهدأت العاصفة وسكن كل شيء وانبلج كثير من الصبح ،
وسُمعت بعض الضوضاء وبيّنت المدينة من بعيد .. وكانت تظهر
أبنيتها وكأنها مقامة على قباب عالية ، وبدأت ربما تقيق من
غفوتها ، وبدأ لسلامة أنه يدخل عالماً يزيده خوفاً وغربة .. إنه يدخل
مدينة مليئة بالرجال من قوم ربما وأنها ستتخذ منهم رجلاً .. ومهما
بعث الحب فيها فإنها تريد جاهاً وسلطاناً وغنى بقدر الحب أو يزيد
.. إذاً فعليه في المدينة أن يجد امرأة تبحث عن الحب فقط ، لكن
يقيناً أتاها بأن المرأة لا تبحث عن الحب فقط .. فمعظم النساء
يبحثن عن المال أولاً ثم يبحثن عن الحب فلا يجدنه .. فهل العودة
إلى كان أرحم له من امرأة تعمل منه رجلاً إحتياطياً .. لكنه أدرك
أنه عندما يعود إلى بلاده فإن المرأة أيضاً في بلاده سبتحت عن

(١) خوش : أبيض .

المال فيه فلن تجده .. وكأن الحب لم يعد له مكان في هذا الوجود ..
وكان الحب بلا مال لا أمان له ولا جدران .. وأن على سلامة أن
يبني الجدران أولاً ثم يبحث عن الحب وان لم يجده فعليه أن يشتريه
.. وهل الحب يُشترى .. وتقول بعض النساء إعطني مهراً وذهباً
أحبك ..

وهذأت العربة من سرعتها ودخلت في طرق قصيرة ملتوية
كالخطوط الحلزونية المتسلقة لأحد الجبال ، وتناثرت البيوت على
الجانبين .. وحاول أن يمسك بيدها لكنها سحبتها من بين أصابعه
لتضعها في حجرها .. وكانت هذه أول بوادر التمرد .. وألم بالكافي
خوف دق قلبه في عنف .. وهكذا كانت عبوديته .. لقد هرب من
الأعمال الصعبة في العاصمة فكان عبداً تحت أقدام هند حتى
يحتفظ إلى آخر لحظة بمحل يعمل فيه مثل صاحبه .. وهو هنا
يدخل مدينة جديدة ويحتمي في عبادة امرأة يعمل عملاً راقياً .. إنه
رفيقها .. رفيقها في الطريق فقط .. ظلها .. خادمها ممكن .. هكذا
تأكد له عندما سحبت يدها منه ، ان الاحتفاظ بيدها في حجرها
أفضل من أن يمسك بها .. إن امرأة تربت في قصر سوف تبحث
عن قصر أفخم من قصرها .. وإن رجلاً تربى في بيت من طين ولا
يستطيع أن يبني له بيتاً من القش .. ماذا يفعل ؟ .. إنه يبني بيتاً
من الحب والرقعة في الهواء .. لون جدران أو باب أو نوافذ ..
فليذهب إلى بلاده ويتزوج من فتاة تحلب الجاموسة أو تجني القطن
مع أمها .. عليه أن يرتبط بفتاة تحرث حظيرة المواشي بفأسها ..
وأيمن سلامة بأن ما فيه جنون . وأن عليه أن يحترم قدراته ونفسه
ويهرب من كنف هذه المرأة ويبدأ من جديد عاملاً يغسل الصحون
في محل أو فندق .. ولما بدأت المركبة تدخل أطراف المدينة كان

أكرم له أن ينزل .. لكنه لم يستطع .. لقد غلبه أن يظل معها ليرى بيت أهلها وزوج أمها وعيالهم .. إن سلامة يقع عبداً أو أسيراً لكل بيت ولكل شارع .. إنه يحب أن يشرب من ماء البركة ، إن ماء أي امرأة لن يكون في أي حال أعلى درجة من ماء التربة أو المصرف ، ومرت العربة بمبنى عال تنبعث منه أصوات إستغاثة ولسع سياط وزعيق رجال وصراخ نساء وأطفال ولما اقتربوا من بابه كانت الأصوات الباكية المستغيثة لا تطاق .. وقالت ريما للرجل :

- أسرع .. أسرع .. لماذا أتيت من هنا ؟ .. حرام عليك .. ماذا في هذا المبنى ؟ ..

- إن هذا أقرب طريق إلى البيت .. أسف لم أكن أعرف أنهم قد بدأوا منذ الفجر في التعذيب ..

- هذا سجن المدينة ..

- إنه معتقل الشمال المركزي .. يتبع المخابرات ..

- يا إلهي .. أول القصيدة كُفر .. أعوذ بالله ..

- إن وسط القصيدة رقص وغناء وأخزها خير .. خير .. لا تتشام .. كفانا أحزاناً بالله ..

- أنا حزين على نفسي .. على نفسي .. أقصد على هؤلاء النساء والأطفال .. ولماذا يأخذون النسوة والصغار إنهم لا يستطيعون شيئاً .

- إن الحرب قد بدأت وهؤلاء نساء وأطفال الرجال الذين يعارضون قرار الحرب .. أو يطلبون الحق أو الحرية أو العدل في هذه البلاد ..

- هل هذا معتقل المدينة وحدها ..

- هذا معتقل مركزي يجمع كل محافظات الشمال ..

- كم محافظة في شمال البلاد ..

- خمس محافظات .

- يبدو أن المبنى مزدحم لأن الصراخ والعويل شديد .

- آلاف مؤلفة .

- قل أعوذ برب الفلق .

- من شر ما خلق ..

- إذا نزلت أرض المدينة فلا تقرأ القرآن فيها ..

- يا إلهي كيف ؟ ..

- حتى في البيت يقولون إن أذان وعيون المخابرات دخلت كل

البيوت .. وكل من قرأ القرآن في بيته يأخذونه وينسبون إليه

تهمة .. التآمر ضد نظام الحكم .. التهجم على شخص الرئيس

.. التجسس لصالح دولة

وهو ينظر إلى ريماء قال سلامة :

- ألم تخبريني بأن المدينة هادئة ..

وهي تهز رأسها ردت ريماء :

- إنها أفضل من العاصمة بكثير ..

- نعم .. نعم ..

- أنا لم أر العاصمة إذاً .

- لم تر غير محل السمك والسندرة .. وضحكت ..

ولم ينطق سلامة بكلمة حتى دخلت العربية في طرق مؤدية إلى
حي قديم .. وكانت هناك أنوار تنبعث من قمة جبل عال لكن نور
الصباح يطفئها ، وأصبح رؤى العين أن هناك سلسلة من الجبال
تحضن المدينة ، وأن معظم بيوتها تلتفها الأشجار ، ومرّت العربية
ببعض الحواري والأزقة وهي نظيفة وبيوتها صغيرة وجميلة ولا تقل
روعة عن الأماكن الواسعة ، ويبدو أن السنة الجبال التي تحيط
بالبلدة تكون أكثر جمالاً في الصباح .. حيث تكسوها طبقة رقيقة
من الثلج ، ويقوم بين طبقة وأخرى بحيرات صغيرة من الماء كونتها
نوبات المطر ، أما الرمال والصخور والحصى المنتشرة بأرضية
الشوارع وحول البيوت فقد بلّتها قطرات الندى ، وكان الندى ينزل
من أوراق الشجر وعيدان الحشائش الخضراء وكأنه زيت أبيض
لامع يتساقط من شعر امرأة تتزيّن في سكون الليل ، وقال السائق
حين وجد سلامة يتأمل ثوب المدينة :

- إن الصباح هو أجمل ما في المدينة ..

- والمساء أيضاً .

- والنهار .

- جميل بإذن الله ..

وابتسمت ربما فبرزت وجنتاها ولو طاورع نفسه لقبّلها ولف
ذراعه حول جسدها ، وجنح السائق ناحية اليمين وسار قليلاً ثم
توقّف عند خيمة كبيرة من الأشجار يبرز من بينها سور عال ، وكان
بابٌ كبيرٌ من الحديد قد أشار إليه السائق .. هذا الباب الجديد
للبيت ..

وقالت ريما :

- يا إلهي والباب القديم

- لقد كان صغيراً .. هذا باب لقصر يا سيّدتى ..

ونزل السائق وريما وتبعهما سلامة ، وقام السائق وسلامة بحمل الحقائب من العربة حتى الباب وانشغلت ريما بطرق الباب غير أن ضربها على الباب كان ضعيفاً ، وأمسكت بحجر صغير تطرق به الباب غير أن السائق لحقها وأرشدها إلى زر الجرس .. ولما سمعت صوتاً بالداخل نادت بصوت عال : ماما .. ماما .. بسنت يا بسنت ..

وفُتح الباب الداخلي للقصر وخرجت منه الصغيرة بسنت وجرت نحو الباب الكبير قائلة من .. من .. وأخبرها السائق :

- أنا فرج .. إفتحي يا ست بسنت .. لقد وصلت السيدة الكبيرة .. بسنت :

- ريما بالله وصلت .. دقيقة واحدة

وانقلبت إلى الداخل لتخبر أمها وقابلتها عند الباب وأخبرتها بأن فرج والسيدة الكبيرة بالباب وقالت لها الأم ضاحكة :

- هل تعرفين من تلك السيدة ؟ ..

بسنت - ألم تخبروني أن فرج ذهب لإحضارها .. إنها ريما أختي الكبرى ..

قالت السيدة وهي تقترب من الباب :

- نعم .. نعم ريما .. يا حبيبتي وصلت

بصوت عال مبتهج قالت ريما :

- وصلت يا ماما يا حبيبتي .

وفتحت السيدة الباب وإندفعت الأم نحو إبنتها وتعلقت ريما برأسها وصدرها وحضنتها بذراعيها .. ماما ماما حبيبتي .. يا بنتي يا نور عيني .. عيني عليك .. قلبي .. تعبت تعبت .. هلا نور عيني .

وتعلقت بسنت بجلباب أمها مندهشة ودخل السائق يحمل الحقائب وسلامة يساعده .. وعادت السيدة الكبيرة من الباب الداخلي لما أخبرتها بأن سلامة هذا كاني وأنه رجل ممتاز وسيبقى في ضيافتي هنا يا أمي حتى نجد له مسكناً ولما رأت الأم مندهشة لأن هذا رجل غريب .. قطعت إندهاشها وأخبرتها أن هذا الرجل سيكون زوجها .. فأطمأنت وسارت حتى سلامة قرب الباب الكبير وقالت له وهي تمد يدها إليه :

- هلا .. هلا .. تعالى يا بني .. أدخل .. دع السائق وحده يحمل المتاع .. أنت ضيف .. عيب عيب ..

وانحنى سلامة قليلاً وهو يضافحها وأثرت كلماتها الطيبة فيه ودخل معها يتأخر قليلاً مظهرأ حياء وامتثانه ..

وفي صالة البيت الكبيرة .. كان زوج السيدة حميدة يدعك في عينيهِ ويتثاب محاولاً أن يفيق وكان قبل بناته يحتضن ريما ويقبلها مهلاً ومرحباً ، وتبعته إبنته الكبيرة نيروز وسميرة ثم بسنت الصغيرة .. وجلس الجميع بالصالة وحرصت ريما أن تقدم سلامة للجميع قائلة :

- لولا هذا الرجل .. لولا هذا الرجل بعد موت أمين .. لقد أضُر أن يوصلني إلى هنا ..

- أهلاً بك أنت في بيتك .

ويقول صاحب البيت :

- المدينة كلها مدينتك وكان السيد صديق زوج أم ريما ذكياً

حيث تأكد من ملامح سلامة وفطن إلى أنه من كان .. وعلى ذلك

سكت قليلاً ثم قال :

- ولكن هذه المدينة ليست في جمال الإسكندرية ..

سلامة - إن هذه المدينة أجمل لأنكم منها ..

يقول الرجل وهو يوجه حديثه نحو زوجته :

- من الأفضل الحمام أولاً للمسافرين ..

- نعم .. نعم الحمام .. سوف أذهب لإعداده ..

وتبعثها نيروز الشابة الجميلة أكبر بنات السيدة حميدة من

زوجها صديق الخالدي صاحب المال والجاه والسلطان في تلك

المدينة .. تبعثها نيروز في الحمام قائلة وهي ترتب الحمام معها :

- أهي من الجراءة حتى تأتي برجل في بيتنا ..

- ومن قال أنه غريب عليها أو علينا .. قالت وأنت تسمعين أنه

أسدى لها كل خير ..

تتلوى في مشيتها وكان كلام أمها لا يعجبها وتخرج من

الحمام قائلة :

- يا أمي أنت طيبة .. لقد كانت ريما في العاصمة .. ثم لماذا يكون

الرجل كانياً .

الأم وكأنها تنهرها :

- يا لك من خبيثة حرام عليك .. يبدو أنه رجل طيب جداً .. وريما

ليست صغيرة ..

نيروز ترجع إلى الخلف وتقول :

- إنه رجل جميل جداً يا أمي وطويل ويافع .. ولماذا لا يكون عشيقتها ..

- إذهبي عني من أول دقيقة تتهمين الناس وتنشري الفتنة .. إذهبي .. إذهبي إلى غرفة نومك لا أريدك معنا ..

تنقلب نيروز إلى غرفتها قائلة :

- النوم أفضل .. والصباح رباح ..

ودخلت الأم إلى الصالة بشوشة قائلة تفضل .. تفضل يا سيد سلامة .. الحمام جاهز .

وأخذت ريما وطافت بها غرف وجنات البيت .. وفي الطابق الثاني إطلعت ريما على غرفتها وبعدها بقليل إختاروا غرفة لسلامة .. صغيرة في آخر رواق الدور وتركت الأم أمر تجهيزها وتنظيفها لسميرة وبسنت .. وكان هذا الطابق من سبع غرف وينزل ريما وسلامة فيه أصبح الدور أهلاً ونيساً بسكانه .. نيروز تنزل في أبهى غرفة ، وسميرة الإبنة المتوسطة في غرفة لا تقل عنها كثيراً ، أما بسنت الصغيرة فتعيش في غرفة صغيرة جميلة .. غير أنها في أغلب الليالي تنام مع شقيقتها سميرة .. وكانت أقرب الغرف إلى الدرج .. الغرفة التي نزلت فيها ريما وأخرها تقع غرفة سلامة قرب نافذة تطل على حديقة المنزل من الخلف .. وبسرعة نزلت الأم إلى المطبخ بالدور الأول لتعد الفطور ومعها بناتها الثلاثة وكانت نيروز الإبنة الكبرى تغني بصوت عال وكل من سميرة وبسنت تشجعانها على الإستمرار في الغناء .. ولم يكن أحد يعلم ما بداخل نيروز من

فرحة وبهجة وما ينصب في داخلها على شقيقتها من أمها من غيرة
وسخرية ، وكانت بين فترة وأخرى تقطع غناها قائلة :

- غريب في بيتنا يا لك من جريئة !! ..
وترد عليها الأم :

- يا ملعونة إنه ضيف .. ساعدها وأتى بها ..

- هل تعلمين ما حدث بينهما في العاصمة ..

- ليس لي شأن بالعاصمة .. إن ريما واعية كبيرة .. كيف تتهمين

أختك بهذا .. يا نيروز .. إن علينا أن نقوم له بواجب الضيافة
أسبوعاً على الأقل ..

- ثم ماذا ؟

- بالتأكيد سيفادر بيتنا ..

- إلى أين ؟

- إلى طريقه .

وتتدخل سميرة - لماذا نسبق الأحداث يا أمي ؟ .. وماذا بك يا
نيروز ؟ .. إن الرجل لم نزل منه أي أذى وعلينا جميعاً أن
نُحسن ضيافته ..

وقالت بسنت - بالله هذا صحيح ..

الأم - قولي للكبيرة الخائبة ..

وهزت نيروز رأسها وقالت وهي تنتهي من نقشير البيض

المسلوق .. هل تريدونني في عمل شيء آخر ؟

- تناولني الفطور معنا ومع شقيقك التي لم نرها منذ سنين ..

- لا أستطيع .. سوف أذهب لأنام ..

وقالت سميرة - أتركها يا أمي .. دعيها حتى تستريح منها ..

تضرب نيروز سميرة على كتفها :

- نعم سأذهب حتى تستريحوا جميعاً ..

وذهبت إلى غرفتها ولما ارتدت إيشارياً لفت به شعرها ..

خرجت من غرفتها قائلة لنفسها : أين الطريق إلى غرفته .. وتسألته

إليها وفتحت الباب ودخلت وتأملت فراشه قبل أن ينام عليه وفتحت

الدولاب ثم أقفلته وأمسكت بالمخدة ثم ألقت بها على السرير ثانية

وخرجت وهي تقفل الباب بشدة ثم عادت إلى الخلف وجعلت الباب

موارباً .. وتلصصت ثانية على الغرفة وكأنه نزيلها بداخلها . وأيقنت

بأن الحياة ستروق لها في بيتها وأنها سوف تستريح من عناء

البحث عن الحب .. بين رجال الجامعة وفي ليالي الفنادق والملاهي

بالمدينة .. وهي الفتاة الجميلة الفاتنة الغنية .. إبنة كبار الأثرياء في

البلدة .. ولا يهمها الآن أن يكون حتى زوجاً لريما .. إنه رجل يافع

جميل وجيه .. قليل من المال يهيئوه أن يكون من وجهاء الشباب في

المدينة .. وضحكت بصوت عال وهي تحتضن فراشها وقالت : وأين

هم رجال المدينة ؟

وداحت في نومها فرحة سعيدة وقد نوت ألا تترك هذا الرجل

أبداً ..

وبعد أن تناول الجميع طعام الإفطار .. جلست النساء في

ركن بالصالة يتهامسن ويتوددن وكانوا جميعاً سعداء بريما ..

الإبنة الغائبة .. وكانت الأم من حين لآخر تقبلُ إبنتها .. وأعدت

سميرة الشاي .. والكاكاو .. وراح صاحب البيت يحكي لسلامة في

ركن آخر عن الزمن السابق والمدينة وأهلها .. وعن مظالم الحكم وأهواله ومعتقل المدينة الكبير .. والحرية والعدالة والإنسانية .. تلك القيم التي حلّ محلها الخوف والذلة والظلم والمهانة والحيوانية .. وكان سلامة يسمع ويندهش وبعد قليل أخبره صاحب البيت بأنه سيذهب إلى عمله .. وأن البيت بيته .. وشدّ على يده ودخل غرفته يرتدي ملابسه .. وجاعته ربما تدعوه إلى غرفته .. فذهب إلى صاحبة البيت وبناتها وانحنى يشكرهم ويستأذنهم إلى حيث صحبتته ربما إلى الطابق الثاني .. وخذل إلى النوم .. وعادت ربما إلى أهلها .. وبعد قليل ذهبت كل واحدة إلى غرفتها .. غير أن الأم مكثت قليلاً قرب باب البيت لتفتح للخادمة التي تصل في العاشرة والنصف صباح كل يوم .. وفيما كان يدخل في فراشه تذكر أنه لم يصل فعاد إلى طرقة الدور محاولاً أن يجد أحداً يسأله عن القبلة لكنه عاد إلى نافذة غرفته ليرى الشمس واستطلع القبلة وصلى .. وفكر فيما حدث قليلاً ثم دخل في فراشه وتساءل هل هو في حلم أم حقيقة ؟ ولما إستيقن أنه واقع .. قال .. يا ربي .. يا ربي .. إلى أين ؟

وقبل المغرب بقليل صحا جميعهم من النوم .. وكان مساءً بهيجاً .. غير أن الابنة نيروز لم تكمل سمرها في البيت وهي كالعادة دائماً شقت طريقها إلى صديقتها شهيرة وهي امرأة متزوجة وفي بيتها دار الحديث التالي :

- إذاً تبحثين عن مكان تقضين فيه وقتاً مع الولد ؟
- لا تكوني خبيثة .. أنت تعرفين أن خطيبي مات منذ عامين ..
- ولماذا لا تتركه لربما ؟

- ربما مجنونة .. وليس لها في الرجال .. ولقد جرّبت حظها ..

- إذا أنت مصرة على خوض المعركة ؟

- هل عندك مانع يا شهيرة ؟

- هذا رجل غريب وأنت تعرفين أن زوجي حين يعود قد يكره ذلك ..

إن رجلاً يدخل بيته في غيابه أمر لا يضمن عقباه .. وأنت

تعرفين القبائل ..

وتركت نيروز بيت شهيرة .. وركبت عربية إلى حي آخر

لتعرض طلبها على صديقة أخرى تدعى هبة .. فقبلت على الرحب

والسعة .. فهي فتاة تعيش مع أمها في المدينة وليس لها من

الأقارب في المدينة غير عم طاعن في العمر لم يعد قادر على

زيارتهم .. ولما عادت نيروز إلى البيت وجدت الجميع قد أوى إلى

فراشه .. وسعدت لذلك كثيراً وذهبت لأمها في غرفتها وأخبرتها

بقومها وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة .. وإطمأنت على

أبيها وطبعت على جبينه قبلة وأمسك بيدها وقبلها قائلاً :

- لا تتأخري يا حبيبتي .. إذهبي إلى النوم .. نحن جميعاً في

حاجة إلى النوم مبكراً هذا اليوم ..

وطرقت باب سميرة وبسنت فوجدت كلاً منهم تحت الفراش

.. وأخيراً طرقت باب ريما فلم يرد أحد .. وفتحت الباب ودخلت فلم

تجدها .. وخلعت حذاءها وأسهرت نحو باب الكاني .. وأطرقت

السمع وكان سلامة يقول لريما :

- في الصباح سوف أتمشى في المدينة .

- إلى أين تذهب ؟ ليس في المدينة شيء ..

- لقد إنتهت مهمتي .. وسوف أبحث عن عمل ..
- مهمتك لم تنته .. من عادات هذه البلدة ألا يخرج ضيف من بيت إلا بعد سبعة أيام ..
- أنت تهزرين يا ريما .. أرجوك أنا لست أرنباً حتى أظل في البيت أأكل وأنام ..
- وماذا يضريك ؟ هل تريد مالاً ؟
- كل واحد يذهب إلى حال سبيله .. وسوف أتي لزيارتك .. صدّقيني .. أنا أستطيع أن أذهب وحدي إلى أي مكان .. لكنني أريدك أن تكوني راضية عني وعن تصرفاتي .. خاصة وأنت إنسانة أسديت إليّ كل خير ..
- اذهب إلى المدينة في الصباح ولكن عدني أنك ستعود .. وبعد أسبوع أفعل ما تريد ..
- إتفقنا ..
- وهي تنقلب نحو الباب قالت :
- لا تتأخر بعد الثالثة ظهراً .. حيث طعام الغداء .. أمي ستطبخ لنا برغل ..
- برغل ؟

وأسرعت نيروز حافية إلى غرفتها .. وأسعدها أنها عرفت كل شيء .. وخلعت ملابسها وارتدت جلباباً وروباً وقعدت في سريرها تمشط شعرها على كتفيها ووضعت بعض المساحيق على وجهها وتهيأت في المرأة وخرجت حافية إلى غرفة الكاني .. وطرقت الباب

كالدجاجة التي تنقر الأرض باحثة عن حب الذرة ورد سلامة من
الداخل :

- أدخل .. أدخل ..

ولما دخلت أقفلت الباب .. واندھش سلامة لأنها ليست ربما
.. وتلعثم قليلاً وقال وهو ينزل من فراشه :
- أهلاً .. أهلاً ..

وقعدت على حافة السرير مبتسمة قائلة بصوت خفيض :
- أرجو أن تمكث في بيتنا أبداً ..

- هذا كرم منك ولكنني ..

- ولكنك ماذا ؟ هل تعود إلى العاصمة ..

- لا لن أعود .. سأبحث عن عمل في مدينتكم ..

- وماذا بالنسبة لريما .. أي نوع من العلاقة تربطك بها ؟

- علاقة رجل غريب بسيدة غنية من أهل المدينة ..

- ولماذا أتيت معها إلى هنا ؟

- أرادت أن تنقذني من مدينة يطارد فيها الكانيون .

- الكانيون .. من يطاردكم ؟

- الدولة .. مقابل إقامتنا في بلادكم .. يطلب منا النظام التعاون
معه ..

- أي نوع من التعاون ..

- التخابر والتجسس على المجتمع هنا .. وبعد أن ينتهي المجند من

إعطاء كل ما عنده ويعرفون أنه قد يسافر في أي وقت يقتلونه ..

مثل ما حدث لزميل لي يدعى عبد اللطيف .. وربما تعلم بهذه
الحادثة ..

- هذا شيء معروف عن النظام لأنه يحكم مجتمعاً يشمل قوميات
كثيرة .. ونعلم ما يحدث للكانيين وغيرهم ..

- أخبرني رجل مخابرات أعدّ مقابلة لي .. بأن مجتمعه .. أي هذا
المجتمع في هذه البلاد .. جاهل .. وهش وضعيف وعليكم أنتم
الكانيون تقويته وتثقيفه .. وكنت لا أثق في كلامه فكل المجتمعات
في هذه البقعة جاهلة .. أما نحن وقد جئنا نعمل بالفنادق
والمطاعم ومنا ما يعمل ماسحي أحذية نقوم بدور تثقيفه هذا أمر
مضحك .. إنهم يريدون أن يخدعونا .. وكل ما يهدفون إليه هو
الضرب بيد من حديد حتى على الذي يقول كلمة فيها بعض
الحق .. وتتهد سلامة وقال من أجل هذا هاجرت مع ربما إلى
هذه المدينة ..

قالت نيروز وقد سعدت كثيراً بما صرح به سلامة .. قالت
وهي تقترب منه :

- هل تريدني أن أساعدك ؟

- أتمنى .

- سأفعل لك من الغد الكثير .

- هذا شيء يسعدني .. ولقد وعدتني ربما أيضاً بذلك ..

- ربما لا تعرف شيئاً عن المدينة .

- ولكنها وعدتني ..

قالت نيروز بصوت خفيض متودّدة إليه :

- ربما تبحث عن رجل .. ستذهب غداً إلى دار صبحة للبحث عن زوج ..

- يا إلهي .. دار صبحة .. وماذا في هذه الدار .. رجال ..
- دار صبحة مشهورة في المدينة كل من هي مريضة أو تائهة أو تبحث عن رجل يتزوجها تذهب إلى صبحة .. هي سيدة عجوز تدير بيتها لعلاج النساء بالزوار والأحجية وتزوّج الرجال والنساء ..

- لقد طلبت منّي أن أظل في بيتكم أسبوعاً ..
- وبعدها أين ستذهب ؟

- إلى المدينة .. المدينة واسعة وسوف أجد عملاً بأمر الله ..
- قبل أن يمضي الأسبوع سأجد لك عملاً .. هل تريد نقوداً ؟
- معي كثير من المال .. وأتمنى أن توفقي في ذلك .. إن كان البحث عن عمل لا يكلفك شيئاً ..

- وماذا لو كلّفني ؟ هل تعرف ماذا يعمل أبي ؟
- لا أعرف .. لا .. لكنه رجل غني ..
- يملك أكبر مكتب للنقل الثقيل في البلدة .. وهو أكبر تاجر عقارات وأراضي ..

- الآن فهمت أن بحثك عن عمل لي لن يجهدك ..
- لا أريد أن تعمل عند أبي الآن ..
- إذا فالمدينة ملك يديك ..

- سوف أأخذك إلى أكبر فندق في المدينة .. إن صاحبه رهن إشارتي وإشارة أبي وأنت حاصل على شهادة جامعية ..
- بكالوريوس تجارة ..
- سوف تعمل محاسباً للفندق ..
- بهذه الثقة

وهزت رأسها وهمت واقفة في دلال وثقة وقدمت له يدها وضغطت على يده مصافحة وانصرفت وكأنها قد وقعت عقداً ..

في صباح اليوم التالي تسأل سلامة من البيت بعد أن خطأ رسالة إلى أبيه وذهب إلى أقرب مكتب بريد ليضعها ثم عاد إلى البيت .. وفوجئت الأم به يدخل من الباب الكبير ، وسألته مندهشة :

- أين كنت يا بني ؟

- في مكتب البريد أضع خطاباً لوالدي ..
- حقك وهل كتبت عنوان بيتنا حتى يرأسك ؟
- هذه المرة فقط بعد إذنك يا سيدتي .
- هذا بيتك وأهلك هنا .. أنا مثل أمك يا سلامة ..

وانحنى وشكرها وصعد إلى غرفته .. وكان كل من في البيت نيام غير أن رجل البيت قد خرج تَوّاً إلى عمله ومنذ اليوم الأول لاحظ سلامة أن السيدة حميدة فودة تقيم الصلاة بعناية وتقرأ القرآن بعد الصلاة ومعها الصغيرة بسنت .. وأن ريماء كانت تصلي في العاصمة حيث كانت تشعر بالضعف .. وحين عادت إلى مدينتها وشعرت ببعض القوة تركتها وهيأت كل وقتها في البحث عن رجل غني من وجهاء البلدة ..

وحاول أن ينام لكنه لم يستطع وراودته فكرة النزول إلى
المدينة كرهة أخرى وارتنى ملابسه .. وذهب إلى صاحبة البيت في
مطبخها بالدور الأول ليستأذنها في ذلك وقالت له :
- يا بني بعد ساعة يستيقظ الجميع .. أفضل أن تتناول إفطارك
أولاً ..

- نصف ساعة فقط سأتجول قليلاً وأعود قبل الفطور ..

- لا تذهب بعيداً حتى لا تضل الطريق إلى البيت .

ولقد كان واضحاً أن هذا المتجول في ذلك الحي الراقي
بسمات وجهه الكانية غريب عن هذا الحي وكادوا يقولون له : من
أتى بك إلى هنا في هذا الوقت من الصباح ؟ وانطلقت قدماه ليفر
من تلك العيون إلى وسط الجادة ، وقليل من الأمل تتنفس به زفرات
صدره ، غير أن إحساساً غالباً من التوتر يدق في داخله كالطبل .
وصادفه كاني من جنوب بلاده يحمل معولاً وجوالاً ، وبعد قليل
إستشعر أنه يندمج في الشوارع .. وتذكر وعده للسيدة بالرجوع
إلى البيت قبل ساعة .. فعاد من حيث أتى .. ولما دخل البيت ..
كانت الردهة تعج بأهل البيت جميعاً غير أنه لاحظ أن سيدة تجلس
وسطهم لم يرها من قبل .. ورحبت به ريما قائلة :

- هل أعجبتك المدينة ؟

- لم أذهب إلى المدينة .

- لما أخبرتي أمي خفت عليك من ..

قال وهو يقعد في أحد المقاعد :

- من ماذا ؟

قالت نيروز في هزار :

- من النساء ..

- أنا رجل فقير لا تفكر في إمراة ..

وشعرت ريما ببعض الحرج ..

وقالت السيدة الغريبة :

- أنت زينة الرجال .. إن إمراة تبحث عن رجل لن تجد أفضل منك.

وقالت نيروز :

- لا يوجد في المدينة رجال .. لقد ماتوا جميعاً ولم يعد غير قليل

من الرجال الشباب يحاربون في الجبال وهناك بعض الرجال

الكبار هناك ، والمدينة فيها كثير من الرجال الأغنياء كبار السن

فوق الستين فكيف تتزوج فتاة شابة من رجل عجوز ؟ إنها في

هذه الحالة تتزوج البيت والمال والورقة التي تتمثل في عقد

الزواج ..

وكانت تتكلم موجهة عينيها إلى ريما .. وكأن رأي نيروز قد

أصابها في رأسها فقالت بحدّه :

- إذا لم يكن هناك رجال من الشباب .. فأين تجد المرأة زوجاً لها؟

ضحكت نيروز بصوت عال :

- تذهب إلى صبيحة ..

راحت في بكاء شديد والتفتن حولها عدا نيروز التي صعدت

إلى غرفتها غير مبالية .. وحاولت كل واحدة منهن ملاطفتها بكلمة

.. وكانت السيدة الغريبة تدعى هناء وهي في الثالثة والثلاثين من

عمرها مات زوجها منذ عامين وترك لها طفلة ، وكانت ميته شنيعة

كبقية زملائه في جيش الأكراد حيث أُلقت عليهم طائرات النظام
قنابل حارقة ، حادثة رهيبة مات فيها أكثر من مائتي جندي ..
وهكذا كان الموت في صورة مدينة بلا رجال أو أطفال بلا آباء
ونساء في لباس السواد ونظام يبتلع كل صادق وحق ونبيل ..
ومعتقل رهيب عند مدخل البلدة قلعة من قلاع الإرهاب والعذاب
وازهاق الأرواح .. انحطاط الشرق في مدينة .. إنحدار الشرق في
كل مدنه .. كل مدن الشرق تضيق بين أصابع الشياطين .. هكذا
أخبرت السيدة الأرملة بالأمر عن زوجها والمدينة والحال والوجيعة..
وقالت السيدة وهي تودعهم إلى بيتها :

- سوف تأتي لزيارتنا مع الأهل .. وأقول لك بصراحة إن الأطفال
في المهد سوف يُقتلون في سبيل الحرية والإستقلال عندما
يكبرون ولن يحصلوا على شيء .. وإن كل الدول حولنا تتحالف
على إقناء هذا الشعب الحر ..
وجلست قليلاً بجواره فقال لها :

- ولماذا لا يعود الرجال إلى المدينة طالما لا يوجد غير الموت والوقت
سيطول هكذا ..

- والله لو بأمرى لعادوا جميعاً إلى بيوتهم وأهليهم .. ويكفيننا بعد
أن يستريحوا قليلاً من عناء الجبل .. يكفي هذه المدينة أن تهدم
مبنى المعتقل الكبير ، وأحلف لك بالعزیز أن كل امرأة ستشارك
في هذا .. لكنهم لا يصفون لرأي النساء .. فكلما قتلوا رجالاً
من رجال النظام قتلوا منا عشرة ..

وإبتسم سلامة وقال لها معجباً بثورتها :

- والله لو كانت كل نساء المدينة مثلك لعادت القوة الحقيقية لهذه المدينة ويكفي النساء لهدم هذا المعتقل .

- لا يوجد تجمع للنساء في البلدة .. نحن فرقاء وكل امرأة لها رأي وهناك نساء ليس لهن رأي بالمرّة .. وكل بيت له هدف وكل فرد فيه هدفه يختلف عن الآخر ..

وعند انصرافها شدّ سلامة على يدها معجباً بها وقبلت النساء وانصرفت على وعد أن يزورها سلامة مع الأسرة .. وبعد الظهر بقليل خرجت ربما من البيت بعد أن دار حديث هامس بينها وبين أمها ، وقام سلامة إلى غرفته ليصلي وينام قليلاً ..

وكانت الحركة طبيعة نيروز ، وكانت تقول إن الحركة بغير رجال ليس لها معنى ، فلم تكن تجد غير النساء صديقاتها في الجامعة والبيوت .. ولما جاء سلامة إلى بيتها وجدت أن الحركة معه ضرورية ، إنه رجل يروق لها .. ونزلت إلى الطابق الأول فوجدت أمها والخادمة ويسنت ينشغلون في طهي طعام الغداء ، وأخبرت أمها بأنها ستعود لتنام قليلاً .. وقصدت غرفة سلامة فوجدته قاعداً على مقعد بالغرفة يفكر .. وجلست بجواره على الفراش وقالت :

- هل يناسبك اليوم لنذهب إلى فندق السلام ؟
ورفع يده نحو النافذة قائلاً :

- ياريت !! ياريت !! لا أستطيع البقاء هنا أكثر من هذا اليوم .. سنتكلم عندما نخرج من هنا .. بعد الغداء مباشرة إنتظرني عند المسجد .. المسجد عند الميدان الصغير .. بعد البيت بقليل ..

- أعرفه .. أعرفه ..

وخرجت وهي فرحة إلى غرفتها .. مشطت شعرها وارتدت ثوباً آخر واحتضنت فراشها وراحت تفكر في حياتها الجديدة .. كيف يحبها هذا الغريب .. ولماذا لا تتخذه بعد ذلك زوجاً لها .. سوف تشتريه بأي ثمن وتنجب منه طفلاً جميلاً .. لابد وأن تفعل الكثير وفي وقت قصير .. وبعد مرور بعض الوقت ستعرض الفكرة على أبيها الذي يلبي كل طلباتها ..

ولم تأت ريماء على الغذاء .. وقليل ما يغيب صاحب البيت عن تناول وجبة الغذاء مع أهله إلا أنه لم يحضر اليوم .. وفي الثالثة عصراً كان سلامة خارج البيت بعد استئذان سيدة البيت في الخروج للتعرف على المدينة ، وفي أثناء عبوره الناحية الأخرى وجد الخادمة تلقي بكميات كبيرة من الأرز والبطيخ والخبز بعربة الزبالة .. وقال بصوت مسموع .. ما هذا الغنى ؟ أليس هناك فقراء ؟ أو حيوانات ؟ لماذا لا يأتي الفقراء إلى هذه العربة ؟ إن الحي مليء بهذه العربات .. إن رجلاً يستطيع أن يربي حظيرة حيوانات طعامها كله من هذه العربات .. ووقف عند المسجد ولما تطلع إلى البيت وجد قصرأ ضخماً من رخام تحضنه حديقة تمتليء بأشجار فاكهة الدنيا .. وكان باب البيت كبيراً ولم يصدق أنه يعيش في هذا البيت وشعر بفخر يمتليء به صدره عندما أدرك أنه ينتظر الفتاة الأولى في هذا القصر .. لماذا لا يحتضنها بكل قوته كما تحتضن تلك الأشجار سور القصر ..

ولما جاءت شكرها على حسن الضيافة فاندھشت وهي تمسك بذراعه بين الفينة والأخرى وقالت :

- كيف تشكر ؟ إن الخادمة والقطط تأكل نصف طعامنا كل يوم ولا تشكر .

- إن كل شيء يسبح بحمد الله حتى هذا الشجر ..

- لا شكر عندنا على طعام .. لو ذهبت إلى أبي وشكرته لسخر منك ..

- لن أشكر غير الله .. من كثرة الرخاء في بلادكم لا تشعرون بنعمة الله وبالتالي لا تحمدون الله عليها ..

- لا تشكر أحداً في بيتنا على شيء .. إن هذه عادة الفقراء هنا .. وأنا لا أريدك أن تكون مثل هؤلاء ..

وفضلاً سلامة أن يهرب إلى حي فقير يستطيع أن يعيش فيه ويجد توازنه .. لقد بدأ يترنح من أفكارهم ومعيشتهم .. وبدأ الطقس يوسع بالبرودة وينذر بالمطر لكن الشوارع تمتلئ بالمارة .. وعملت نيروز وكأنها ترتعش من البرد فاحتمت بذراعه واحتضنته وقالت له :

- هذا قلب المدينة ..

وبدأ المطر ينزل وكان الناس يدخلون في موجات تحت مظلات وأبواب الحوانيت والبيوت .. ولما يهدأ المطر يهرعون إلى المحلات محاولين البحث عما يريدون شراؤه .. غير أن نيروز احتضنت جسده بذراعاها وقالت :

- لن نترك هذا الحي حتى يهدأ المطر ..

وكانت ترتعش وتترك رأسها وشعرها المبلل بحبات المطر فوق صدره وبدأ يمسكها بين فينة وأخرى من وسطها ويضم بيده كتفها

إليه مظهراً الرقة والحنان .. وانتابتها رعشة وتبددت الكلمات من فوق شفيتها .. كان ينظر إلى وجهها الجميل فتلتقي عيناها بعينيه وتضغط على ذراعه وتحتضن بصدرها جسده وتلتصق به .. كانت تريد أن تأخذه وتطير .. وبعد أن هداً المطر قليلاً أخذته إلى شوارع ضيقة وطويلة تمتد وكأنها دهاليز .. وبدأت بيوت الفقراء .. وفي هذه الشوارع والأزقة الملتوية تنتشر حاجيات النساء من كحل وزينة وملابس وعطور .. وإندهش سلامة وكأن ملابس الدنيا الجميلة أحضرها تجار هذا الحي في حوانيتهم .. واشترت مظلة وأمسكها سلامة ليستظل بها من حبات قليلة باقية من المطر .. وأخذت نيروز تنتقي ملابس لها وكانت تفرش قطع الملابس الصغيرة أمامه لينتقيها معها لونهاً .. ومودياً .. وكانت كثير من النساء والفتيات ينظرن إليها في دهشة متسائلين .. هو كاني .. كاني .. هل هي كانية ؟ .. لا .. لما كن يطرقن السمع لحديثها فيقول بعضهن ..

- وكيف أنت به ؟ إنه كاني يافع .. يافع ..

ردت أخرى - من العاصمة أكيد وليس من أهل الجنوب ..
ومصمصت ثلاثة شفيتها معلقة :

- عندها حق أن نتمشي به في السوق متباهية .. وهي جميلة
الجماليات .

ولم يكن بالسوق غير قليل من الرجال .. غير أن شباباً لا يتجاوز العشرين عاماً ينتشرون في السوق فرادى أو جماعات .. وكانت تتأبط ذراعه بقوة وتشده إليها وتدفعه إلى الأمام تارة وتؤخره تارة عندما تجد زحمة من النساء عليه ..

وقالت له وهي تسرع الخطى وتجذبه معها نحو حانوت للملابس الرجالي :

- إن التي تتأبط ذراع رجل يعتقد النساء أنه سيكون زوجاً يلتف حوله الجميع .. وما يزيد ما نحن فيه الآن أنك كاني بهي الطلعة .. فالكانيين هنا أجلاف كما ترى ..

واندهش سلامة من الدنيا الجميلة التي توجد في الأحياء القديمة والفقيرة وقال لها :

- إن الحياة هنا أجمل .. الأحياء الفقيرة فيها حياة .. تجارة وأسواق و..

وهزت نيروز رأسها وضربت على كتفه وقالت :

- ونساء وفتيات .. أكمل ..

ولم تترك نيروز محلاً للنساء إلا ودخلته واشترت منه .. إنه عالم من السوق والنساء والفتيات .. عالم تنبعث منه رائحة ثقيلة هي مزيج من رائحة الملابس والعطور والكحل وأنفاس النساء وأصواتهن التي تنبعث في كل ركن وباب ومنحنى .. نساء معظمهن يرتدين عباءات سوداء ومن تحتها فساتين شفافة عارية .. أقدامهن بيضاء أو حمراء لامعة تتزين بخلاخيل الفضة والذهب والنحاس .. وفي كعوب كثيرات وشمة أو نقطة زرقاء مشرشرة وصمت بها أقدامهن وهن صغيرات إعتقاداً في البركة وطول العمر والرزق بالزوج والأبناء والبيت السعيد .. وقليل من النساء كانت هذه الوشمة فوق جباههن أو بين الحاجبين .. إن النساء في أحياء المدينة جميعاً شديداً البياض .. عيونهن سوداء واسعة وكأن وجه المرأة نصفه عيون .. وأنوفهن لها كبرياء وشموخ .. هل ولدت النساء في هذه البلدة امرأة واحدة جميلة وكان زوجها أجمل ..

وكانت هنا أجزاء متفرقة من أسواق أخرى .. للقماش والذهب والتسالي .. وأخرى للطعام كالخضار والفاكهة والبواجن

واللحوم والخلوى يلتصق بعضها ببعض وجميعها في المدينة القديمة التي تحضن بيوت التجار المبتدئين وموظفي الحكومة والحرف الصغيرة .. وفي طريق العودة قامت نيروز بشراء حلة فاخرة لسلامة وتقبلها مندهشاً .. قال لها :

- لا أعرف كم أنا مدين لك اليوم .. مدينة جميلة وحلة أكثر من رائعة .. وإن أجمل من كل هذا أن فتاة .. هي أجمل فتاة في المدينة ترافقني وتمسك بيدي وتخاف علي من النساء .. وسعدت نيروز بكلماته سعادة لا توصف ثم قالت :

- لبتك ترافقني أبداً ..

- من الآن لن أتركك ولن أترك هذه المدينة طالما أنت فيها ..

- سأظل فيها إنها مدينتي .

ضاحكاً بصوت عال قال :

- وكيف نتخلص من ريماء ..

- ستنتهي ريماء في بيت صبيحة .. دون أن تكلفنا أي عناء .

- هي التي اختارت طريقها ..

نيروز وهي تحضن ذراعه :

- وأنا أعرف طريقي جيداً ..

- أما أنا فقد نسيت طريقي ..

- كيف ..

- لم نذهب إلى فندق السلام ..

- لقد نسينا .. بالله ..

- ألا نستطيع أن نذهب الآن ..
- غداً .. في نفس موعدنا اليوم ..
- أهذا طريق البيت ..
- طريق بيتنا القديم ..
- ألكم بيت قديم ..
- لكنه جميل يعيش فيه عبد صغير ..
- عبد صغير .. أما زالت العبودية هنا ..
- قليل .. قليل منها .. إنه ابن عبدنا الكبير .. وما زال يعمل عند أبي حارساً في المكتب .. وهو يقطن إحدى الغرف في بدروم البيت .. وهو عبد صغير السن لا يتجاوز التاسعة عشرة .. وهو شقيق لخادمة تعمل عندنا ..
- كما يحدث عندنا قليل من أحفاد هؤلاء مازالوا يعيشون .. ولكنهم تحرروا الآن وعادوا يملكون أرض أسيادهم ..
- لم يصلوا عندنا إلى هذه الدرجة .. فالعبد مازال عبداً وأحفاده كذلك ..
- وكانا قد وصلا إلى شارع ضيق وهو الطريق المؤدي إلى البيت القديم .. واستبد به الدهش لما أشارت إليه .. وقال : هذا قديم وقالت .. نعم .. إنه من أيام جدي .. فقال سلامة :
- لماذا لا تبيعونه لريما ..
- نحن لا نبيع .. أبي يشتري فقط ..
- وهبطا سلماً صغيراً مؤدياً إلى باب كبير ونادت على العبد قائلة قبل أن تصل إلى الباب :

- يا دحروج .. دحروج ..

وسمّع صوت بالداخل يقول :

- نعم يا ستي .. نعم .. حاضر

وظهر شاب أبيض يافع يرتدي جلباباً أخضر وابتسم ملء

فيه وقال :

- ها أنت .. ها أنت .. قلت إنه صوت ستي النازوك ..

وقالت بلهجة حازمة وهو يفتح الباب الحديدي :

- دعك من الكلام الكثير الآن .. إذهب ونظف غرفة الجلوس ..

وشد الباب بيديه في صعوبة وقال :

- نظيفة جداً .. نظيفة .. تعالى حتى تريها .. أنا لا أكذب .. لقد

نظفتها هذا الصباح .. كل صباح أنظف هذه الغرفة ..

وأخذ الحقائب والحاجيات منها ومن سلامة وصعد الدرج إلى

الطابق الأول وهما خلفه .. وفتح غرفة من باب على الدرج .. وفتح

النافذة فإذا بأنفاس نسيم عليل .. وكأن الطبيعة في هذا الحي

ترحب بقدميهما إلى البيت القديم .. ونزل دحروج ليحضر الماء

ويعمل الشاي كما أمرته نيروز .. وجلس سلامة مندهشاً من أحداث

اليوم .. كانت الكراسي قديمة نظيفة تملأ الحجرة الكبيرة ، وصور

قديمة علّقت بالحائط يبدو أنها لأجدادها .. ولما وجدت عينيه قد

تعلّقت بها .. أخبرته أنها لجدّها من أبيها وأمها وجدّتها .. وجلست

قبالته وقالت .. ما رأيك ؟

- في ماذا ؟

- في البيت .

- جميل .. في حاجة لمن يؤنسه ؟

- كانت جدتي من أبي تصحبني معها كلما خرجت من البيت ..
وتصنع لي لعباً من الورق ، وتقص عليّ القصص .. وكانت
تنبئني بأنني سأتزوج من أمير أو ملك .. حيث كانت تعتبر أن
جمالي زائد عن الحد ولا يوجد في المدينة من يستحق هذا
الجمال .. ولكن في الحقيقة قلت لها مرة .. أين الأمير يا جدتي
.. من أي مدينة يأتي .. وكانت تقول دائماً .. يأتيك .. سيأتيك ..
مدينة من المحاربين في الجبال ليس بها ملك أو أمير .. فيها
أغنياء ولكنهم جميعاً قوم عاديون .. الجاه والسلطان عندهم لا
يتعدى بيته ومكتبه والسائق الذي يقود سيارته .. مثل أبي مثلاً
.. كنت أقول لها كل ذلك تفصيلاً وتحليلاً كل يوم وفي أيامها لم
أكن تجاوزت الخامسة عشرة .. وعندما ماتت كنت في السادسة
عشرة .. إفتقدت بعدها الحب والدفء فلجأت إلى أبي .. ولم
يملا أبي هذا الفراغ وكل ما يستطيع أن يفعله لي .. أن يقول
خذي من المال ما تريدين .. وقلت له مرة منذ عام .. أنا في
حاجة إلى رجل يا أبي .. فقال هذا مستحيل في هذه المدينة ..
وها أنذا .. ولا بديل عن دار صبيحة .. وهناك أزواج كبار جداً
في العمر لكنهم أغنياء .. وماذا يفيد .. أريد رجلاً أحبه شاباً
قوياً .. ولا أخفي عليك أنني سأعرض ميلتي إليك لأبي ..
سأعرضك على أبي كرجل أختاره زوجاً .. أعرف أنك متعلق

بريما .. لكنها تركتك .. وأنا متعلّقة بك من أول يوم رأيك فيه ..
والحال بيننا أياماً .. نلتقي ونتعارف لأعرفك وتعرفني .. وإذا
كان الوفاق في النهاية خذ من المال ما تريد .. لو أردت أن تبني
فندقاً سأعطيك .. الحوار بيني وبينك والأيام تحكم إن كان لنا
وفاق أم لا ..

- قد نتعارف وملتقي إلى أبعد مدى ثم لا تجدین موافقة من أبيك
وأهلك .

- أبي لم يرفض لي طلب ..

- في البيع والشراء والمال .. لكن هذا أمر آخر ..

- أترك الأمر لي .

- أنت لا تعرفين شيئاً عني .. أنا رجل فقير في بلادي .. وليس لي
بيت خاص بي ..

- وما يضير في هذا ؟ وأنا لا أملك ولا أجد رجلاً في بلادي ..

- أخاف أن يكون ذلك إندفاعاً منك نحوي ينطفيء بعد فترة ..

وأقبلت تجلس إلى جواره ، وشعرت أنها تتعق من ماض
أجوف ظلمها فهي تقبل على إنهاء دراستها الجامعية هذا العام
وليس في الأفق أمل يحمل إليه طموح أي امرأة .. وشعرت بشيء
كالدوار .. فأمسك بيدها متسائلاً عما ألم بها .. فقالت له عن الألم
تمسك بها .. فأمسك بشعرها وتحسّس جبينها .. فأخبرته بصوت
هامس بالود والحنان الذي تشعر به نحوه قائلة :

- كم أنت وود . يكفيني هذا الحنان وذلك الشباب !!
وأحسُّتُ بذراع سلامة يُلْفُ خصرها ويعتصرها بينما كانت
تلك النسمات الباردة تؤنس بقاعهما لكنهما لم يشعرا بأي برودة ..
وبينما كان الصمت يلف هذا البيت القديم .. وصوت ملعقة الشاي
في الأكواب ينبعث في البدروم وخطوات العبد دحروج يرتفع
صداها وهو يصعد الدرج .. إبتعد سلامة قليلاً عنها .. وطرق الباب
ودخل يحمل الشاي وزجاجة ماء ثم إنصرف .. وأمرته نيروز بأن
يجلس بباب البيت .. وما كادت تراه ينصرف حتى اقتربت من
سلامة قائلة :

- أكمل .

- وهل كنت أحكي شيئاً ..

- نعم .

ومالت برأسها فوق كتفه فاحتضنها بذراعه كُرَّة أخرى وقبل
يدها .. فقالت هامسة :

- ألم أقل إنك وود .. إن حبك هو الدنيا والجاه والبيت ..

- لا تنخدعي يا نيروز .

- دعني أنخدع .. إخدعني يا سلامة وأكمل ..

وملات الدهشة نفسها حين وجدته ينزل بالأرض ويأخذها
برفق بين يديه .. فما كانت في يوم بين يدي رجل يشعرها بهذا
الحب كما ترى الآن .. وقالت له في صوت خفيض :

- إقفل النافذة .. إقفل

وأغلقها وعاد لينام بجوارها فأمسكت بذراعه وهي تكاد

تهمس :

- إقفل الباب .. إقفل ..

ثم عاد ثانية يلفها بين يديه وراحت تردّد (قول .. قول) .
واتسعت عيناها وقرأ نشوة العشق فيهما .. وما كادت
عيناها بهذه الآفاق الحلوة من قبل .. عميقة سوداء تترنم بمعاني
حلم سرمدي .. وتمادى في قبلاته الحارة حتى عاد يطبعها على
ساقيهما العاريتين وصدرها ووجهها وتركته واستسلمت .. وكأنه
يقول لها .. أنا غني بما أنت فقيرة إليه .. أنا الذي سأمنحك كل
مباهج الحب ودنيا السعادة التي لم تشعرى بها من قبل .. أما
نيروز فلم تكن تحلم بهذه النشوة التي تحظى بها بين يديه ..
وأيقنت أن هناك عالماً آخرأ ثرياً يملكه الرجال حين يعشقون امرأة
.. ولم تشعر بانها امرأة .. ولا كيف تكون الأنثى إلا بين يدي هذا
الرجل .. وتأكدت بأن هناك عذوبة جديدة بدأت ولن تنتهي في
حياتها .. وأنها لو كانت تملك مدينة كاملة فسوف تبيعها من أجله
.. ومرّ كثير من الوقت حدثته عن حياتها وآلامها وتبادلا عهود
الوفاء حتى يجتمع شملهما في بيت واحد .. ولما كان يساعدها في
ارتداء ملابسها .. كانت تنام على كتفه مرة وتقعّد في حجرة أخرى
.. وتتأجبت كثيراً وتمنّت لو تقضي الليلة معه في هذا البيت ..
وأخذت تقبله وكانت وكأنها ستموت بين شفّتيه وراحت تطلب منه أن
يقول بصوت تسمعه أذناها بقوة .. أحبك أحبك

وتقول له .. قل .. قل ..

ويأخذها بين أحضانها مردداً .. أحبك .. أحبك ..

وأخذها منذ تلك الليلة يلتقيان كل مساء في تلك الغرفة ..

وأعطته من المال الكثير .. ولم تذهب به إلى فندق السلام .. ولم

يطلب منها ذلك قرابة شهر .. غير أنها في يوم طلبت من أبيها أن ينزل سلامة شهراً أو شهرين في البيت القديم حتى يجد سكناً مستقلاً فوافق .. وقام بحروج بتنظيم وإعداد غرفة بجوار الغرفة التي يلتقيان فيها .. بها سرير ودولاب وكنبه ، واشترت نيروز غطاءً ثقيلاً فاخراً ودفاية كهربائية تقيه البرد ..

وكان سلامة ضعيفاً أمامها ولما طلب منها ذات يوم الذهاب إلى فندق السلام لكي يعمل .. أخبرته أن ذلك سيكون قريباً .. ولكنها في مرة أخرى قالت له :

- وماذا تريد من هذا الفندق ؟ خذ المال الذي تريده مني ..

- هذا لا يمكن أن يكون أبداً ..

- إذا ذهبت إلى ذلك الفندق فسوف أفقدك ..

- أبداً ما دمت في هذه المدينة فأنا لك ..

- أنت لا تعرف ماذا يدور في الفنادق الكبيرة .. وهناك نساء جميلات ..

- ولماذا لا تدعيني أذهب إلى أي مكان .. أشعر بأنني أصبحت عبداً ..

- أنت لست خادماً حتى تقول هذا ..

- أنا ضحية لتلك الغربة القاسية .. وقد أكون ضحية لكل امرأة جميلة أقابلها ..

- أنت لم تخسر شيئاً في علاقتي معك ..

- لقد قبلت بهذا منذ أن كنت في العاصمة ..

- هل فعلت مع ريماء ..

- أبدأ .. مع هند صديقتها كانت لنا علاقة الأزواج ..

- تزوجني ..

- كيف ؟ كنت متزوجاً بها عرفياً ..

- ولماذا لا تعتبر نفسك متزوجاً عرفياً مني ..

- لأننا لم نكتب عقد الزواج ..

- نكتب .. ولكن دعني أخبر أبي أولاً برغبتني في الزواج منك ..

- لقد أصبحت حياتي كلها حراماً .. وأقبح ما أشعر به أنني رجل

بلا عمل .. فهذا المال الذي أخذه منك يعتبر أجراً مقابل علاقتني

معك .. لقد أصبح كل شيء في حياتي وضيعاً ..

- هذا المال عندي لا أعرف كيف أبعثره .. ولو لم تكن عندي عزيزاً

لما فعلت لك ما فعلت ..

- إذا كنت عزيزاً حقاً فلنذهب إلى ذلك الفندق .. أريد أن أعمل

عملاً يناسبني .. وللأسف فإنني أطلب ذلك دائماً من امرأة في

كل مدينة أذهب إليها ..

- وما العيب لكن هناك فرق .. فأنا لست أية امرأة .. ولكن على

شرط .. أن تكون معيشتك هنا في هذا البيت ..

- دعيني أستقل .. ليس من الضروري أن تكون معيشتي هنا ..

لكننا سنلتقي في أي وقت ..

- وإذا لم تأت حينما أطلبك ..

- إفعلي ما تريدن ..

- سأفعل ما أريد ..

في اليوم التالي ذهبت به إلى فندق السلام وقابلهما صاحب الفندق وهو ينحني وكاد يقبل يدها .. وعمل سلامة فوراً محاسباً للفندق وتركته نيروز بعد أن تناولا الشاي والجاتوه الذي قدمه لهما صاحب الفندق .. وفي المساء ذهب وأحضر حاجياته من بيتها القديم .. ومرّت هذه الغيبة على ريماء وهي تعتقد بأن سلامة قد رحل من المدينة إلى مدينة أخرى ولم يكن والد نيروز قد أخبر أحداً في البيت حتى زوجته بأن سلامة يعيش في بيته القديم وكان ذلك بناء على طلب نيروز .. ولقد سألت ريماء عنه كثيراً في المستشفيات والفنادق والشقق المفروشة ولما تعبت انصرفت إلى حالها تبحث عن بيت تشتريه وبين يوم وآخر تذهب إلى بيت صبرة ترقص في حلقة الزار وتعرض عليها صبرة مزيداً من الرجال .. وفي ليلة جاعته بالفندق واحتضنته أمام العاملين والعلاء وأسرع العاملون يقدمون لها التحية وينحنون أمامها وهي تمد يدها في حقيبتها لتمنح كل واحد منهم ورقة نقدية .. وشعر سلامة بالفخر لإمرأة تحتضنه أمام الجميع .. وأكثر لإمرأة ينحني لها الفندق بأسره وهي تنحني له ولحبه .. وكان يشعر بالخوف من المدن الغريبة التي نزلها إلا هذه المدينة .. ربما لأنه يتربع على عرش المدينة .. لأن إمرأة في القمة تحبّه وداخله شعور بأن الناس كلها تجري أمامه ويلهثون خلفه .. وكانت ترتدي فستاناً أسود من القطيفة ولما جلست ووضعت ساقاً على الأخرى كانت تبدو طويلة ممشوقة .. وكان ينظر إليها منبهرأ .. وانعدل في جلسته ونظر حوالبه فوجد كثيراً من الرواد

يصطحبون النساء .. وعدد آخر من النساء متفرقات يجلسن في صالة المسرح الداخلي والبهو وقاعة الطعام .. وكان هناك مزيج من عطور الأزهار المنبعثة من الحديقة الخارجية .. ورائحة اللحم والمرق والفاكهة والحلوى .. وعلى موائد الرواد تفتح زجاجات البيرة والشمبانيا وأنواع أخرى من الخمر .. راح ينظر إليها يتنعم بأناقتها .. وإنبهر بشخصيتها .. وأمسك بيدها .. وقبل أصابعها .. وسعدت بذلك ثم ضحكت قائلة في دلال :

- يعجبني هبوطك .. وتتصرف كأنك جبل .. أو ملك أو رجل غني في المدينة .. ولا يعرف أحد أنك كاني ..

- يعني فقير .. على العموم الفقير فقير العقل ، والغنى غنى النفس .. المال زائل يا نيروز ..

- أنا واثقة من أنك غني وغناك في داخلك .. ويكفي أنك رجل بالنسبة لي .. أفضل رجل في العالم .. ولكن في هذه المدينة لا توجد مثل هذه القيم .. فالغني غني بالمال والفقير فقير لأنه يأكل البتاو ..

- إلى متى سيعطل المرء أعمى .. لأن هؤلاء الناس بعيون عن الإيمان ..

- المهم .. أنا أحبك الآن أكثر مما أحببتك في أي وقت مضى .. ومن واجبي الآن أن أصنع من هذا الشعور قراراً أقنع به أبي حتى يضمنا بيت واحد .. ولكن لا تحرمني من أن ألقاك وقت ما أريد ولا تجعلني أندم على أنني وفرت لك عملاً .. أنا أريد سعادتك وأنت إن كنت تحبني فلن تحرمني من سعادتي ..

- وعد مني يا نيروز ماذا تحسبيني .. لست ناكراً للجميل ..
دعيني أدبر أمري عدة أيام هنا .. ثم نتفق على موعد لقائنا كل
يوم لو استطعت ..

- أنا واثقة من ذلك .. ومن أجلك لن أدخر سبيلاً إلا وطرقته
للحصول عليك أبداً ..

- إفعلي ما تستطيعين .. فإن حياتي معك تسعدني .. أشعر وأنا
معك أن العالم كله يحضنتي .. وأنا كاني سعيد الحظ فلم أغسل
طبقة في فندق أو مطعم وكلما دخلت مدينة التقت نساؤها حولي،
فما بالك أنني دخلت مدينتكم برفقة امرأة .. وما بال العالم الآن
أنني أعشق أجمل وأغنى امرأة في تلك المدينة .. أليس هذا
شرفاً لي .. أنا محظوظ بالفعل ..

وازدهم الفندق بالرواد وبدأ صوت الموسيقى يعلو .. وتنهأت
خشبة المسرح بالإضاءة ودخلها ثلاثة من الموسيقيين ودخلت مطربة
ترتدي فستاناً من النايلون الشفاف وأمسكت ميكرفوناً صغيراً
وبدأت تغني وفجأة علا صوت الطبل وبدأ الرواد يدخلون المسرح
يصفقون بحرارة وتعلو أصواتهم بالغناء معها .. وكثر عدد الرواد
فجأة ودخلوا جميعاً المسرح وبدأ الرقص .. وكان بعض النساء
يصرخن فيفزغ كل رجل إلى امرأته .. ولما يضم الرجل تلك المرأة
التي علت بالصراخ .. كانت الواحدة منهن تبكي بصوت عال ..
وكان الرواد يرتدون حلاً جميلة والنساء في قمة زينتهن ويتعطرن
بأفخر العطور .. وأخذها بين ذراعيه وقالت له وهي تحتضنه ..

- لقد قلت إنني أجمل النساء .. فلا تنظر إلي النساء .. أنا مثل
هؤلاء جميعاً .. أنا بين ذراعيك ..

وكان يمشي بها بين الراقصين .. ومن غيرتها عليه أخذته
إلى حديقة تقع في مسقط الفندق .. ويوجد في هذه البستنة
الصغيرة نساء المدينة العاشقات .. وكل فتاة عذراء تعبد فتاها في
رومانسية .. وكأن الرواد هنا في بيوت مغلقة .. وخلعت حذاءها مثل
بقية النساء .. وقالت إخلع مع الرجال .. وألقت النساء المعاطف
والجواكت الثقيلة وبعضهن خلع الجوارب وأخريات فتحن أزوار
صدورهن .. ولم يصدق الكاني أنه في مدينة شرقية ، ولما كانت
تجده مشغولاً عنها بشيء تشده إليها وتضمه بين ذراعيها .. وبعد
شوط من الرقص الكلاسيكي على صوت موسيقى تنبعث في هدوء ،
جلسا قليلاً وتناولوا شراب المانجو .. ثم بدأت الموسيقى الراقصة
فتمايلت بين يديه وعلمته رقص المدينة وفعل مثل أهلها .. وكان
دائماً يحاول أن يندمج معها محاولاً رد بعض جميلها .. وتهدجت
أنفاسها وأنفعلت وانخرطت في بكاء شديد كما تفعل الأخريات ..
وأخذها إلى المقعد وأخذ يربت على ظهرها ويقبل يدها فهدأت قليلاً
.. وبدأ بعض الرجال يأخذون النساء إلى البيوت .. وكان الوقت
يقترّب من منتصف الليل فقال لها :

- تأخرت عن البيت .

- لا تقلق فقد أخبرت أبي وأمي بذلك ..

- عليّ أن أخذك الآن إلى البيت .. يكفي هذا الليلة ..

- فلنذهب إلى البيت القديم ..

- لماذا البيت القديم ..

- أريدك هناك ..

ودق قلبه وراح يجمع حاجياتها ويضعها في حقيبتها
ويساعدها في إرتداء ملابسها .. وأخذها بين يديه وكان الطقس

قارس البرودة في الشارع .. وسرعان ما دخلا في عربة أجرة إلى البيت وهناك عند بابه كان والد نيروز يجلس مشدوهاً في الكرسي الخلفي بسيارته وبجانبه يقف عند باب العربة خادمه دحروج .. إندهش الرجل وهو يرى إبنته وسلامة ينزلان من عربة الأجرة .. ولكنه تما لك نفسه وتذكر أنها الغالية وأن هذا الكاني ما هو إلا تابع طيع لإبنته .. يمشي معها ويسايرها من أجل مصلحته وجرى نحوهما دحروج :

- سيدي هنا من ساعة .

قالت وهي تلعنه :

- إذهب عن وجهي يا كلب ..

وتلعثم دحروج وجرى نحو سيده الذي أخبره أن يذهب إلى الكاني ويخبره أن يعود من حيث جاء فوراً .. ولما كان ينقلب نحوهما وقع بالأرض لكنه سرعان ما قام وقبل العربة بخطوات واجه دحروج سلامة قائلاً :

- سيدي يخبرك أن تعود حيث جئت .. فوراً .. إنه لا يريد ..

وعلا صوت نيروز :

- ماذا يقول ؟ وأمسكت بذراع سلامة وكأنها تشد أزره وقالت في

هدوء وثقة : إذهب أنت .. عد إلى الفندق الآن .. وسأصرف

أنا ..

ورجع سلامة إلى الخلف ودخل في شارع جانبي وبدأ أنه في

شدة الخجل والإضطراب ..

وأمر والدها السائق بأن يدخل البيت مع دحروج .. وخيل

إليها أن العربة تهتز وأن أرض الشارع تهوي إلى تحت .. لكنها

سرعان ما تماسكت ودخلت إلى المركبة وقال هو يكتم غضبه :

- أين كنت مع هذا الخادم ؟

وقالت وهي تكيد له :

- ليس خادماً إنه سيد ..

- لقد جاء إلى بلادنا كأي كاني .. يلطف له حفنة دراهم ويعود ..

يجمع هذه الدراهم بأي شكل يتاجر في أي شيء .. يستغل أي ..

- أبي .. أرجوك .. إنه سيد المدينة كلها بالنسبة لي .. لو أتيت

برجل مثله من أهل المدينة أو من أي مدينة أخرى .. سوف أقطع فوراً عن مقابلته ..

- كيف تسهرين معه حتى هذه الساعة .. وماذا يقول الناس

ودحروج والسائق .. كفى كل هذا ..

- أبي أقولها لك بصراحة وبهدوء .. أنت تحبني وتحب أن يكون لي

بيت وزوج وأولاد .. لن أكون أبداً كأي فتاة هنا بلا رجل

يتزوجها .. أو سأصبح أرملة لأن زوجي مات في الجبل .. وليكن

في علمك لن أتزوج من عجوز غني .. أريد أن أعيش يا أبي ..

فكر في أمري ولا ترد عليّ الليلة .. إذا كنت تحب مصلحتي حقاً

.. أرجوك .. وأمسكت بذراعه ثم قبلت يده .. قائلة .. أرجوك ..

وطلب الرجل من دحروج أن يرسل السائق .. ولما كاد الرجل

يدخل العربة قال له :

- إذهب إلى بيتك الآن .. سأقود أنا إلى البيت ..

وانحنى السائق وانصرف .. وجاء دحروج إلى سيدته وانحنى

وداح إلى سيده أمام عجلة القيادة وشد يده وقبلها ..

ومرق الرجل بالسيارة في الشوارع كما يمرق المنشار في الخشب .. كانت العربة تسير بسرعة وبغنف شديدين ..
- مهلاً يا أبي ..

- في إمكاني سحق الكانين جميعاً .. لم أكن أتصورُ أبداً أن تصادق إبنتي من هؤلاء .

- لك أن تفخر يا أبي أنني أقمت علاقة مع كاني .. وجامعي ..
ورجل لا مثيل له في المدينة .. جمالاً وقوة وأدباً .. إنه كالملك ..

- ملك ويعمل في فندق .. ملك ويلهث مرةً وراء ريماء ثم وراءك .. ثم يا ترى خلف من بعد ذلك .. ما باعث هذا الكاني ؟ ماذا يريد ؟
- يريد الحياة وأنا أريد الحب والحياة .. أمنحه الحياة في مدينتي وهو يمنحني الحب .. وسوف أعمل منه ملكاً ..

- بعال أبيك ..

- مال أبي هو مالي ..

- أنت في قلبي أيقونة .. لم يكن لي ولد .. وأنت أحب بناتي إلى قلبي .. فلا تجعليني أنقلب عليك ..

- أنت أبي وأحبك .. وأعرف أنك تستطيع بكلمة في الهاتف جرّ الكانين جميعاً إلي معتقل المدينة .. أعرف كل شيء عنك يا أبي .. لكن إياك يا أبي أن تعمل شيئاً مثل هذا مع سلامة .. إنه حياتي .. ساعتها سأقتل نفسي .. فلا تلجأ إلي العنف في أي شيء يمسنني ..

قال الرجل وهو يقف بالسيارة عند باب القصر :

- هذا تهديد من إبنتي .. لأول مرة سوف أجعل الأمر شوري ..
حتى بسنت الصغيرة سنأخذ رأيها .. حتى تعودي إلى
صوابك..

قالت نيروز وهي تنزل من العربة وتجري نحو الباب الكبير :
- صوابي حياتي .. سلامة بعمرى كله .. أترك لي البيت القديم ..
حردني من كل أموالك .. إعطني مأوى فقط .. البيت القديم
واتركني لحالي

ودخلت البيت تصرخ بصوت عال ووقعت على الأرض عند
أول مقعد بالصالة .. وفزع الجميع من نومه وانحنت الأم عليها ولما
جاءهم الأب قال :

- دعوها لقد خرجت من بيت صديق .. لقد شلحت البرقع .. لم يعد
عندها أدب ولا حياء ..

قالت الأم وهي تقف إليه وكأنها ترجوه :

- ماذا حدث ؟ قل بالله .. لماذا تأخرت ؟ ما الخطب يا صديق ..
بالله ..

وكادت تقبل يده ، غير أنه أزاحها من طريقه ودخل غرفته
يغير ملابسه ، وحملت الأم وبناتها نيروز إلى غرفتها وأخذت السيدة
رأس نيروز في حجرها وراحت تبكي وهي تقول :
- إيش جرى ؟ إيش مال يا بنتي ..

وكانت ربما تغط في نوم عميق ولم تدر بشيء .. لقد جاءها
زوجها من المدينة .. لقد نجحت صبحه في الحصول على رجل
مناسب اليوم .. ونامت نوماً عميقاً بعد أن وجدت طريقها .. لقد

أخبرت أمها بذلك ثم نامت .. وهكذا كان اليوم غريباً وجديداً على
الأم .. ومرّ بعض الوقت ونزلت بالطابق الأرضي حتى جاعها
صديق وعيناه تنتفخان من الغيظ قائلاً :

- إبتنك تريد سلامة .. تريد أن تتزوج من كاني ..
وانعدلت السيدة في مقعد قبالتها وحاولت أن تهديء من
غضبه قائلة :

- قبل أي شيء سوف أحضر لك الطعام .. ولا تقلق من شيء ..
فرد عليها غاضباً :

- كان شيئاً لم يحدث .. وكأنك تعلمين بمقابلتها للكاني ..
فرجعت إليه :

- بالله يا غالي لا أعلم بشيء .. غير أنك منذ شهور أخبرتني بأنه
يسكن في البيت القديم بناء على طلب نيروز .. ولو كان هناك
تجاوز منها فلشعورها بأنها تتصرف بحرية وجرأة كالولاء ..
وأنت الذي تقول لها دائماً .. أنت الغالية والحبيبة و... وفي
كل الأحوال لا تتعامل مع الأحداث بعصبية .. كل مشاكل الدنيا
ستحل ..

وذهبت تعد الطعام ولما عادت وجدت الرجل نائماً في المقعد
وكان كلمات المرأة الهادئة جعلته يهدأ قليلاً .. ولما استيقظ لتناول
طعامه قال وكأنه يحدث نفسه :

- ماذا حل بها .. أنا لم أفهم .. لم أكن أتصور أنها تستخدم البيت
القديم هكذا .. سوف أقتل الدحروج الذي لم يخبرني بهذا في
أول الأمر ..

وقالت السيدة وكأن الأمر عادي ولا يستحق كل هذا الانفعال:

- لقد كانت ربما تريده زوجاً لها .. لكنّها تحب المال وتغيرت أفكارها لما وطأت قدماها المدينة .. ولقد أخبرتني اليوم بأنّها وجدت رجلاً لها عند صبحه .. هل تعرف كم عمره ؟
ونظر إليها شذراً :

- مائة عام .. لكنه من البلدة نعرف أصله وفصله ..
- ومن جهة سلامة تعرف أصله .. هذا الوجه الرقيق الجميل المهذب هل تظنه كان عبداً في بلاده .. لقد تربى في بيت طيب كما علمت ودرس في الجامعة وسافر كل بلاد العالم قبل أن يأتي إلى بلدنا .. ويكفي أنه يصلي ويعرف الله .. شاب فيه كل ما هو طيب .. عيبه أنه غريب .. شرف له غربته .. تأمل قليلاً في الله والخلق تجد أن هذا الذي لا يعجبك .. يرتدي تاجاً على جبينه ..
وقام إلى الحمام يفتسل ثم عاد وخلع ملابسه في الصالة وارتدى غيرها أحضرتها له زوجته .. وقال :

- شاي .. شاي

- حاضر من عيوني

وضحك الرجل وهز رأسه :

- كل حاجة عيوني ماذا أخذت من عيونك ..
ولما جاّعه .. كان يحتسي الشاي وهو أهدأ قليلاً وقالت له :
- فكر في مستقبل نيروز .

- أزوجها لرجل فقير لا يملك شيئاً ..

- أنت تملك كل شيء .. ولا تملك رجلاً من البلدة مناسباً لابنتك ..

ثم إنك لا تملك أي شيء .. إن الله يزيل النعمة من عبده في

لحظات .. فكن كريماً مع نعمة الله تكن كريمة معك .. كن كريماً

مع الناس يكرمك الله ..

يقول الرجل بكبرياء - لقد صنعت كل هذا بذكائي وعملي ..

- وأين الله ؟

- أقول الله في كل وقت ..

- أنت لا تصلي ولا تصوم فكيف تقول الله .. إن الناس تقول الله

بقلوبها وجوارحها وبأفعالها .. أين كتاب الله في بيتك .. تقفل

عليه خزانة نقودك .. هل قرأت مرة في كتاب الله .. وعندما

تسمع القرآن في الراديو .. تقول من أتى بهذا ؟ ماذا أنت بالله ؟

تعمل في كل شيء تتعاون مع الحكومة متظاهراً بأنك حزبي ،

وتتاجر في السلاح وتعد الأكراد بالسلاح .. وتتعاون مع

المخابرات من جانب ومع زعماء الجبل من جانب .. وكل ذلك

خوفاً على حياتك وثروتك .. وسمعت أخيراً أنك تتعاون في جلب

الغرباء من الساحات وتقوم بتسفيرهم إلى أفغانستان ليتعلموا

الجهاد وتأخذ على كل رأس قدرًا من المال .. أعرف كل هذا وأنا

لا أتكلم .. فأنت تعمل مع كل الجهات من أجل مزيد من الثروة

.. والله أعلم ماذا تفعل خلف ظهري ..

وضرب الرجل بقبضة يده على منضدة صغيرة أمامه وكاد

يرفسها بقدمه :

- كفى .. كفى .. سوف أعمل بكل شيء .. التجارة في كل شيء ..

إنها فرصتي في الحياة وفرصة بناتي .

تقول السيدة وهي تقف :

- وهل مصلحة بناتك في المال فقط .. دعني أبحث عن جوائز

أخرى لإسعاد بناتك ..

وقف الرجل وهول إلى غرفته بعصبية :

- إبنتي لا تتزوج عبداً ..

- بالله لو ذهبت في كل أرجاء بلدك فلن تأتي بحرٍ ووجيه مثل هذا

الكاني .. أنت في ضلال مبين تفترى على عباد الله .

- سوف أسحق هذا الكاني .. لقد أوقع إبنتي في حبه

- إياك أن تفعل به شيئاً .. أكون محرمة عليك .. وسوف تخسر

إبنتك

وأدار ظهره إليها وضرب كفاً بالأخرى ..

- استغفر الله .. ولو كنت تصلي لقلت لك أن تصلي وتستخير الله

.. لكن بحق الله .. أنت رجل كبير ولا تعرف كيف تصلي .. ومع

ذلك لو ركعت وسجدت لله فسوف ينير طريقك ..

- كفاني دروساً منك يا حميدة .. وماذا فعلت بصلاتك .. ألو كنت

أصلي لأتاني هذا الغنى والجاه .. أبداً .. كل من أعرفهم

يصلون ويصومون فقراء ليس عندهم شيء ..

- بهذا المنطق تفكر .. إنهم أغنياء بما لا تعرفه .. أغنياء بإيمانهم

.. إن الله في جوارحهم وقلوبهم ومشاعرهم .. إنهم يأكلون
الخبز والجبن والتمر وإن له في مذاقهم وبطونهم حلوة الضأن
والشهد ..

- كان يجب أن يكون لي زوجة غيرك ..

- وأنا أولى بما تقوله .. لكنني أحتسبت الله فيك .. ولولا بناتي منك
لهجرتُ هذا البيت من زمن بعيد .. لكن رسالتي معك تنتهي
بتزويج بناتي .. بعدها سأعترلك .. ولولا الحرام لاعتزلتك من
يوم أن عرفتكَ .. والدين يقول في النهاية إنك زوجي ولا بد أن
أعطي نفسي لك .. وجدير بي لأنني أصلي وأعرف الله أن أطيع
زوجي حتى ولو كان فاسداً .. وعسى الله أن يصلحه في يوم ..
ولولا بناتي لما أجزت لك أن تقولي هذا .. ولن أصلي أبداً ما حييت
حتى أظل غنياً .. وسوف يأتي يوم لا تجددين فيه قوت يومك مثل
هؤلاء المصلين جميعاً في تلك المدينة ..

- والله أَرْضَى بذلك .. وسأظل أصلي وأصوم وأتقي الله أكثر
وزيادة يوماً بعد يوم .. ولا فائدة معك فانت في واد بعيد والله
بعيد عنك أبداً .. ويكفي أن الله لا يحب الفاسقين ..

.. وضرب الأرض بقدميه وبصق نحوها وانصرف إلى غرفة
نومه .. وذهبت إليه المرأة لتخبره :

- لن أنام معك في حجرة بعد اليوم .. ومع ذلك فإنك إذا أردتني
فلن أمنع نفسي عنك .. لكن هواء غرفتك والنوم بجوارك حرام
بعد هذا اليوم ..

وهزلت ريما وشحب وجهها وبرز أنفها مستطيلاً بين عينيها ..
وبدا عليها التوتر والاستسلام ، ولم يبق من كونها امرأة غير
ملابسها وملامحها الخارجية ، وفي صدرها قلبٌ مضطرب ، ورأس
واهية لا تستطيع أن تتدبر أقل الأمور الخاصة بها ، وبدأت تخاف
من الوحدة ومن بيت أمها ، إن شيئاً واحد يشدّها ويسيطر عليها ..
هو بيت صبيحة .. ورجل غني مناسب تجده في بيتها .. وبدأت
تعشق زار النساء الذي يُعقد هناك كل ليلة ، وكانت تقعد على
الأرض من أثر الانفعال بين النساء .. وكانت تعشق أجساد النساء
العارية ، تتمرّغ بالأرض وتمسك بأي واحدة من النساء بعنف وتأتي
بحركات غريبة ثم تصاب بغيبوبة فيها تتشنج وتتأوه وتنطوي ثم
تتمرّغ بشدة وتستسلم ، وتربت عليها صبيحة وتمسح وجهها بماء
بارد ، وتهمس في أذنها قائلة .. لقد جاء قرينك .. أخذك إليه ..
إنتهى كل شيء الآن .. تمام .. تمام ..

وإنتابتها رغبة قوية في شراء بيت وتنقل إليه كل نساء الزار
ورجاله ، وبدأت في صباح كل يوم تبحث عن دار .. وكانت قد
أخبرت أمها في يوم أنها وجدت ذلك الرجل غير أنها جاءت في يوم
تعلم أمها عدولها عنه .. والغريب أنها أقامت عند صبيحة يومين
كاملين عندما لاذت إلى جوارها فتاة من الضواحي تطلب منها
العون والمشورة .. ولم تكن ريماً أهلاً لأي ثقة ، غير أنها وقعت في
غي أمرها معها ، ودفعت ريماً أجراً مضاعفاً لصبيحة .. وغابت عن
صبيحة أياماً فيها كانت الفتاة تذهب إلى ريما في غرفتها ، ومرّت
الأيام كلما جاءت تلك الفتاة ذهبت إلى ريما في بيت أمها .. وفي
يوم جاءت الفتاة برجل من ناحيتها يسكن المدينة ليكون زوجاً لها
وكانت دار صبيحة هي مكان اللقاء بينها وبين الرجل لتراها ويراه ..

ولما انصرف الرجل أخبرت ريماء الفتاة بموافقتها فذهبت إليه وأخبرته بذلك .. وفي أيام قليلة بعد ذلك تمت خطبة ريماء إليه .. ونقدت ريماء الفتاة مبلغاً من المال .. وطلبت منها أن ترافقها بصفة دائمة عندما يتم الزواج ووافقت الفتاة أن ترافقها في بيتها الجديد بصفتها رفيقتها أو وصيفتها ، وفي أيام غابت عنها الفتاة . فذهبت إلى بيت صبيحة في منتصف الليل فلم تجد أحداً من النساء .. فدق لها رجل حتى ارتمت على الأرض .. ولما لاذت بالرجل تحتضنه دفعها عنه ، وارتمت على الأرض في الظلام موأقفل الرجل الغرفة عليها وأخبر صبيحة بها فأخبرته بأن إقامتها في البيت ليلاً لصالح الدار حيث إنها تدفع مبالغ مضاعفة .. وفي الظلام شعرت بشيء يلبسها وكان رجلاً حقيقياً يقترب منها ، وضمها إليه بشدة ولامسها بأصابعه الصغيرة وتقرّب إليها في حرارة وكان صوته كصوت طفل، ثم تحدثت معه في ود فاشتاقت إليه ثانية .. واقترب منها وحرك أصابعه الصغيرة فوق جسدها .. واستسلمت له ووقدت حيث ذهبت في عالم تحتي غريب .. بعد ذلك مرت أيام أخرى وهي تلتقي بالرجل الصغير في بيت صبيحة وفي ليلة طلبت منه أن يأتيها في غرفتها عند أمها فوافق .. غير أنه إشتراط عليها أن تكون الغرفة دائماً مقفلة من الداخل بمزلاج حديدي .. وأنه سيأتيها في الهزيع الأخير من الليل .. ولما أتاها في بيت أمها أخبرها أنه هندي .. ثم غاب عنها يومين .. ولما أتاها سألته عن غيبته فأخبرها بأنه كان مريضاً ، ومرت الأيام ولما لاحظت أمها بأنها غير طبيعية ، وضعت كتاب الله تحت ملابسها في دولابها .. فلم يأتها الجنى .. وجن جنونها .. وكان يتهيا لها في المنام أنه يتقدم من غرفتها غير أنه كان يقف عند بابها ولا يدخل عليها ، ومرت أيام عصيبة عليها حيث

كانت في شوق شديد إليه .. وفي يوم قلبت في ملابسها تبحث عن خاتم ذهبي .. فوجدت كتاب الله فأخذته إلى أمها قائلة :

- من أتى بالقرآن في غرفتي ..

- أنا يا إبنتي ..

- لماذا يا أمي .. لماذا ؟

- حتى يحفظك الله ويجنبك السوء ..

- أنا بخير بون كتاب الله ..

- أنت لست بخير أبداً .. لا تستحقين أن يكون الكتاب قريباً منك .. عليك اللعنة ..

- أرجوك يا أمي اتركيني ..

وتركت الكتاب بين يدي أمها .. وفي تلك الليلة جاعها الهندي .. وسألته عن غيبته فأخبرها .. أن كتاب الله في غرفتها فكيف يأتيها .. وقال لها .. لا أستطيع أن أقرب منك وكتاب الله في الغرفة .. وأن كلمات الله عندما تصدح في أي بيت فإنه لا يستطيع أن يقترب منه .. وأخبرته بأنها لن تضعه أبداً مادام ذلك يبعدها عنها ..

وفي يوم أخبرته بقرب زواجها فحزن حزناً شديداً غير أنه طلب منها أن تنام في غرفة وحدها خاصة آخر الليل وألا تضع الكتاب في غرفتها أو تسمع القرآن في بيتها الجديد .. ووافقت .. وانكفأت نيروز على كتبها لتنتهي هذا العام من دراستها في الجامعة وتواعدت مع أبيها على إنهاء موضعها مع سلامة بعد الإمتحانات ، وكان أبوها قد أمر بحروج عبد البيت القديم أن

يخبره إذا عادت نيروز مقابلة الكاني في البيت ، ولما إنتهت من إمتحاناتها ، وكانت تلتقي بسلامة في بيت كارولين متى إحدى صديقاتها المخلصات ، وكان الرجل يرسل العمال إلى البيت القديم لتنظيفه ودهانه وبعد شهر ثلاثة كان البيت القديم كالقصر ، وتم تشجير الحديقة وتقليمها وتنسيقها ، وإنبسقت فيها الفروع الخضراء وتم إحياء أشجار الفاكهة القديمة ، وظهر الحشيش الأخضر وأينعت الزهور والورود وترعزت الأوراق وتم طلاء السور الخارجي ، وفي الأيام الأخيرة كان صوت سلامة رقيقاً في نبرته حزيناً في أعماقه وكان كل شيء فيه قد خمد ، وكانت نيروز قد تسلمت رسالة جاغة من كان على عنوان بيتهم .. وضربه موضوع الرسالة وأثار في داخله الآلام والمواجه وقطع عليه خط الرجوع إلى كان .. حيث بدد والده كل ما أرسله من مال في بناء بيت كبير له واخوته .. أقام لهم بيتاً من الأسمنت المسلح وخصص لسلامة فيه غرفتين مثل إخوته وأن الرجل مقابل ذلك قد كتب له نصف فدان من الأرض الزراعية .. وسأل الله أن يعوضه وقرر أن يموت في هذه المدينة سنوات أخرى من الشقاء والمعاناة حتى يستطيع أن يوفر قدراً من المال يعوضه عن المال الذي أرسله إلى أهله في كان .. وقرر أن يفتح حساباً بالبنك ولا يرسل لأهله أية نقود أخرى .. وأخبر نيروز بما حدث له وصممت الفتاة أن تعطيه مبلغاً كبيراً يفتح به حسابه الجديد في البنك .. ولم يصدق سلامة أن تحمل له نيروز في مساء أحد الأيام خمسة آلاف درهم ، وكان ذلك الحدث كالصاعقة عليه ، وفي صباح اليوم التالي ذهب إلى البنك وأودعه في حسابه الجديد بالبنك في كان ، وتساعل .. ماذا يفعل لهذه الفتاة .. ألا يكون لها عبداً .. وفي يوم قال لها :

- ماذا تريدان أن أفعل لك ؟

- أن تكون لي أبداً

- وسنظل نلتقي هنا طيلة عمرنا .. لما لا يكون لنا بيت. ونعيش كما يعيش خلق الله ..

- إن عيشة خلق الله لا تعجب أبي .. إنه لا يعرفها .. الحياة عنده عدوان وبطش وغطرسة ..

- إن الله يبسط لنا الحياة حتى الآن .. لكنه في ذلك يمهلنا .. إن بطش ربك لشديد .. فكيف نخاف بطش أبيك ولا نخاف الله ؟

- إنها أيام اتحدى فيها أبي وسوف أضعه أمام أمر واقع .. إن أبي يهدد حياتي وفي استطاعته أن يضع المدينة كلها في المستقل وإنني أخاف عليك وفي نفس الوقت أطلب رضاه حتى لا يحرمني من ثروته .. دعني قليلاً .. أقصد قليلاً من الوقت وسوف يكون لنا بيت كبير .. بيت كبير ..

- ألا نستطيع أن نبعد قليلاً .. أقصد ..
فقاطعته قائلة :

- ألا نلتقي .. تريد أن لا ألقاك ..
وهز رأسه :

- يعني

- إن لقائي معك ضمن التحدي .. إن أبي يعرف أنني ألقاك هنا ..
لقد منعني أن ألقاك في البيت القديم خوفاً من كلام الناس ،
فأخبرته أنني ألقاك في بيت كارولين ، وهو الآن بين أمور كثيرة

.. هل يلجأ إلى العنف في منعي من الخروج .. هل يقدم في عمل أي نوع من أعمال العنف معك أو مع كارولين .. كل ذلك ناقشته معه وأعلمته تماماً بأنني سأطلق الرصاص على نفسي لو أقدم على عمل شيء من هذه الأمور ..

- وماذا قال لك ؟

- قال أنه يعطيني الفرصة وأنه يجهز البيت القديم حتى يزوجني .. لكن شرطه أن أتزوج رجلاً من أهل البلدة حتى ولو كان عبداً .. فأخبرته إعتبر سلامة عبداً .. فكان رأيه أن عبد المدينة نعرفه وخير من العبد الغريب .. وكان ردي .. أن ذلك العبد الغريب هو وجيه المدينة الوحيد ولا يوجد في مدينتي كلها رجل مثله .. وفي إمكانك يا أبي أن تجعله سيداً ..

- كيف أكون سيداً عند أبيك ؟

- تدخل الحزب .. وتتعاون مع المخابرات .. وتكتب تقارير ضد الناس الغلابة .. وأن .. تدخل معسكر المجاهدين الذين يرحلون إلى باكستان أو أفغانستان ..

- وما العلاقة بين الحزب والمخابرات والجهاد ..

- إن موضوع الجهاد هذا نشاط آخر يقوم به أبي .. فهو أحد ممالي معسكرات هذه البلاد من المجاهدين .. إنهم يطلقون عليهم مجاهدين .. وهي منظمة تقريباً تمويلها إيران وبعض البلاد الأخرى ..

- والجهاد لمن ؟ لصالح من يقيمون هذه المعسكرات ؟

- يقولون أن الجهاد في بسيل الله ..

- هل هناك معركة كبرى يعدُّون لها ..

- إن هذه البلاد نفسها قد سقطت .. سقطت أنظمتها مع شعوبها

.. وذهبت شعوبها ضحية الفقر والحرمان .. وهذا الإرهاب

موجّه إلى بلاد أخرى يضربون مظاهر الحياة والتقدم فيها ..

فمثلاً أنت كاني بعد التدريب تعود لبلادك وتكفّ بعمليات قتل

وتدمير في بلادك مقابل المال .. مال كثير .. كثير بالنسبة لهؤلاء

المجاهدين ..

- وكيف يكون مجاهداً وماجوراً .. وكيف يكون مجاهداً وحقيقياً ..

وهل هناك كانيون في هذه المنظمة

- أخبرني أبي منذ مدة أنهم كثيرون .. وطلب مني أن أخبرك

بالدخول في مثل هذه المنظمة فرفضت ..

- ولماذا رفضت ؟

- لأنني أريدك هنا في مدينتي فأنت حياتي فكيف أوافق على أن

تذهب إلى مدينة أخرى ثم تعود لبلادك حسب نظام العمل ..

كيف وأنا أريدك .. والسبب الثاني أن نوعية هؤلاء الناس نوعية

أخرى تختلف عنك تماماً .. لقد رأيت نماذجاً من هؤلاء إنها

نوعية سيئة من حثالة البشر .

وكان ذلك الحديث صاعقة نزلت عليه فلم يستطع أن يقوم من

فراشه .. وأدرك أن الغلاف الذي يحيط حوله مليء بالأسرار وأن

نيروز هذه المرأة الجميلة تعرف الكثير من حياة المدينة وأحوالها ..
وتذكر أنه في يوم ودّع مجموعة من الكانين كانت تعمل في الفندق
.. وهم يغادرونه حين سألهم .. متى تعودون .. أخبروه في صوت
واحد .. ذاهبون للجهاد فكيف نعود ؟ نحن ذاهبون للجهاد يا
سلامة .. وقتها لم يدرك معنى ذلك الجهاد ..

وقام وارتدى ملابسه ولم يكن يعرف ماذا في مقدوره أن
يفعل وقعد ثانية على الفراش واستند على حافة التخت وقال لها :

- أنا لا أعرف إلى أين ؟ لا أعرف .. هل البقاء في المدينة أفضل
من الخروج منها ؟ وهل لو كان في المدينة نار موقدة وأنت فيها
هل أستطيع أن أغادرها .. أن أغادرها إلى ذلك الجهاد .. والله
لو عشت بالتراب حياتي كلها لما ذهبت إلى ذلك الجهاد من أجل
ذلك المال الملوث .. وكيف أقتل أهلي .. وكيف أعود إليهم بمال
حرام ؟ وكيف يكون معنى ذلك ؟ أي جهاد وأي شعارات وأي
هدم للديار ؟ إن هؤلاء الذين يذهبون لذلك بالتأكيد من بيئات
منحدرة في الأصل .. حقيرة .. وسافلة ..

فقامت نيروز من فراشها وأخذت ترتدي ملابسه :

- هذا رأيي .. أه لو رأيت هؤلاء .. قوم عجاب وأشكال منفرّة .. لو
رأيتهم وهم يتزاحمون على توزيع الطعام والنقود في
معسكرهم ..

- وهل ذهبت معهم إلى تلك المعسكرات ...

- ذهبت مع أبي في المعسكر الذي أقاموه في المدينة .. يسمونه

معسكر الإعداد والتجميع .. ويقع بجوار حي قذر يقيم فيه جوبي
المدينة ..

- جوبي المدينة

- أنتم تسمونهم عجراً .. يعني عجر المدينة ..

- وبيوت العبيد هناك ..

- العبيد بيوتهم هي بيوتنا .. إنهم يقيمون بين ظهرانينا .. إنه حي
يسمى العربي .. وإنهم قوم من أقوام العبيد .. وإن بيوت العبيد
أنظف من بيوتهم بكثير ..

وفي فروغ صبر راح يقول :

- ألا نذهب يوماً إلى معسكر هؤلاء ..

- المعسكر تحت أمري في أي وقت من النهار أو الليل

- أريد أن ألتقي مع المجاهدين

- أخاف عليك منهم .

- لا تخافي فأنا منهم وهم مني

- إذا كنت منهم فوالله لا أقبل أن تكون حبيبي

- أقصد أنهم من قومي

- وهل أنت جوبي ..

- لا ولكن قد نجد منهم سيذاً ..

- وهل يكون السيد مرتزقاً .. إن من أهم صفات السادة النبيل

والترفع بالخلق .. واستطردت نيروز تقول .. إنهم يبحثون عن

أي جهاد يوصله إلى المال .. فالمال هو الجهاد في سبيل الله ..

وليس عمله هو الجهاد في سبيل الله .. إذا قتلت طفلاً وامرأة
ورجلاً .. وهدمت بناية ولو ثت كل عمل طيب في الحياة فكل هذا
جهاد لأنني فعلته مقابل مال ، والذين يبنون ويعمرون ويطلبون
الحياة بشرف وعرق ليسوا مجاهدين .. إعطني المال وأقتل لك
كل أطفال العالم وكل امرأة حبلى وكل أب ذاهب إلى عمله ..
وكل قطار يحمل بشراً .. وهذا قمة الجهاد .. أما الذين يعملون
بشرف ويعيشون بعرق جبينهم ولا يقتلون ولا يسفكون فهؤلاء
هم حثالة البشر ولا يعرفون أي معنى للحياة أو الجهاد .. إن
هؤلاء جميعاً لا يعرفون الله ..

وفي اليوم التالي دخل المعسكر بواسطة نيروز وأدخلهما
الحرس غرفة ليجلسا .. وبعد قليل أتاهما بعشرة من المجاهدين
ودخلوا الغرفة بهمجية .. وقالوا في صوت يكاد يكون واحداً :

- ما تخلصونا بقي ..

فقال الحرس متهمكماً :

- البية والست معاهم الفلوس وما يوجهوا كل واحد فيكم ..

وقال سلامة وهو يمسك بأحدهم :

- إسمك إيه ومنين ؟

- فرج جواني من الحواويش قبلي ..

- إيه اللي جابك هنا ؟

- خلصت الدبلوم وسافرت مصر أشتغل مالفتش شغل .. مسحت

الجزم شهرين في باب الحديد وكنت بانام تحت عربات القطر

القديمة .. وبعدين قابلت واحد من بلدي .. قاللي أنا مسافر البلد دي .. مفتوحة وزني الفل .. وجيت .. في العاصمة آلاف من البشر .. لا مطعم ولا فندق ولا حتى كوم زبالة لقيت شغل فيه .. جيت الشمال .. قالوا الشمال فاضي وفيه شغل وجيت ومالقتش شغل .. بقينا نروح الساحة أنا وجماعة نشغل باليومية .. يوم نشغل ويومين ما نشغلش .. وفي يوم جه واحد إسمه محمود وقال فيه مكان محترم تاكلوا منه عيش وراتب ومكان للنوم وأكل وثلاثمائة دينار في الشهر .. مجرد نتعلم ضرب النار وكيفية صنع المتفجرات وشوية لعب وتدريب .. محمود وغيره كانوا بيبجي الساحة كل يوم ياخذ بالعشرات الألّي موجودين واللّي بيبجوا من العاصمة والجنوب كل يوم على سمعة هذا المعسكر .. قالوا الجهاد قلنا وماله .. قالوا ضرب النار قلنا وماله .. قالوا تروحوا بلدكم تضربوا الفاسدين والمارقين و.. و.. قلنا وماله .. هو إحنا لقينا حد يدّينا فلوس ويلمّنا من الشوارع وقلنا لا في كان ولا هنا .. اللّي يلم ويدفع ياخذ .. حياة يا عم..

وقال الجميع في صوت واحد حياة يا عم .. مجاهدين .. مجاهدين .. نلبس ملابس الزاهدين القصيرة لبسنا ما إحنا لابسنها من غير حاجة .. نربّي ذقنا وماله .. أي حاجة نعملها .. وإيه يا جدع .. بس هات فلوس .. هات فلوس وعاش الجهاد .. ولا إيه يا جماعة وحدّ في زملائه فردوا عليه ثانية .. اللّي يدفع أكثر

ها نجاهد معاه أكثر .. ورد واحد منهم يدعى فرحات الذكر :

- يا عالم إحييني النهارده وموتني بكره .. دا أنا قعدت في
العاصمة شهرين أنام في الجنائن مش لاقى رغيف أكله ..
الحياة واسعة أوي وإحنا تايهين فيها .. كنا فين والبلد دي فين
بلد مفتوحة عالآخر بجلوها ومرها .. جهاد أو قتال أو غم أزلي
مش فيه فلوس نبعثها للعالم اللي في البلد ..
وبسط سلامة يده نحو السماء قائلاً وهو ينظر إليهم في
حسرة وكمد :

- إحنا طالعين من بلادنا يا ناس علشان نعيش والجهاد في نظري
بالنسبة لنا جميعاً .. إن الواحد فينا بيعت قرشين كل شهر
لأمله وينزل آخر السنة عامل حاجة ..
ورد فرج جواني وهو يسحب جماعته نحو الباب :

- مافيش أعمال عادية لقيناها .. أنت بيه ويمكن لقيت ناس بهوات
هنا عرفوك .. لكن إحنا مافيش بهوات ترضى بينا خدم عندهم
.. فماذا نفعل ؟ اللي رماك على المر .. حد عارف حاجة .. الدنيا
واسعة وسيبنا في حالنا ..

وانصرفوا يهرولون نحو سكنتاتهم ..

.. وحاولت نيروز أن تهديء من أله وشكرا مسئول الزيارة
وخرجنا من الباب الكبير حتى أقرب طريق عام .. وحاولا وهما
يسيران الابتعاد عن مساكن الفجر القذرة التي تلف المعسكر ..
وكان الأطفال والنساء يجلسن أمام البيوت وعلى نواصي الأزقة
والحارات .. ينكشون في أكوام الزبالة .. والأمهات يهرشن رؤوس

البنات الصغار بأمشاط خشبية ، وبين أكوام الزباله المنتشرة حول الحي علقت حبال طويلة ينشر عليها أهل الحي ملابسهم .. وكانت ترعى علق الزباله حمير وماعز وبعض الكلاب التي أصابها الجرب .. وكان عدد من الصبية قد تعود جمع نفايات الطعام والخبز من معسكر الإعداد وجاعوا به إلى مطعم بالحي يبيعونه .. ليقدمه المطعم بدوره خلطة مع الفاصوليا لزبائنه من أهل الحي .. وما كاد سلامة ونيروز يبلغان مكاناً نظيفاً بعيداً عن الحي ليستقلا منه عربة إلى المدينة حتى التف حولهما عدد من المتسولين ولم ينصرف أحد منهم حتى نقدتهم نيروز بعض النقود .. وأخذتهما عربة حتى بيت كارولين وكان الوقت يقترب من الغروب .. وعند الباب أمسك سلامة بيدها واعتذر عن عدم الدخول .. وطلب منها أن يذهب إلى فندق السلام لأنه لا يستطيع اليوم لقاعها .. إنه في حاجة إلي الراحة .. راحة أيام متواصلة .. إن ما رآه اليوم وشاهده كان كفيلاً بأن يقلب كل الأفكار في رأسه وعليه أن يعود .. على أن يلتقيا في وقت لاحق .. وسمحت له نيروز بذلك مقدرة أحداث أهل بلده التي لامسها اليوم .. ودخلت هي بيت كارولين وانصرف هو إلى الفندق ..

الفصل الثاني

مشى في شارع ملئ متجهاً إلى وسط المدينة ، ولم يقصد الطريق إلى الفندق ، وكانت قدماء تشق الطريق كمن يهرع من أعلا إلى أسفل ، وامتلأ رأسه بالأفكار ومرّ بمعتقل المدينة فدق قلبه هلعاً ، وشعر بأن أنظاراً تتبعه وأنه لا يستطيع تجنبها وأن شعوره بالتبعية لهذا البيت قوي وكأنه عبد من نوع جديد ، وأيقن أنه في عالم يضج بالعنف والأناية ولن يستطيع أن يحصل على شيء دون مقابل .. وشعر بأنه لن يتفوق على نفسه وأن الخزي يلاحقه مثل بقية أهل بلده .. إن نوعاً من العار يلاحق جماعة ونوعاً منه يلاحق أخرى والجميع يقع تحت دائرة مطلب المال من أرض لا نملك فيها قيراطاً ، وأنه الليلة قد دخل أكبر دائرة للظلام في تلك المدينة ، وأن والد نيروز لن يتركه .. فلماذا لا يترك هذا الدرب ، وخارت قوى في داخله فهل سيبحث عن قوة في قلب المدينة الذي يقصده .. أم إنه عاشق واهم للمدن .. فتلك البيوت قد أظلمت والحوانيت غلقت والأشجار بلا ظل في ذلك الليل البهيم ، وكان عيه أن يمشي حتى يرى كل المدينة فقد يجد شيئاً افتقده ، ولم يجد في المدينة وهو يمشي وحده أي شيء دون الظلام والصمت .. فإذا كانت الحرية عنده أن يعي المدينة جرداء عارية بلا قوم فيها هي الحرية أهلها نائمون غارقون في حياتهم .. الحي الغني مثل الفقير والشارع دنظيف كغيره القابع في قانوراته .. إن شيئاً واحداً قوياً يلف عالم المدينة .. إنه الصمت والظلام ، الفرق الوحيد الخفي بين رجل صالح ورجل طالح .. وطفل غني وطفل جائع .. يرى .. والله يرى .. إن أباطرة المدينة يأخذون الرجال الضالة من كان في ساحات المدينة والمدن المجاورة إلى الجهاد .. فهل الجهاد هو إنتهاز فرص

الجوعى والمشردين .. أو أن الجهاد يذهب إليه الناس طواعية أحراراً ؟ فهل بطش القوي على وهن الضعيف قوة ؟ وهل نتيجة هذا البطش تخرج مجاهدين أحراراً ؟ وهل هؤلاء المجاهدون اسوة حسنة .. فكيف يكون إذا جهاد السفلة والمجرمين واللصوص .. إن أباطرة المدينة تمكنوا من اصطياد الضعفاء بأنفسهم .. الفقراء إلى المال وفي داخلهم نية ح الحصول عليه بأي ثمن .. إذا هؤلاء المجاهدون حقاً لا يجدون حتى شيئاً واحداً سليماً أو طيباً في أنفسهم .. وإنهم حقاً حثالة مجتمع .. والعيب ليس عيبهم .. ولكن العيب أن تترك الأوطان حثالتها تخرج منها بلا ضوابط .. وإعتبر نفسه أحد هذه الزبالة التي تخرج من بلادها دون تنظيم أو تدقيق .. ولم يصل إلى أي توافق أو هدى مع نفسه أو المدينة ..

وضل طريقه إلى الفندق وقعد عند أحد الأسواق وانخرط تدريجياً مع نفسه الحزينة .. أين يذهب ومن يسأله عن الطريق ؟ هل يظل قاعداً حتى الصباح ليعرف طريقه إلى الفندق ، أم يقوم ويحاول الاهتداء وكأن شيء من الضياء في ذهنه قد أفاقه .. وقام وعاود المشي كرة أخرى .. وفجأة وجد باب فندق مفتوحاً فدخله ، فإذا بدنيا كاملة تضج بالحياة في داخله ، وإبتهجت نفسه وجلس في البهو على طاولة صغيرة ، وكان بجواره رجلان سمع أحدهما يقول :

- والله إن نساء المدينة قُمن بكل الأعمال ..

ورد عليه زميله : كيف ؟

- يدفعون رجالهم للحب في الليل والعمل في النهار ويلدن الأطفال ..

- كل النساء تفعل هذا ..

- غير أن النساء هنا في صبر وقوة لا حد لها .. لقد صبرن كثيراً
على الرجال والجهاد ..

- لقد كثرت كلمة الجهاد .. ومن أدرانا أنه جهاد .. عليهم جميعاً

أن ينفكوا من ذلك ويعودوا إلى بيوتهم حتى يتوقف الخراب ..

- لو عادوا إلى بيوتهم لوقف رجال السفاح عند أبواب بيوتهم ..

وفي ذلك فإن بيوتهم ستخرب أكثر .. وسيدخل هؤلاء الرجال

إلى النساء في غرف نومهم .. يا أخي خراب عن خراب يفرق

كثيراً ..

وجاءه الجرسون وانحنى قليلاً وقال :

- تحت أمرك ..

- كاني ؟

- نعم وأنت

- كاني

- من أي بلد ؟

- من بحري

- وأنا أيضاً

- ما اسمك ؟

- محسوب أبو شاطية

- أريد عشاء طيباً

- تحت أمرك .. وانصرف ..

وبعد قليل جاء بالعشاء وقال وهو يضعه على الطاولة :

- ماذا تعمل هنا ..

- علاف

- في حظيرة حيوانات ؟

- في حظيرة نساء ..

- وهل تُعَلِّف النساء ؟

- نعم ألم تر هذا أبدأ ..

- أصدق أن تكون في قصر للنساء .. لأنه يبدو أنك من عليّة القوم .. لكن كيف تُعَلِّف النساء ..

- قد أكون من عليّة الناس في بلدي حتى لو كنت فقيراً .. لكنني بقدمي إلى هنا في مجتمع الغربة المجهول أصبحت عبداً ذليلاً ..

- وكيف تُعَلِّف النساء

- في قصور المدينة .. في تلك الأحياء الغنية .. تُعَلِّف النساء من الهوى .. من هوى مثلي من الرجال .. وفي كل قصر عبد وراءه الكثير من الأسرار التي يعرفها عن قصره .. وقد يكون ذلك العبد هو أحد علافي هذا القصر ..

- ليتني كنت واحداً منهم .. سيكون المال في يدي كثيراً .. وسأنعم برفقة النساء ..

- نحن جميعاً نتمنى أن يذهب أحدنا مكان الآخر .. وفي كل مكان نجد الزلة والمهانة ، ومع ذلك نظل في أماكننا نقبع ونتحني

ونُهان من أجل مزيد من المال والندس .. ونقول في النهاية .. إن الحياة حلوة .. وما أحلى المال والنساء .. وسوف ننحني وننحني من أجل المال لتشبع بطوننا .. والنساء لتنهمر أجسادنا .. وما زال الطمع والحسد وكل منا يريد أن يكون محل الآخر .. ولما إنتهى سلامة من تناول عشائه ، حمل الخادم الصينية فوق يده وقال وهو ينصرف :

- سوف أذهب مع المجاهدين وأستريح من هذه المدينة ..
- وأين يذهب المجاهدون حتى أذهب معهم ..
- أذهب إلى أي مكان .. المجاهد يتقاضى راتباً كبيراً في الشهر حتى أعود إلى بلدي سريعاً وغانماً ..
- وإذا كانوا يعوبون إلى بلادهم ليخربوا فيها فهل تذهب معهم ثم تعود ؟

- وماذا فعلت لي بلدي حتى أعود وأبني فيها .. من يعطيني المال أفعل له ما يشاء .. المسألة أصبحت مسألة حياة أو موت ..
- وهل في الجهاد قتل للأبرياء وتفجير بنايات وتخريب ؟
- لقد خرجت لأجاهد في سبيل إطعام أولادي .. وعلمي في الفندق ليس فيه الكفاية وأحتاج إلى وقت طويل حتى أعمل شيئاً .. لكن الجهاد اختصار .. هذا الجهاد اختصار لكل حياتي .. إنهم يسمونه الجهاد وأنا سوف أدخله بناء على هذا الإسم أما المضمون فليس لي شأن به .. فلست داعية أو فيلسوفاً ..
- إن من يفعل هذا ليس عنده أي أساس في الأصل ..

- لا داعي لأن تعيب في الناس ..
وهو يقف قال سلامة :

- هذه هي الحقيقة والعيان بيان .. ونظر إليه شذراً وغادر الفندق
وهو يلعه ..

وأخذ عربة أجرة وإنصرف إلى فندق السلام .. لقد أشرف
الوقت على الثالثة قبل الصبح بقليل .. وهناك فتح له الحارس ..
ودخل سلامة إلى غرفته ونام حتى العاشرة من صباح اليوم التالي،
ولم يستطع في نهاره أثناء عمله أن يقذف بالأفعال المهينة التي
حدثت له في نهار وليلة البارحة وكان أكبر شيد يعمل في نفسه هو
الرثاء .. رثاء لكل الكائنين ولنفسه .. رثاء للمدينة كلها .. لقد ألمت
بكل البشر الوليات والمصائب ، إن الكرب نفسه ولا شيء غيره قد
أحاط بكل البشر .. فهل يستطيع أن ينفذ بعيداً عنه ، وتسأل هل
ترى نفسي النور ثانية ؟ أين الحرية الحقيقية ؟ ألا يوجد إنسان حر
في هذا العالم ؟ خرجت من عبودية الحاجة والفقر وجئت إلى هذه
المدينة لأجد عبوديات من أنواع كثيرة .. ألا توجد حياة دون عبودية
.. أين هذه الحياة الحرة .. وقرر أن يغادر الفندق ليل هذا اليوم ..
سيغادره إلى حي فقير في هذه المدينة .. قد يجد هناك أناساً
طيبون يتمتعون بنوع من الحرية .. قليل من الإيمان سيولد كثيراً
من الحرية .. وإذا لم يجد أي إيمانيات هناك فإنه لن توجد أية حرية
وعزة على وجه الأرض .. لأنه لن يستطيع أن يذهب إلى بلاد أخرى
في العالم بحثاً عن الحياة بدون عبودية .. إنه بعد ذلك سيتقوقع
على نفسه ويختار العبودية مرغماً .. أي نوع رقيق بسيط من
العبودية ، سيختاره ويعيش وتنتهي الحياة بعد ذلك ..

نام قليلاً بعد الظهر ورأى في نومه أن جبال المدينة تطوق رأسه .. وكان مندهشاً لأن المدينة التي رآها عندما دخلها جميلة فسيحة نادية ما هي إلا مظهر خادع .. وأن كل قطرة من المطر ما هي إلا قطرة من دماء .. ورأى الشوارع تزدهم ببشر من جميع أنحاء العالم يتشاجرون ويتصايحون .. وقام من نومه وهو يصيح .. لا .. لا .. لا .. وجرى إلى الحمام .. وذهب بعد ذلك إلى المطبخ وتناول غذاءه ، وكان ينظر إلى لوحات قديمة باهتة معلقة على الحائط وشعر بأنه ساكن صامت مثل صمت هذه اللوحات ، وفجأة وكأنه وجد فكرة في رأسه طرأت عليه في اللحظة ونادى بصوت عال لأحد الخدم :

- تعال يا مصيلحي ..

فجاء يهرول ..

وسأله قائلاً :

- هل تعرف أحداً في فندق صلاح الدين ؟

- أعرفهم جميعاً

- جميعاً .. تعرف محسوب زلابية .. أو شاطية ..

- محسوب ورزونة والدويك وشنيك وعبد الغني ومنوفي عريبي و ..

- كفاية .. وهل هذه أسماء حقيقية ..

- هذه أسماءهم أو أسماء عائلاتهم .. ذاهبون جميعاً إلى الجهاد

من أول الشهر القادم ..

وكانه لا يعرف شيئاً قال :

- أي جهاد ..

- كل ما أعرفه أنهم سيسافرون عن طريق تركيا ومنها إلى بلاد أخرى ، وسيحصل كل منهم على راتب كبير ..
- راتب كبير بأي مقابل ؟
- مقابل الجهاد .. الجهاد
- الجهاد من أجل من ؟
- سيحاربون مع الأفغان وبعد أن تنتهي حربهم .. سيعودون يحاربون في بلادنا ..
- يحاربون في بلادنا .. ؟
- بالله لا أعرف أكثر من ذلك ..
- ولماذا لا تذهب معهم ..
- في حقيقة الأمر أنا أتقاضى أجراً جيداً وبقشيشاً والطعام متوفر .. فلماذا أذهب إلى هذا الجهاد ؟
- أريد أن أذهب يا مصيلحي
- لا .. لا أصدق .. لا أرضي لك هذا يا أستاذ سلامة ..
- ولم لا ؟
- لو ذهبت إلى هذا المعسكر لوجدت العجب .. أوباش كان والهاربين من الأحكام ولصوص الباصات .. كل الضائعين .. لا يوجد واحد من أسرة طيبة أو بيئة نظيفة .. لا أرضي لك هذا يا أستاذ .. أنت تمزح ..
- وسكت سلامة لكنه انبهر لحديث مصيلحي وتركه مصيلحي وهو يضحك .. وبعد لحظات عاد يقول له :

- لقد بدأ هؤلاء الخدم الكانين يطلقون لحاهم من اليوم إستعداداً
للانضمام إلى معسكر المجاهدين

- كل الأسماء التي ذكرتها

- وغيرها ..

وقام سلامة إلى عمله في غرفة الحسابات ، ومضى قليل من
الوقت واتصل هاتفياً بفندق صلاح الدين ، وطلب الجرسون
محسوب أبو شاطية ورد عليه بعد لحظات :

- يا محسوب أنا الكاني الذي حدثك أمس عن الجهاد ..

- أهلاً .. أهلاً يا باشا ..

- لا باشا ولا بيه .. قل لي يا مجاهد ..

- هه .. هه .. هل أنت منهم ؟ أعجبك الجهاد .. تعال اليوم بعد

العاشرة مساءً .. المسئول سيجتمع بنا هذا اليوم في هذا الموعد
إذا كنت جاداً فتعال ..

- جاد جاد وجاد .. مثل مجاهد كفر مجاهد مجاهد ..

- يا عم جاد .. أو يا عم مجاهد إنك كده جدع .. خلص أمورك

زيننا .. هوحد ها ينفعنا .. عايزين نروح ومعانا فلوس .. في

إنتظارك يا عم جاد ..

- أنا من النهاردة إسمي حفيضة بتاو الخايب ..

- والله من بعد الجهاد مش ها ناكل بتاوا محقق إسم النبي

حارسك يا بن الخايبة

- إبن الخايب .. لا بعد النهاردة ها ناكل بسكويت ..

إن تحت كل جماعة من الناس جماعة أخرى ، وتحت كل نفس بشرية أشخاص آخرون يعملون معها وضدها .. ولسوف تظل دائماً نفوس شريرة تبني الكهوف والبيوت المتهرثة خلف النفوس الصدئة والجماعات الهدامة مادامت الحياة قائمة .. وسوف يظل الجهل مادام الجاهلون يعيشون شرائذم حقيرة فوق الأرض ..

ولما وصل سلامة إلى فندق صلاح الدين استقبله محسوب وأخذه إلى غرفة كبيرة تحت درج الفندق تعج بإثنى عشرة من الجماعة .. إنهم جميعاً عمال الفندق الكانين الذين يعملون في الصباح وتنقضي فترة عملهم في الخامسة مساء كل يوم .. حيث افترشت الأرض بموكيت قديم وفوقه مراتب أسفنجية صغيرة وأغطية ملأت الغرفة عن آخرها ، ولما قرأ عليهم السلام وجلس في وسطهم انهالت عليه الأسئلة من كل جانب حتى عرفوه جميعاً ، وقدموا له أكواباً من الشاي ، وجاء دوره ليعرفهم .. وعمل كأنه واحد منهم ساذج وأهبل يريد أن ينهي حياته في مدينة يطول فيها الصبر ليجمع حفنة من المال ، وأنه يجب ذلك الجهاد الذي يخلص البشر جميعاً حيث يعودون إلى بلادهم ومعهم كثير من المال ، وأن هناك مهمة جليلة تنتظرهم .. وقال لهم وكأنه يخطب فيهم :

- لقد تركت زوجتي تعمل في الحقل مع أبي وإخوتي ، وجئت من أجل المال .. أين هذا المال من العمل في فندق أو مطعم ؟ أريد أن أعود سريعاً ومعني المال لأقيم في العاصمة ، كل ما أطمح فيه هو شقة صغيرة حتى ولو كانت في شبرا الخيمة ..
ورد عبد المنعم رزونة :

- أنت أحسن مني شوية .. أنا مراتي عند أبوها في عزبة بلال

وأبوها مش لاقى ياكل ، وفي أسبوع أرسلت رسالة تقول فيها
أن أبوها يعرض عليها أن تعمل خادمة في مصر الجديدة ..
وأرسلت إليها أن تعود إلى البلدة .. حيث أمي وأختي تمرهان
تاكل بتاؤ هناك أحسن من الخدمة .. وعلشان كده عايز أخلص
من مشكلتي وأرجع بلدنا بسرعة .. نفسي أشتري نص فدان في
البلد وجاموسة وأبني حتى ولو عشة .. أهو الواحد يبقى له كيان
شوية ..

- براقو عليك يا رزمة ..

- رزونة .. رزونة ..

ومسح رزونة أنفه في الفطاء الذي يجلس فوقه ثم بصق ..
وقال الدويك عبد العال :

- أنا ساكن في بولاق الكروير في أودة مع واحد من الجماعات
ومراته وكان زوجها لا يصلي كل الأوقات برغم أنه ملتحي ،
وكانت زوجته تشكو لي بقولها المالكوف .. آل شيخ آل .. لم يرب
نفسه قبل أن يربي ذقنه ، مافيش إيمان من الأصل .. ولا أقول
لها .. إتجوزتية إزاي يا سعدية .. تقول الجماعة جوزوني ليه ..
جماعة مين يا سعدية .. تقول كنت باروح أصلي في المسجد
وواحدة زميلتي في الصلاة قالت واد غلبان ومش لاقى ياكل
وعاوز عروسة ، واتجوزته قلت يمكن ياكلني أحسن من العيشة
مع أبويا ومرات أبويا .. وفي يوم جابت لي واحدة زميلتها لابسة
نقاب وكان من حقي أن أراها بدون نقاب ، وإشترطت هذه المرأة

أن أراها دون التمعن في جسدها ، وخلعت الفتاة النقاب فإذا بها ترتدي قميصاً عارياً ، واندعشت كيف تطلع أمام رجل وهي منقبة ، وكنت أتمنى أن أرى وجهها فقط ، لكنني رأيت كل شيء .. وانتابتني قشعريرة وجنون .. بقيت زي الحيوان وتزوجتها في اليوم التالي في نفس السكن ، وتركتها مع زميلتها زوجة هذا الملتحي .. ومن أسبوع واحد جت لي رسالة من زوجة الملتحي تقول ، أن زوجتك تزوجت من رجل ثاني عشان إنت سببتها منذ ستة شهور وأنت تعيش في بلد فيه تفتح الخمارات علناً ، فكفرتك الجماعة وزوجوها من رجل آخر .. مش هاطول عليكم إذاً هذا الجهاد هو الخلاص .. سأعود بسرعة لتربية هذه الزوجة ، وأتزوج من فتاة عادية من المجتمع مش خارجة عن المجتمع .. لقد تزوجت زواج العيال أقصد زواج الحيوانات .. تزوجت من حيوانة وزوجتني منها حيوانة .. وزوجها الحيوانات أكيد زوجوها من حيوان زيهم ..

- هل أنت متعلم ؟

- ثانوية عامة ..

- لماذا لم تكمل ؟

- أبويا مات وهو إلهي كان بيعولني من أجره كعامل زراعي يعمل بالفأس .. بعد كده ما لقتش لي حد ، سافرت مصر وانخرطت في جماعة في نفس الحي بولاق الدكرور .. وكانت الحكاية اللي

حكيتها ..

وقال عواد شنيك

- أبويا بيشتغل جزمجي في عين شمس الغربية ، جوزني واحدة هو
أصلاً بيحبها وأمي ست كبيرة غلبانة ، وعشت في نفس البيت
الحقير الذي يعيش فيه أبي ، وهو بيت بجانب سكة حديد المرج
.. أودة من الجريد وأودة من الطين والمطبخ والحمام مع بعض
معمولين من الصفيح ، وفي ليلة راجع البيت لقيت أبويا مع
مراتي .. فاهمين يا جماعة مع مراتي ..

- وأمك فين ؟

- أُمي راحت عند أختها ولما كانت بتروح ما بتجيش إلا ثاني يوم ..
وماذا فعلت ..

- رحت لواحد من الجماعات بيسكن جنب السكة الحديد برده ..
وحكيت له الحكاية ونصحتني بالعيش معه ، وزوجني أخته وبعد
أيام قليلة ترك البيت ، ولم يعد في البيت غيري وزوجتي ،
وخرجت لأبحث عن شغل بعد ما خلصت فلوسي .. فلم أجد
وعرضت علي أن تعمل هي فوافقت تحت وطأة الحاجة ، وشككت
في أمرها بعد شهر وتابعتها وهي ذاهبة لعملها فوجدتها تدخل
أحد بيوت الطلبة الذين يسكنون في دير الملاك وشوية شوية
عرفت أنها تطبخ لهم وتغسل وتعمل معهم اللي عايزينه ..
وجهزت جواز السفر إلى هذه البلد المفتوحة وفي ليلة سفري
قتلتها وتركت البيت في الصباح قاصداً الميناء ، وأقلعت الباخرة

في ظهر هذا اليوم .. وأنا هنا منذ عام لا أعرف شيئاً .. فلن
أعود إلا مجاهداً .. وأنا مقتول مقتول .. يعني حياتي لازم تبقى
قتل في قتل .. فهذا الجهاد يناسبني ، وعندما أعود لن تكون لي
معالم حياتي الأولى في بلدي .. هيه وعلينا أن نستمر .. أنا
عارف الواحد رايح فين ؟

وبدا منوفي عريبي يحي قصته قائلاً :

- كان أبويا مرابي ومن الريا إشتري خمس فدادين ، وكان راجل
بيحب الستات ، وأمي ست غلبانة مالهاش في الرجالة لدرجة إنه
لما كان يقرب منها تقول له روح جتك شقع وتروح تشتكي لخالها
الحاج حجاج ، وكان خالها يحاول ينصحها بأن تطيع زوجها ..
ولكنها منعت نفسها عنه بحجة إن العيال كبرت وطالما جت
العيال يبقى الكلام ده كلام فارغ ، غير أنني كنت أرى أبي في
صباح كل يوم بيعاشر مرات النفر اللي بيشتغل عندنا ، كان
بيعاشرها في ركن بزرية البهايم ، ولما النفر مشي هو ومراته ،
لجأ أبي إلى معاشرة الحيوانات ، معلش أنا ساعات باتكلم
باللغة العربية وساعات بالفلاحي أصلي سبت المدرسة في
الثانوي ، وجن جنوني لما لقيت أبويا بيعاشر الحيوانات ،
وحاولت أن أرجع أُمي عن تفكيرها علشان أصلح من أبويا ،
كانت تقول لي عيب يا بني مالكش دعوة بالكلام ده ، بعد كده
سافرت مصر قعدت عند واحد قريبي اسمه ثروت أبو مخطمة
وفي يوم قال لي إنت مش لاقى شغل في مصر روح البلد دي

مفتوحة وزى الفل وربنا ها يكرمك هناك ، وفعلأ لما جيت ربنا
كرمني بأفطر وبأفغدى كباب وبطني شبع ، ومعاينا فلوس
وباحمد الله ، وبعدين الواحد عايز يعمل حاجة في حياته
والفلوس لما تكثر على الأقل الواحد لما يروح يبني بيت في البلد
ويبعد بعيد عن وش أبوه وأمه ، هي كل جهاد إحنا بنجرب خس
علينا حاجة ؟

ووصل مرابي الجماعات وأفسحوا له وجلس واقترب منه عبد
المنعم رزونة وصافحة وقبل يده ، وهو رجل في الخمسين من العمر
ويرتدي جلباباً نظيفاً ويلف عصابة فوق رأسه وهو باكستاني
الأصل وبدأ حديثه قائلاً :

- بكره زي دلوقتي تكونوا جاهزين هاجيب عربية وأجي أمام
الفندق في الحادية عشرة مساءً .. زي الوقت .. ولما اسلمكم
المعسكر كل واحد يدفع لي عشرة درهم .. موافقين ..

ورد الجميع في صوت واحد ..

- يا جدع ولا يهكم ..

غير أن سلامة قال له :

- وبعد المعسكر أين سنذهب

- إلى تركيا

- وبعد تركيا ؟

- هناك يتم التوزيع .

- على كم بلد ؟

- باكستان للتدريب .
- وبعدين ؟
- سمعت أن إيران هتعمل جيش منكم ..
- بعد باكستان هاتروح إيران ؟
- أفغانستان الأول
- ثم إيران .. أو السودان ؟
- هي تقريباً العملية كلها شغل أي بلد ..
- ماغيش بلاد تانية ؟
- أكيد فيه بس ده اللي باعرفه ..
- ها نقعد كتير في معسكر المدينة ؟
- فترة تدريب ومحاضرات نظرية في الجهاد لا تزيد عن شهر ،
- أكلين شاربين في المعسكر ومرتب من ثمانية إلى أربعمئة دولار
- في الشهر .. ولما تنتهي فترة التدريب في البلد اللي هاتروحوها
- الواحد بياخد راتب لا يقل عن خمسمئة دولار ..
- تمام وإحنا عابزين إيه تاني ؟
- غير أن الرجل كان ينظر إلى سلامة غير مصدق أن تكون
- هذه العينة ستتدخل هذا المعسكر ، وسكت الرجل قليلاً عن الكلام
- مع المجاهدين وقال لسلامة :
- إنت جديد .. هاتروح مع الناس دي ؟
- هز سلامة رأسه وقال :
- طبعاً طبعاً .. ولماذا لا أذهب ؟

الرجل - قد أرى فيك اختلافاً عنهم ..
وقال شينك مازحاً :

- علشان شكك نظيف وبابن عليك ابن ناس
وقال منوفي عريبي :

- يعني إحنا ولاد بهاييم ؟

محسوب - أيوه سلامة .. الأستاذ سلامة مش زيننا ، إحنا ولدانا
جاموسة ، وهو من أم وأب تاني خالص .. زي ما يكون ولداه
بقرة ..

ورد عبد الغني متحاملاً وكأنه يلعن نفسه :

- يا عم إحنا ضايعين ولاد كلب .. إللي رماك عا المر ..
وهز الرجل رأسه ملاطفاً الجماعة قائلًا :

- هلا بيبكم جميعاً يا بختكم .. حد يطول الجهاد ..
وبصق الدويك في يديه وفركها .. قال :

- عاش الجهاد يا .. عاشت الدولارات يا .. يا بن الكلب إنت وهو ..
ماكنتوش لاقين البتاو ..

وقام الرجل لينصرف ، وأمسك بيد سلامة وقال له :

- لا أصدق أن تكون من الجماعة

- وهل الجماعة شر لي ؟

- لو كانت شراً لأحد ما عملت وسيطاً لها .. خمسمائة دولار في
الشهر ليست قليلاً ..

- وإذا دخلتها غير مقتنع فهل هذا ينفع الجماعة ؟

- أين تعمل وسأتي إليك حتى تقتنع .

- في فندق السلام

- إذا لم تأت غداً ، فسوف أزورك في خلال أسبوع

وشد على يده وانصرف ..

وهؤلاء الرجال الهلافت المرضى لم يكونوا عشرة أو خمسة عشرة .. بل كانوا مئات هم وزملائهم الذين دخلوا المعسكر والذين في طريقهم إليه ، مخلوقات فاجعة قتلة وشواذ أو من بيئات منحطة .. خرجت من كان دون تنظيم ودخلت في المحرقة .. دائرة واسعة من الحياة ويقدر ما فيها من منافذ جديدة للناس ، يوجد أكثر منها مهالك ومخاطر .. فهم جميعاً رجال أو عيال أصحاب فكر ظلامي ، يفتنون إلى هذه البلد .. وهم مستعدون لعمل أي شيء مقابل المادة ، لكن لا يعرفون أنهم يعملون في ظل تصميم موضوع ، ولو عرفوا فإنهم لا يفهمون غير تفسير واحد .. المادة بأي شكل ، مادامت تلك الأعمال تنطوي على كسب في البداية والنهاية ..

في ليل حالك الظلام ، مشى سلامة متهاكاً حتى فندق السلام ، وفي فراشه قرر مغادرة الفندق في مساء الغد .. إنه يريد مكاناً بعيداً عن الفنادق والمطاعم .. أن يهرب من الوسيط ومن كل العاملين في أي فندق لأن مصيرهم جميعاً هذه الجماعات ، وما ذنبه أن يعيش أو يجاور جماعات من الأوباش تعمل في هذه الأماكن هذه حياتها وبيئاتها ، وعليه أن يبحث عن مجتمع نبيل بسيط له قيم ، ولم يعد سلامة الحالم الرومانسي الجاد الحازم ، ولم يعد قادراً على التفكير في أدنى مستقبل ، وبدأ يشعر بأنه كلب ضائع ضال .. وأن كل هؤلاء الناس كلاب مسعورة ، لقد سقطوا

جميعاً ، وهو في طريقه إلى الهاوية .. وإنه قد سقط بالفعل مع
 نيروز ، وأن سقوطه معها يلاحقه ولن يتركه ، وبيع نفسه كثيراً ،
 وقام في الصباح ليخبر صاحب الفندق أنه مغادره إلى مدينة أخرى
 وسلم أوراق عهده ، وبعد المغرب بقليل حمل حقيبتيه وخرج من
 الأوتيل وهو لا يعرف إلى أين يتجه .. واستشعر أن الأرض تخور
 من تحته ، لقد كان يرى في ناظره مدينة فخمة ، لكنه الآن لا يراها
 كذلك ، لأن ساكني قصر نيروز ليسوا سادة وهو أبهى قصور
 المدينة ، إن الناس في حقيقتهم ليسوا سادة ، لقد كان الواحد منهم
 عبداً للمال فشيئاً قصراً من الحجر ، وقوتهم جميعاً تكمن في المال
 والنفوذ ، وإن قوة الإيمان والحب والصلاح غير موجودة عند هؤلاء
 الناس ولا تعرفها بيوتهم . أين يوجب الحب والخير والصلاح
 الحقيقي ؟ هل يوجد بين جنابات الفقر والعوز والحرمان والضعف ؟
 أو أن الناس الذين يعيشون في دائرة الفقر والضعف لا يخرج منهم
 إلا الحقد .. الفقير يحقد على الغني ويكرهه والغني يبطش بالفقير
 وبالناس جميعاً من أجل مزيد من الجشع والطموح .. فكيف يولد
 الحب في دائرة كل منهم أو بين الدائرتين ، هل رجال الحب
 والإيمان والصلاح يخرجون من دائرة الفقر والضعف وهم قلة من
 الناس .. قلة واستثناء من دائرة الفقر تخرج لتدعو الناس إلى
 الخير والإيمان ، أما رجال الحب والصلاح الذين يخرجون من
 دائرة الأغنياء فهم كلهم المتمردون على تلك الحياة .. فيتركون
 دائرتهم ليتقابلوا مع هؤلاء الناس الصالحين من الفقراء .. ومن هنا
 تتكون دائرة أخرى صالحة تحكم وتصلح وترشد بين الدائرتين ..
 إن الله لا يرضى عن الذين يخلطون الحب بقوة أخرى مثل النفوذ ،
 ولا يرضى بمن يهوى بالحب إلى الضعف والمهانة ، فالحب والخير

والعدل قوة مستقلة لا يستطيع أن يحملها إلا من كان نبيلاً ، ألم يعد هناك رجل نبيل ؟ ألا توجد امرأة نبيلة .. ومضى في الطريق بغير هدى يحدث نفسه بصوت مسموع .. وكأن شيئاً من الخبل قد أصابه .. ودخل الحي الفقير ..

وبدأ يتوغل في أزقة ضيقة ، وكان أصحاب البيوت قد تعودوا غلق أبوابهم من الداخل ، ويقومون بإحكامه بعد المغرب حين يقبل الليل ، هي عادات قديمة وبيوت قديمة متهاكة وأهلها فقراء يعمل معظمهم عند السادة في المزارع والمكاتب والمعامل ، وكانت السماء تبرق بقليل من الرعد وحاول أن يسرع الخطى ليصل إلى الشوارع الواسعة ، وعند زاوية من الحي تفصل بين زقاق وآخر .. كانت هناك سيدة تقف خلف بابها محاولة غلقه ، ولما رآته إندهشت ووجلت بناظرها إليه كمن تدعوه لمساعدتها .. وتوقف عندها قائلاً :

- هل أساعدك ؟

- لو كان ممكناً ..

ودخل دارها خلف الباب ودفعه بقوة وناولته المزلاج الحديد وثبته في فتحة حديدية ..

وصاحت المرأة :

- يحميك الله .. يحميك

وقفله وفتحه مرتين وهو يقول :

- تمام .. مضبوط ..

ونظرت إليه المرأة في امتنان ولطف وقالت :

- أطمع أن تبقى معنا في الدار قليلاً ..

- لماذا يا سيدتي ؟

- حتى نستطيع أن نعرف مثلك من الرجال ..

- لم أفعل شيئاً كبيراً حتى أشكر عليه ..

واقتربت منه فتاة تحمل شمعة كبيرة وتشير بيدها نحو باب

غرفة :

- تفضل هنا .. تفضل .. جئت في وقتك وساعدتنا ..

واندهش سلامة لقلو أهل البيت في عمله ودخل غرفة صغيرة

بها سرير وثلاثة مقاعد خشبية ، وقعدت السيدة قبالة لحظات

مرحبة ، ودخلت الفتاة هنيئة وضعت الشمعة على منضدة خشبية

صغيرة ، وانصرفت إلى داخل البيت ، وتهامست مع أمها قليلاً

وسط الدار ، ودخلت أمها غرفة الملابس لترتدي ملابس أخرى أكثر

حشمة ، ونادت على إبنتها وأمرتها بأن تفعل مثلها ، ودخلت السيدة

على سلامة قائلة :

- هل نأتي لك بملابس ترتديها ..

واندهش سلامة وقال :

- أنا على ما يرام بهذه الملابس

- لماذا لا تكون ضيفنا الليلة ؟

- أنت لا تعرفوني يا سيدتي حتى أنال هذا الشرف ..

- طيبة وجهك كفيلاً بأن نستضيفك ..

- أنتم لا تعرفون عني شيئاً

- سنعرف

وكانت الفتاة تقف قبالة الباب وتسمع حديث أمها مع الضيف

.. ودخلت إليهما قائلة وهي تنظر إليه في لطف :

- هل آتي لك بجلباب

وأشار سلامة إلى الحقيبة .. عندي .. عندي جلباب ..

وأشارت الفتاة بيدها نحو الباب قائلة :

- تفضل .. الحمام جاهز ..

ودخلت الفتاة إلى غرفة الزوادة وهي تجري وهرولت إليها أمها وتعانقتا .. وأخذت المرأتان تعدان طعاماً شهياً لهما وللضيف ، وبعد قليل دخلت الفتاة تحمل صينية كبيرة بها خبز وبيض مقلي ودجاجة وطبقان من الأرز ، وجبن وسلطة .. وبعدها قدم سلامة وهو يحاول مداراة إندهاشه لما يحدث ، وقال لها وهو يمسح وجهه ورأسه بالمنشفة :

- يبدو أنكم قوم طيبون ..

- تعالى إتفضل

سلامة - أين أمك ..

الفتاة - تعد الحلوى ..

ونزل سلامة إلى المائدة وأخذت الفتاة تقطع الدجاجة وتضعها أمامه ..

ونادت أمها .. وردت عليها الأم بمشاركته الطعام .. وأنها سوف تأكل فيما بعد ..

كانت الفتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها العشرين عاماً .. قصيرة بدينة .. تحمل وجهاً جميلاً ناصع البياض ، ويبدو من ملامحها وحديثها بأنها لم تنل أي قسط من التعليم ، وانتهيا من الطعام ، ودخلت الأم تحمل الفاكهة والحلوى ، وعملت الفتاة الشاي ووضعت على المنضدة وجلست الأم بجوار سلامة بالمقعد وطلعت

الفتاة إلى السرير وهي تشد غطاءه إلى كتفها .. وجلست مضطجعة ممددة الساقين ، وكانت تنظر إليه في دعة ورقة ولما كان يوغل بعينه نحوها كانت تثبت عينيها في عينيه وتبتسم ..
وقالت له السيدة وهي تقدم له كوب الشاي :

- من كان ؟

- نعم

- تختلف عنهم

- كل الناس تقول هذا ..

- منذ متى وأنت هنا ؟

- مضى علي أكثر من عام

- وما رأيك في المدينة

- غريبة ..

- وماذا تعمل ؟

- كنت أعمل في فندق السلام .. محاسباً ..

- وأين كنت ذاهب ؟

- إلى أرض الله الواسعة

- هذا جميل .. أين كنت تذهب بعد أرض الله ..

- ذهبت إلى دارك يا سيدتي

- أهلاً بك .. أمتزوج

- لا

- ألا تريد أن تتزوج ..

- أريد .. لكن كيف ؟ الغريب صعب عليه أن يتزوج

- عندي لك زوجة ..

- هكذا .. ومرة واحدة ..

- موافق .. أين هي ؟

هل تنفع هذه .. وأشارت إلى الفراش

وهو أكثر جرأة منها قال :

- موافق .. متى أتزوجها ؟

- من الآن ..

- الليلة ؟

- الليلة ولا يهملك ..

- على فكره .. رباب امرأة وليست فتاة ..

- إذن هي متزوجة ؟

- مطلقة .. وطليقها رجل غني طلقها مرتين وهذه الثالثة ، وهي تريد

أن تعود إليه لتأتي بطفل وتأخذ نصيباً من ثروته ، وهو يريد

لأنها أصغر نسائه وتحلوه ..

- هذه مشكلة أتزوج من امرأة .. زوجها رجل غني .. لو علم

سيقتلني .. إن الأغنياء في هذه المدينة أقوياء ولهم بطش شديد

.. لا أستطيع يا سيدتي ..

- لقد أوصانا بتزويجها ثم تطليقها لكي يردّها إليه ..

- لكن من أهل المدينة رجال كثيرون غيري ..

قالت رباب وهي تقهقه بصوت عال :

- لا يوجد .. جميعهم في الجبل ..
- ونحن لا نقدر على أي رجل من المدينة .. قد يتزوجها ثم لا يطلقها ..
- لقد أوصاني في مرة زارنا فيها منذ شهر بأن أتزوج غريباً لأن القريب يخاف .. ونحن نقول لك شرطنا حتى تكون على نور من أمرنا ..
- نحن فقراء ضعفاء .. ليس لنا رجل أو ولد ..
- أليس في المدينة عبد يتزوج من رباب قبل أن تروني يا سيدتي ..
- العبد مثل سيده قوي .. نحن طبقة أقل من العبيد بكثير .. لقد كان زوجي عبداً .. ولما مات .. ماتت العبودية ، والحقيقة بعد ذلك .. أن هذا السيد الذي كان له زوجي عبداً قد مات ، واستخدم أولاده عبداً آخر ..
- إذا أنا أقل من العبد قوة ..
- مهما كنت قوياً فانت في حكم المدينة أقل الناس قوة .. وأنا أذهب إليك لأحل مشكلتي ، وموضوع إبنتي زواج ثم طلاق لا بد أن يتم من غريب ضعيف .. حتى يتم الطلاق في هدوء ..
- ولكنني قوي في بلدي
- أنا لا أرى أي قوة لك ، ولو كنت قوياً في بلدك لما جئت هنا لتأكل ، المهم أنت غريب إذا تزوجت فهذه مصلحة لك وإذا طلقت أيضاً .. ومقابل هذه المأمورية .. إقامة شهور .. طعام .. هناء ..

زوجة .. مكافأة من زوجها بعد الطلاق .. ماذا تريد بعد ..

- ولماذا لا أفعل ذلك من أجل مصلحة الناس ؟

- مصلحتي أو مصلحتك .. هكذا كانت دائماً علاقة السادة بنا ..

والجميع يعيشون ويهنئون وهذه طبيعة الحياة .. ولماذا لا تعتبر

نفسك واحداً منا .. واترك قضية السادة والعبيد والضعف

والقوة .. فهذه أمور ليس لنا بها شأن ..

- لقد نسيت أنني جئت هنا من أجل المال .. وماذا يكون عملي أثناء

زواجي منها ..

- أن تكون زوجاً .. رجلاً إبني .. إن إبنتي لم تتزوج الرجال قبلك

.. إن الرجل الذي تزوجته يقع عندما يقترب منها .. عليك أن

تكون رجلاً لإبنتي تمتعها وتنهئها ..

- وعندما ترفض الذهاب إلى زوجها وتحبني يا سيدتي ..

- إذا كانت تحبك فعلاً فلن تفعل لأنهم في هذه الحالة سيقتلونك ..

وإذا أحببتك فإننتظر قليلاً في بيتنا فقد تعود إليك ..

وأمسكت المرأة بذراعه وقالت وهي تلاطفه :

- أحل لك زوجة بعد ابنتي ..

- لا .. لا تحلي .. أنت قريبة لي مثل أمي وخاصة بعد زواجي من

إبنتك ..

- لا أنا لست مثل أمك .. مازلت صغيرة لا أتعدى الخمسين ..

- أنت في الدين مثل أمي .. أما جمالك وعمرك الصغير فهذا شيء

آخر ..

وكانت المرأة قصيرة بدينة ذات أنف أفطس وأذن ملتوية مثل
أذن الخادومات ، وليس بعيداً عنها عمل الخادومات والساقيات
والسائلات في الشوارع .. لكن سلامة قال وهو يقوم من المقعد :

- طالما أصبحت واحداً من البيت .. أريد أن أنام ..

فضحكت المرأة بخلاعة وقالت :

- تعال لتنام معي في غرفتي ولنترك رباب ..

لكن الفتاة قامت هلعة من فراشها وقالت :

- أمي تهزرك معك .. ستنام هنا حتى الصباح .. في هذه الغرفة ..

وستظل هذه غرفتك ..

وهزأت رأسها ... وكررت وهي تخرج وأمامها أمها .. لما

نتزوج .. لما نتزوج ..

وأوجعت سلامة كلمات أهل البيت الخليعة .. ولم يكن ذلك

غريباً على أي بيت في هذا الحي .. فهم قوم أقل من العبيد ..

وما زالت كل نساء الحي يخدمن في بيوت السادة ، وشرف كبير أن

تتال فتاة من هذه البيوت الزواج من رجل سيد حتى ولو كان شيخاً

في الثمانين ..

وماذا كان في ميسوره أن يفعل وهو يهرب من قصر إلى

فندق ومن فندق إلى بيت للفقراء .. هو في كل مكان يوفق أموره مع

الواقع ، وإن من واجبه ألا يقول شيئاً وعليه أن يفعل .. يتزوج ..

ويأكل ويشرب ويتمتع مع سلبية الخدم وفي النهاية سيقبض من

الرجل الغني مقابل صنيعه .. وكان بعض من الندم يعذبه لكنه

سرعان ما يتغلب عليه .. لأنه ليس في هذه المدينة مكانة لإحساس

أو مشاعر .. فالندم والضمير وما يجب أن يكون هذه كلها مثاليات

لا فائدة منها .. لكنه لم يكن يستطيع أن يقاوم الرغبة في الاتصال بنيروز .. غير أن حاجته لأن يبعد عن واقع قد يوقعه في شر أعماله كانت أشد وأقوى .. وإنصاع لأحداث كل يوم دون أن يربطها بأحداث يوم آخر .. ومُرَّت ثلاثة أيام فيها أبلغت السيدة أم الخير صاحبة البيت جاراتها من النساء بأنّها وجدت زوجاً لرباب حتى تحلّ لزوجها القديم .. فجاءت واحدة بعد الأخرى لترى هذا الرجل .. وكنّ يتصورن أن يجدن رجلاً هلفوتاً جلبوه من الشارع وكان حديث الحي هذا الذي رآته النساء في بيت الخادمة أم الخير وإبنتها رباب .. أم الخير ينزل عليها رجل بهذا الجمال والشباب .. أين كان هذا ؟ لماذا وافق على هذا الزواج ؟ ألا يعرف قيمته ؟ إنه سيّد من الوجهاء لكن ليس مثل سادة المدينة .. إن سيادته في جماله وشبابه وقوته .. إنه كاني لا يجد عملاً .. يريد مالاً من زوجها القديم .. رباب إبنة أم الخير ستتزوج حقاً .. إنه يستطيع أن يتزوج من بنات الحي جميعاً في ليلة واحدة .. وحسدت النسوة واحدة بعد الأخرى .. فتاة بعدها فتاة من الحي الفقير .. حسدن جميعاً رباب على زوجها وحقدن على أمها شطارتها وذكاؤها .. وكان البيت حتى تم الزواج خلية نحل .. جماعة بعد جماعة من النساء يتفرجن على سلامة في بيت أم الخير .. وكانت هي وإبنتها أسعد نساء الحي حيث شعرتا بأن بيتهما أصبح بيتاً للسادة وأن الجميع يؤمّه مباركاً ومهلاً ..

وفي مساء أحد الأيام جاءه حلاق الحي وحلق شعره وأزال شعيرات زائدة بالأذن والأنف والحاجبين ، ونقده السيدة خمسة دراهم ، وجاءت رباب امرأة من الحي تدعى أم هان تذهب إلى كل عروس تزنيها وتنظفها وتهينها للزواج .. وفي صباح اليوم التالي

جاء شيخ في الستين من عمره ومع قسيس الكنيسة القديمة التي تقع في الحي .. جاءا وقابلتهما أم رباب بترحاب وقدمت لهما الفطور وعملت الشاي ، وأقبلت عليهما رهاب ليباركها لها زواجها ولما أقبل العريس عليهما قام كل منهما ووقفاً يشد كل منهما على يده وقبله القسيس قبلة رقيقة ولما جلس بجوارهما قالوا في صوت واحد :

- مبروك .. ألف مبروك ..

وفاجأهما سلامة قائلاً :

- أنا مسلم ولست مسيحياً حتى .. وأشار إلى القسيس بيده .. ورد الشيخ :

- في هذا الحي تقاليد عميقة .. قديمة وأصيلة .. ففي كل زواج مسيحي أو مسلم نذهب نحن الإثنين لنبارك ويحضر كلانا عقد القران .. نحن أمة واحدة .. نحن جميعاً فقراء في هذا الحي ونشعر بالغنى بهذا التآلف .. فالقسيس أخ وحبیب .. ولا أستطيع أن أعقد قران أحد بدونك .. إنه إصرار الحب والمودة التي تشعلنا هي التاج الوحيد الذي يحمله كل واحد في هذا الحي .. إن هذا الحب الخالص بيني وبين راعي هذه الكنيسة هو القوة الوحيدة التي تجعل أهل هذا الحي جميعاً يرتفعون فوق حد عبوديتهم وفقدهم .. إنه يا بني طريق الحرية الوحيد الذي لا يكلفنا شيئاً .. لأنه طريق إلى القلب سبيله الخير والمحبة .. وكما ترى .. وإنصرف الرجلان بعد كلام الشيخ وشد القسيس على يد سلامة وقال :

- أليس في الألفة كما ترى قوة ومحبة ..

وهز سلامة يده وقال :

- والله أكثر من ذلك .. إنها الشيء الوحيد الجميل الذي رأيته في المدينة ..

وقال الشيخ وهو ينصرف أخذاً بذراع أخاه القسيس :

- سوف ترى كثيراً في هذا الحي ..

وفي صباح اليوم التالي والناس نيام .. دق طبل الجنازة في الزقاق الذي يقع خلف البيت .. وكانت دقات الطبل قوية ومؤثرة ولما سأل سلامة صاحبة البيت عن هذه العادة .. تقلبت في فراشها وقالت :

- يا بني إذهب ونم قليلاً فما زال الوقت مبكراً .. إننا في هذا الحي ندق طبل الجنازة حين يموت أحد .. ولما يقبل الميت على الخروج يمشي الناس جميعاً أمامه وخلفه حتى المقابر .. والطبال يستمر في لحنه الحزين ويتقدم مشهد الميت إلى المقابر .. ففي الطبل إيقاع حزين وتنظيم للخطى ورهبة للمشهد الحزين .. كما نطبل لأفراحنا نطبل لأحزاننا ولكل طبل في مناسبته معنى ومغزى .. يا بني لابد أن يكون لدخول الحياة طبال وللخروج من الحياة طبال .. إن حياتنا في كل من الحياة والمات لها معنى ..

قال وهو مازال يقف ببابها يستمع إليها :

- ولماذا لا تقومي للعزاء ؟

- كنت نائماً حين خرجت من البيت في الحادية عشرة وعدت في
الواحدة مساء أمس حيث قدمت عزائي وبكيت وضربت على
صدري حزناً على هذا الرجل الطيب .. لقد كان يعمل مديراً
للتأمينات في المدينة وهو الرجل الوحيد الذي تعلم من أهل الحي
ليخرج إلى المدينة كلها ويعمل مديراً .. وكان يعمل بعد الظهر
حكماً لكرة القدم .. إنه الرجل الذي ستظل المدينة كلها تذكره
على حميد خلقه .. إن اسمه في كل مكان وكل الناس تعرفه ..
السادة يعرفونه والعبيد .. لقد كان يمثل قنطرة من الرجال تصل
الغني بالفقير .. إذهب يا بني إلى أي مكان وقل من هو سيد
صابر حمدان .. يرد عليك الناس بأنه ابن المدينة كلها .. لقد
كان فريداً في أدبه وخلقته .. وكان أهل الحي الفقير الذي نحن
فيه يقولون هذا ابننا .. وأهل الأحياء الغنية يقولون إنه ابن
المدينة وليس ابن هذا الحي وحده ..
وقال لها سلامة :

- وماذا ترك لأهله ؟

المرأة - لا شيء .. سوى حب الناس لبناته وولده ..
وتقلبت المرأة وشدت الغطاء فوق رأسها وأشارت إلى سلامة
بأن يذهب ويتركها لتنام قليلاً ..
وعاد إلى فراشه لكنه لم ينام .. كان صوت الطبل قوياً ومؤثراً
.. ولما بلغ الوقت العاشرة علا صوت النساء وهولت الخطى في
الحواري والأزقة ، وزاد وقع الطبل شديداً عالياً ، وكانت ابنة
المتوفي الصغرى نرمين تقول بصوت عال :

- مين ها يصلي معانا يابه .. العيد جاي وسايينا ورايح فين يابه ..
يشدّها عم لها يدعى محمد سامي قائلاً :

- تعالى يا بنتي البقاء لله .. الأمر له وحده .. حرام تعالى .. عودي
للبيت .. حرام يمشي في الجنازة ستات .. إستغفري الله يا
بنتي ..

ويحاول أن يمسك بها .. لكنها كانت تفر من بين يديه مهرولة
نحو نعيش أبيها قائلة بصوت باك مبجوح :

- إتركوني أشوفه .. عايزه أشوفه .. حرام عليكم دا أبويا .. يا
ناس حرام يا ناس ماعندكوش قلب .. خدوني معاه .. أروح
معاه يا عم محمد ..

وكان سلامة قد تسلل من البيت في هدوء ليسير في الجنازة
.. وكان الموكب الحزين مهيباً .. وكان كثير من الناس غريباً وقريباً
للمتوفي سيكون بشدة من أثر كلمات إبنته ..

ويكى سلامة كما لم ييك من قبل .. ولما كان يبحث عن
الصدق فلم يكن أكثر صدقاً من هذا الموت وما في هذا المشهد من
بكاء ونواح وقلوب مودعة عزيزاً عليها .. وكان هناك رجل يتوسط
الموكب كلما يرى الناس قد انهمروا في بكاؤهم .. يزعق بصوت
عال:

- وحدوه .. وحدوه .. لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله ..

ويرد عليه الجميع .. لا إله إلا الله ..

وكان القسيس والشيخ الذين إلتقى بهما سلامة يتوسطان
الموكب الحزين في مهابة .. وعلى جانبي الطريق كان يقف الأطفال

والنساء الطاعنات في العمر .. وفي كل بيت قرب المقابر كان الصياح شديداً .. وكأن أهله وإبنته قد إنتقلوا إلى كل بيت مجاور لبيوت الموت ..

وكان محمد سامي حداد قد إنتقل يحمل في نعش حبيبته وقريبه والدموع تنساب منه بغزارة .. وهو الذي حمله مع أهله في رفق إلى داخل البيت الأخير ، وهو الذي إحتضن إبنه الوحيد وضمه إلى صدره لحظة دخول أبيه القبر ، وهذا الرجل الطيب هو الذي قام بالدعاء له بالتثبيت والتوفيق في قبره وحين حسابه .. ولما بدأ الناس ينصرفون من المقابر .. كان هناك رجل في الأربعين من العمر يحدق في وجه سلامة وتقدم نحوه وأمسك بذراعه قائلاً :

- من أنت ؟ إني أراك تبكي

- أنا رجل من هذا العالم الحقير ..

- ولماذا تحقر من نفسك يا أخي ؟

- لقد جئت إلى بلادكم بحثاً عن العيش .. ولم أجد في أي طريق بحثت فيه عن الحياة في هذه المدينة إلا كذباً وبهتاناً وإثماً كبيراً ..

- حتى في مشهد اليوم ؟

- لا والله .. لإني لم أر صدقاً في حياتي قدر ما رأيت في هذا

المشهد الأليم .. وأتمنى أن أغير كل شيء في حياتي بعد اليوم

.. وألا أبحث عن الحياة بهذه الشراهة .. وأن أعود إلى رشدي ..

- لست وحدك تبحث عن الحياة بهذه الكيفية .. فكل هؤلاء حين

ينصرفون إلى بيوتهم وحقولهم ومعاملهم .. يبدؤون تلك الحياة

وينسون الموت .. وهذه سنة الحياة كما ألفتها دائماً ..

وكان هذا الرجل ويدعى لطفي عبد الكريم متزوجاً من شقيقة زوجة المتوفي .. وهو أحد الرجال الذين بذلوا مجهوداً جليلاً من أجل المتوفي حين كان مريضاً .. وشدّ لطفي عبد الكريم على يد سلامة وهو يصافحه :

- أتمنى أن أراك ثانية .. بارك الله فيك ..

ولما كان سلامة يدخل مسالك الحي الفقير .. كانت أصوات مقرئي القرآن تعلو بها المساجد .. وكانت أصوات الأجراس تدق بقوة في الكنيسة القديمة .. وكان في السماء عند الأفق البعيد سحابة سوداء عاتية .. وكان سلامة يدخل بيت رباب وخلفه أناس كثيرون يعودون إلى بيوتهم .. ولما دخل وجد رباب تجلس وسط البيت وعاتبته قائلة :

- لا أحد يعرفك من أهل الميت حتى تذهب ..

- إن وداع الموتى ثواب عظيم .. فيه عظة ورجوع وثبات ..

- كان أولى بك أن تنهياً لتذهب إلى المحكمة ..

- هل نذهب اليوم ؟

- إن الشيخ والقسيس لم يأتيا بعد من الجنازة وأمي هي الأخرى هناك ..

- غداً ولم العجلة يا رباب

- أتريد أن تفهمني بأنك لا تريدني ..

- وهل يوجد خير منك زوجة لي

- ألا تريد فطوراً .. إنني جائعة ..
- أريد حباً قبل الطعام .. ليس بيني وبينك عاطفة قوية يا رباب ..
- أليس لنا أن نعمل شيئاً مثل هذا قبل الزواج ..
- لسنا هنا في شوارع باريس .. لقد فتحنا لك بيتنا عن آخره ..
- وماذا بعد ذلك .. وماذا تريد أكثر من زوجة مجانناً .. أليس في ذلك أكبر عاطفة ..
- أقصد معنى آخر يجب أن يكون بيننا ..
- غداً سيكون بيننا ما تريد ..
- وقامت رباب تعد طعاماً .. ولما عادت إليه وجدته نائماً ،
- فأيقظته في دعة ، وقام وتناولوا لقيمات شهية .. ولما إنتهيا فاجأها
- سلامة قائلاً وهي تقف وتحمل الصينية بيديها :
- كيف تعيشون ؟
- كما يعيش الناس ..
- كيف .. أليس علي أن أعمل من أجل زوجتي ؟
- لا أريدك أن تعمل .. أريدك زوجاً في بيتنا ثلاثة أشهر على ما
- أظن بعدها غادر بيتنا وأعمل ما شئت ..
- وجلست بجواره وأفضت قائلة :
- زوجي يرسل لي ما أريده .. لا ييخل علينا بشيء ، وأمي كل
- أسبوع تذهب إلى بيت العبيدي تخبز لهم الخبز والكعك وتنظف
- البيت وتأتي معها بكل أنواع الطعام ..
- تقصدين من كان زوجك ؟

- وسيكون زوجي ..

- كل هذا الإصرار من أجل الثروة والمال ..

- عشت طيلة عمري مهددة في الرزق .. وأريد أن أنجب منه طفلاً يرث قليلاً من رزق ثابت ، وأظن أن هذا من حقِّي .. لقد كان أبي عبداً وأمي كذلك مازالت خادمة وهي زوجة لعبد .. أمّا أنا فعندي قليل من الطموح ولقد جاءت الفرصة حتى باب بيتي .. وسكنت قليلاً ثم تابعت قائلة :

- نحن أشد الناس تواضعاً .. نطيع ونقول نعم .. حاضر .. ونحنني من أجل لقمة العيش .. وهذه أهم صفاتنا حتى نكون خدماً لهؤلاء الناس .. وتسير الحياة .. هذه هي الحقيقة لكل بيوت هذا الحي .. حتى هذا الشيخ والقسيس ينحنيان للأغنياء في الجانب الآخر حتى ينالوا نصيباً من العطايا .. فما بالك بواحدة مثلي .. أليس لي أن أنحني وأركع ، لو طلب مني هذا الزوج الغني أن أركع له سوف أركع من أجل أن أكون زوجة له .. ألد طفلاً أو طفلة وأكون عضوة في هذا البيت الكبير .. وهكذا تراني أكون لك زوجة لأمر من خلاك إلى هذا الغني .. وضحك سلامة بصوت وعال .. وقال :

- المشكلة .. إذا أعجبتك كزوج ولا تطلين مني تطليقك ..

- إذا أعجبتني كزوج .. سأطلب الطلاق منك بالتأكيد .. وعندما

أذهب إلى البيت الكبير وألد طفلاً ويموت زوجي .. أعود إليك ..

أتزوجك وأنا غنية سيدة .. ساعتها ستكون عبداً لي ..

- هذا تفكيرك إذا .. حقيقة أنت عبدة حقيقية ..
 - وأنت ماذا تكون ؟ حالك من حالي ..
 - من الآن تقذفيني بالفاظ نابية ..
 - أنت لم تر شيئاً من لساني بعد ..
 - إذا .. كيف أتزوجك ؟ أليس لي أن أتزوج زوجة صالحة ..
 - ما هو الإصلاح في نظرك ؟ وهل معك شيء حتى تختار تلك
- الزوجة ؟

- معي .. الشباب و..

- لا تكمل .. وماذا يفيد الشباب وأنت عبد .. ولو لم تكن تملك هذا
- الشباب لما رضيت بك زوجاً .. وإن شبابك هو الذي يجعلك غنياً
- بين رغبات النساء سواءً بزواج أو بغيره .. لكن هذا الشباب لا
- يجعلك سيداً أبداً .. إلا إذا تزوجت من سيدة .. ولن تكون سيداً
- حراً .. فهذه السيادة تحكمها امرأة .. تمنحها وتسحبها وقتما
- تشاء .. أنا ابنة حي العبيد .. أعرف معنى العبودية والسيادة ..
- وكل هذه البيوت تعرف هذا تماماً .. ولا تملك شيئاً لإصلاح
- حالتها .. إن الإصلاح يأتي بإرادة الله .. وهذا نظام الله وقد
- يكون في ذلك عدل كبير لهؤلاء الناس جميعاً .. فلو قلب الله
- العبيد ليصبحوا سادة والسادة يصيرون عبيداً .. فإن الكون
- سينقلب وإن تكون هناك أية عدالة أو رحمة أو إحسان .. الله
- وحده يعرف معدن الناس .. وكل الأحياء في مدينتي تعيش في

رزق وفي سعة .. حتى لو شعرت أنه رزق مهدد .. فإنني منذ ولادتي لم ينقطع الرزق أبداً .. ولكنّها طموحات وأحوال .. وهي دروب أجربها ..

وإنبهر سلامة بحديثها واستسلم لأفكارها وأخذ يفكر فيها .. وتركته وذهبت لتعد الشاي ولما أنته به قال لها :

- هل ذهبت إلى المدرسة ؟

- ذهبت حتى الصف النهائي للتعليم الأساسي .. بعدها أخذتني أمي معها لأساعدها في تلك البيوت .. ولقد كسبت من هذه البيوت أكثر مما كنت سأكسب من المدرسة .. ويكفي عندما كبرت .. تزوجني السيد عبد المنعم الخالدي وهو أحد سادة المدينة وما زال يريدني .. الأرزاق بيد الله كما قلت .. والعلم في داخل قلوبنا وعقولنا قبل المدرسة ..

ودق الباب بقوة وعلت رباب بصوتها :

- من بالباب ؟

وهرولت إلى الباب وفتحته .. فوجدت قبالتها الشيخ والقسيس اللذين أخبراها بأن اليوم غير مناسب للذهاب إلى المحكمة ، وأن غداً يتناسب مع كل الأطراف وإنصرفا يقصدان بيت المتوفي ..

ولما عادت إليه وجدته ينصت في خشوع إلى أصوات المساجد وكانت أجراس الكنيسة قوية .. تهتز لها رأسه وبأدائها قائلاً :

- أنا في حاجة لأن أتمشّي قليلاً في المدينة ..

- وكيف أترك اليوم تذهب وغداً عرسنا .. ومن يضمن أنك
ستعود ..

- من أجلك سأعود .. وهذه حقيقتي ..

- هذا لا يكفي .. هات جواز سفرك ..

وناولها بطاقة السفر .. ومضى يمشي حتى خرج من كافة
الأحياء الفقيرة .. ولما راوده الحنين إلى نيروز قصد الحي الذي
تعيش فيه .. لكنه سرعان ما عاد منقلباً إلى وسط المدينة .. حريصاً
على جواز سفره وعلى إتمام زواج ينقل فيه امرأة عبدة إلى امرأة
سيدة .. وبعدها سيأخذ ألف درهم .. وكان يقوم في ضاحية
الزهور في شارع إبراهيم ثروت بيت شامخ قديم يتألف من دورين
وفي مقدمته حديقة كبيرة ذات باب حديدي .. وكان هذا البيت
كالأثر مثل المتاحف ودور الآثار في كان .. وشعر بشيء قوي في
داخله يشده للاقتراب من هذا البيت ، ولما كان يقف ببابه سمع
صوتاً يناديه من الخلف :

- سلامة .. سلامة

ولما التفت نحوه كان دحروج عبد نيروز يندفع إليه ويحتضنه
وتبعثرت كلمات من فيه غير مكتملة متقطعة وجميعها تعني .. أين
كنت ؟ تعبنا بحثاً عنك .. تعال إن السيدة في حالة سيئة .. وكان
سلامة يحاول أن ينفك من بين ذراعيه ولما أفلح في ذلك لم يكن في
ميسوره أن يجري هرباً منه ولكنه حاول أن يمسك بآثر المفاجأة
وقال له :

- كيف حال سيدتك نيروز ؟

- تبحث عنك في كل المدينة ورصدت مكافأة كبيرة لمن يرشد عنك ..

وتهدج صوته وارتعدت أصابعه وتجراً وقال :

- وأين هي الآن ؟

- في البيت يعالجها الأطباء واحداً بعد الآخر ..

- مم تعاني ؟

- يقولون مرض نفسي

- وأخبار السيدة ريما ؟

- هذا بيتها ..

- هذا ..

وأشار دحروج إلى المتحف الذي كان يقترب منه سلامة :

- هذا بيتها .. ستزوجه فيه قريباً ..

وحاول سلامة أن يرجع خطوات عن سور البيت وتمشي قليلاً
ومعه دحروج إلى شارع جانبي ثم توقفوا وقال سلامة :

- ومن في البيت الجديد ..

- السيدة الكبيرة والسيدة ريما

ثم قال سلامة بصوت خفيض :

- أنت رجل فقير مثلي وأطلب منك ألا تخبر أحداً عني ..

- ولماذا تهرب والسيدة الكبيرة تبكي من أجلك .. أنت سبب مرض

أبنتها .. والست نيروز تريدك .. لم أر امرأة تحب رجلاً مثلها ..

- لم أهرب من النساء في بيت السادة .. إن مقت السيد صديق

واحتقاره لي هو سبب هروبي من القصر ومن عملي في

فندق السلام .. إنه يعتبرني درجة أقل من العبد .. حتى إنه قال

لنيروز في يوم .. تزوجي عبداً ولا تتزوجي هذا الغريب ..

- وهكذا وصلت إلى مرتبة عالية عنده .. ولكن يا سيدي .. لا يوجد في المدينة عبد حر حتى يتزوج من السادة ولا يجزئ عبد حتى على حب سيده في السر .. وإني أرى أنك لست من سلالة العبيد ..

وأمسك دحروج سلامة من كتفه ورجاه أن يعود معه وألا يحرمه من مكافأة كبيرة ، ووعده سلامة بالعودة .. وقال له أن يخبر سيده نيروز بأنه سيعود بعد شهر أو أقل .. وأنه أمامه مأمورية عمل ولا بد من الانتهاء منها ..

- سأخبرها وسيكون ذلك سرّاً بيني وبينها حتى لا يقتلني سيدي الكبير ..

- إفعل ما تراه مناسباً لك ..

وشدّ سلامة على يده وانصرف كل إلى حاله ..

ولكن دحروج لم يستطع أن يخفي خبر عثوره على سلامة ودخل بيت العروس ريما ينادي ويزعق بصوت عال .. سلامة .. وجدته .. وجدت سلامة يا سيدي .. وهرولت نحوه العروس وأمها وضربت السيدة الكبيرة على ذراعه :

- قل أين هو ؟ وجدته حقاً .. أم أنك تشبه ..

قال دحروج وهو يرفع يديه إلى أعلى .. بالله وجدته هو بدمه

وشحمه

وصرخت ريما في وجهه :

- ولماذا لم يأت معك ؟

- وعدني بالعودة بعد شهر .. وأبلغني أن أخبر الست نيروز ..
وخلعت السيدة الكبيرة حذاها وإندفعت نحوه تضربه على
رأسه .. وإنحنى لها وناولها نعلها الذي وقع من يدها قائلاً .. حقك
يا سيدتي .. إنني أستحق الجزاء .. ولكني لم أكن أستطيع أن أتى
به بالقوة .. إنه رجل قوي يا سيدتي ..

وحاولت ربما أن تثني أمها عن ضربها للعبد .. ولكنها لم
تستطع حتى انهارت السيدة ووقعت بالأرض تولول بصوت عال
داعية على العبد بالموت والفناء .. وإقترب منها العبد يبكي ويركع
عند قدميها ثم يقبلها ويطلب من سيدته أن تغفر عنه ..

وتقدمت ربما نحوه وبصقت في وجهه وقالت إذهب حيث
وجدته وابحث عنه في كل المدينة ولا تعد إلا ومعك سلامة يا كلب ..
واعتبر هذا أمر سيدك صديق .. ورجعت إليه ثانية وبصقت وزعقت
قائلة :

- أمازلت هنا ؟ إذهب ولا تعد إلا به .. فأنت عبد خائن ولا تستحق
أن تعيش في مثل هذه البيوت .

وجرى دحروج نحو الباب وابتلعت الشوارع وهو يمشي فيها
حافي القدمين باكي العينين .. منادياً بصوت عال :
- سلامة يا سلامة .. ماحدث شاف سلامة ..

وكان المارة ينظرون إليه مقهقين واعتبروه مجزوباً أو عبيطاً
ولم يبال به أحد .. وظل على هذا المنوال أياماً ..

عاد سلامة إلى بيت رباب وهو لا يصدق .. واشترى في
طريقه بصلاً أخضر وقطعة من الجبن القديم .. ولما طرق الباب
فتحت له أم العروس وأخبرته أن رباب ذهبت إلى السوق لشراء

بعض الملابس ودخل إلى غرفة المعيشة وقشر البصل ووضع في طبق مع قطعة الجبن القديم وتناول خبزاً من الماعون ودخل الغرفة التي ينام فيها وأخذ يأكل بشراسة ..

ولم تستطع السيدة ربما أن تنتظر حتى تعود إلى البيت الكبير .. وهاتفت .. وردت عليها سميرة وطلبت منها أن تأتي لها بنيروز لتخبرها بخبر هام .. فأخبرتها سميرة بأنها نائمة وأن الطبيب نصح بعدم إيقاظها .. ولما حاولت سميرة أن تعرف أي خبر .. فقالت ربما بعصبية .. أتركيني الآن .. عندما نعود .. عندما نعود ..

وقام سلامة بعد الطعام وتوضأ ثم صلى وخذ إلى فراشه وذهب في نوم عميق .. غير أنه بدأ يعي ما قاله لأحروج وأن مهمته محددة وأنه سيعود بعد شهر إلى نيروز السيدة الجميلة سليلة السادة وأصحاب النفوذ .. ولما دخلت رباب بحاجياتها وجدت البيت ساكناً وأيقنت أن أمها نائمة .. وذهبت لتطمئن على عودة سلامة فوجدته يغط في نومه وخلعت ملابسها ووضعت حاجياتها في بطن بولاب أمها ودخلت إلى غرفة المعيشة لتعد بعض لقيمات تأكلها .. فوجدت قشر البصل مبعثراً في كل مكان بالغرفة ورائحته فائحة كريهة .. وذهبت إلى أمها بعصبية توقظها وتسألها من أكل البصل وألقاه بأرضية الغرفة فأخبرتها أمها بأنه قد يكون سلامة .. وصرخت في وجه أمها ثم ذهبت إليه تولول وتصرخ قائلة :

- يا شايط يا نانح يا ماييل يا بن الوسخين .. يا قمطار يا منطار يا بختك يا رباب ، وإنحنت فوقه لتضربه على رأسه بكفي يديها ، فانفلج من نومه منزعجاً .. ماذا جرى ؟ ماذا جرى ؟ هل مات أحد ؟ أمات أحد ؟

فزعقت وهي تطوح بالغطاء الذي فوقه فوقع على الأرض :

- لم يمض أحد ولكنك ستموت وتميتني معك .. من أكل البصل ..
أهو أنت ؟

وبحثت عيناه في الظلمة عن حذائه وحاولت أن تستبين أي شيء .. لقد شعر أنه تعرى وأن فعلته بعد عويل المرأة وكأنها فضيحة إنتشرت في المدينة .. ولكنه لم يجد حذائه ولا بنطاله فقعد يحدق فيها قائلاً :

- إهدني يا بنت الناس .. إهدني .. ألم يحدث شيء غير رائحة البصل ؟

- ألم تعرف أن البصل في البيت قبل الزواج بأيام نذير شؤم ؟
- نذير شؤم بمن ؟

- أن تموت أنت .. أن تموت .. وأنا أريدك ..
واستراح قليلاً عندما شعر أنها قذفته بهذا الوابل من الشتائم وضربته من أجل أنها تريده .. وأنها خائفة عليه .. وقال مبتسماً إبتسامة تنم عن الدهشة والألم أكثر منها عن الفرحه :
- طالما أنت خائفة عليّ فلا مانع أن تضربي رأسي ثانية وتلعينيني .. إنني أستحق ..

وجلس وسط الغرفة تضرب كفاً بالأخرى وتندب حظها ..
وقام سلامة وإرتدى ملابسه وقال :

- هل تسمحين لي يا حبيبتي أن أذهب لآتي ببخور يطهر رائحة البصل ويخرج شيطان الشؤم من البيت ؟
وردت عليه وهي تعدل من شعرها :

- إذهب وإت بأي شيء حتى يخرج هذا الفال من هنا .. إنني أريدك وأريد زوجي .. أريدكم جميعاً .. أليس من حقي أن أكون امرأة حرة ..

وذهب إلى السوق وعاد بالبخور .. وفي الصباح علمت أمها بكل شيء وأخبرتها أمها بأنه سيموت وأنها لن تلتقى زوجها إلا إذا عاشرت رجلاً آخر قبل مضي يوم آخر .. ولما كانت رباب تعرف هذا من أهل المدينة .. وأن أهل حيها من الخدم والعبيد يفعلون ذلك من أجل بناتهم حتى يتزوجن لو حدث وكان البصل الأخضر طعاماً تم أكله سهواً قبل الزواج بثلاثة أيام .. وعرضت رباب نفسها على أمها .. أن تبحث لها عن رجل يعاشرها الليلة حتى لا يحل نذير الشؤم ..

وكان الحديث برمته قد سمعه سلامة وهو يقعد في دورة المياه .. حيث كانت كل من رباب وأمها يعتقدون أنه في حجرته وظل قاعداً في النورة حتى إنصرفا .. وتسلسل إلى الغرفة وهناك حاول جمع ملابس المبعثرة في الحقيبة .. وجاعته رباب قائلة :

- هل تأتيك بالطعام ؟

فضحك سلامة :

- لا تنسى البصل الأخضر ؟

- بعد الزواج تناول منه ما شئت ..

- هل يأتي الشيخ والقسيس اليوم ؟

- أجلناه إلى الغد ..

- ألم نتفق معهما على اليوم ؟

- هناك أشياء ضرورية لابد أن نقضيها اليوم
فضحك سلامة بصوت عال ..
فارتبكت قليلاً وقالت :

- على ماذا تضحك ؟

- لا .. لا .. على حكاية البصل

- صدقني هذه حقيقة وكل من في الحي يعرف ذلك .. حتى تلك
الأحياء التي يعيش فيها السادة يتجنبون البصل الأخضر قبل
الزواج ..

- ولماذا البصل بالذات ..

- إنهم يقولون إن أولاد الشيطان الصفار يعيشون بين أوراقه
وقشوره .. فمن أكل البصل الأخضر أكل تلك الشياطين
الصغيرة التي ترقد بين قشوره وأوراقه دون أن يدري .. فيكيد
الشيطان الكبير لمن قتل أولاده الصفار .. وينتقم من كل شاب
وفتاة يقدمان على الزواج وقد فعلا هذا الجرم به وبأولاده ..
- يا ربي يا ربي .. يا الله .. هذا هو الموضوع إذاً .. وماذا لو أكل
الناس كرنب .. الكرنب له ورق وقشور والشيطان يختبئ فيه
أيضاً ..

- لا .. إن الشياطين الكبار يسكنون الكرنب ولا يستطيع أحد أن
يأكل الكبار .. وهؤلاء الكبار يهربون قبل أن يمسه أحد ..
- لكن هذه أول مرة أسمع فيها هذه القصة منذ قدومي إلى
المدينة ..

- إسأل .. هذا ما يجري في المدينة ..

وكان سلامة يريد أن يشد شعره ويجري في الشوارع ويزعق بأعلا صوته ليسمعه الناس جميعاً .. حرام عليكم يا ناس .. حرام عليكم .. ولكنه أثر الهدوء وعليه أن يفعل ذلك فيما بعد ..

وتناولوا الطعام وكان ذلك في الثانية بعد الظهر .. وارتدت الأم ورايتها ملبسهما وجاعاً إليه في حجرته وأبلغاه بأنهما ستذهبان إلى السوق وستعودان بعد المغرب وعليه أن يستريح ويستحم ويحلق حتى يعودا .. وذهبا إلى دار سيدة مسيحية تدعى إيميلي تقوم باستجلاب الرجل الذي يعاشر العروس .. ولابد أن تجلبه من أهلها .. فالعروس المسلمة يعاشرها مسيحي والعروس المسيحية يعاشرها مسلم ، والعروس اليهودية يعاشرها مسلم أو مسيحي ، والعروس التي ليس لها دين يعاشرها أي رجل .. وكانت بالمدينة ديار أخرى مثل دار إحسان إبراهيم ودار خضرة أبو سعدة ودار كاميليا رابني .. وكل هذه الدور تقع في الأحياء الفقيرة بالمدينة .. ولما ذهبوا إلى دار إيميلي طلبت منهن الحصول على موافقة القسيس والشيخ ، ولما كان الموضوع له علاقة بهما ، ففضلاً أن يذهبا إليهما أولاً في دار رجل مسيحي يجلسان عنده كل مساء حتى العاشرة من كل ليلة لقضاء حاجات الناس .. وهناك أبلغا الرجلين بتأجيل الزواج بسبب قضية البصل وقبل أن تحكي الأم بالتفصيل عاجلها القسيس قائلاً :

- لدي رجل لطيف سيعاملها معاملة حسنة

- الرجل الذي أعرفه حسن غزال ..

- هل نسيت يا عمنا .. لابد من رجل مسيحي

- صحيح .. إبحث عندك

- عندي كثيرون لا مشكلة ..

ونادى على امرأة البيت وهي امرأة لرجل في متوسط العمر
وهب داره لعمل الخير بالنهار والليل وهو متزوج من امرأة جميلة
يتغزل فيها القسيس أمام زوجها ويباركها الشيخ بأن يمسح على
يدها ورأسها قائلاً : ما شاء الله .. والرجل القسيس وزوجها
تربطهما علاقة قرابة بعيدة .. وجاعتهم المرأة .. وطلب القسيس ورقة
وقلماً وكتب عليها وهو يقول بصوت عال :

- نبيل رشدي .. أطف رجل مسيحي وهو رقيق ويتقاضى أجراً
معقولاً .. إذهباً إلى إيميلي وهذا توقيعي ..

وباركت أم رباب الرجلين وشكرتهما وقبّلت يد كل منهما
وكذلك فعلت رباب واحتضن كل من الشيخ والقسيس رباب وقبلاهما
بعنف مما جعل امرأة البيت تقول :

- كفى .. إتركوها فهي لنبيل الليلة ..

وكانت هذه المرأة على علاقة وطيدة بالقسيس .. والزوج
يتقاضى عن كل مبلغ يدفع من أجل قضاء مصالح الناس في داره
نسبة عشرين في المائة منه وعشرة في المائة لزوجته والباقي وهو
سبعون في المائة يقسم بين الشيخ والقسيس .. فالصلح بين رجلين
أو عائلتين أو رجل وزوجته أو عقد قران وطلاق وطهارة وختان
وحتى دور الزار كانوا يفرضون عليها رسوماً وقضايا البصل
الأخضر .. حتى البيع والشراء بين التجار وكل أعمال السمسرة في
المدينة أغلبها من نصيب القسيس والشيخ .. وكثير منها يتم في دار

هذا الرجل وزوجته .. وهناك عدد من الفتوات يمثلون قوة هذه الجماعة مقابل أجر شهري ..

كالعادة يتم اللقاء في بيت إيميلي ولو لمدة ساعة .. وليس من الضروري أن تبيت المرأة مع الرجل ليلة كاملة .. كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً عندما أنهى الرجل مهمته .. وأمسك يدها بقوة قائلاً :

- أنت امرأة طيبة ولتذهبي طاهرة ذكية إلى عرسك وتجنبي البصل الأخضر لأسبوع وحذري زوجك الغبي من هذا الفعل المشين .. وبكت رباب وهزت رأسها بالموافقة وضربت أُمها على ظهرها قائلة :

- أسرعي .. على ماذا تبكي .. هل خسرت شيئاً ؟
فقال في نبرة من الحزن :

- ليس هذا سهلاً يا أُمي .. لقد كانت القشعريرة تسري في كل عصب من أعصابي .. لا أعرف .. هل هذا حقاً صحيح يا أُمي ؟
- إنها حلول رجلين صالحين ..
- ألا يوجد أصلح منهما في المدينة ؟

- كل المدينة تتبارك بهما .. ولا شيء يتم إلا بأمرهما .. إنهما لا يفعلان إلا الخير .. يقدمان الحل لأي مشكلة .. ولقد ورثا هذا العمل عن أبييهما .. ومنذ أن ولدنا وهذا يجري في المدينة .. وأعتقد أن أي مدينة فيها هذان الرجلان .. إننا لا نرى غيرهما .. ليس هناك أصلح من ذلك .. وكل شيء يجده الناس عندهما .. ماذا تريدان بعد ؟ إذهبي ..

.. وماذا كان في ميسور سلامة أن يفعل .. إن الجانب الآخر من المدينة أذكى وإن الناس في هذه الأحياء الفقيرة لم يخلقوا خدماً إلا من أعمالهم .. ولا توجد أي أصالة أو فضيلة في هذه البيوت .. وأن الرجلين يتاجران في كل شيء باسم الدين والخير والصلاح .. والدين منهما براء .. وكان يجب أن يعمل كل واحد منهما بمفرده .. وأن يعمل في أمور الدين فقط .. وليس في أي أمر من أمور الدنيا غير ما يتصل بالحق والعدل والفضيلة .. ولكن لا يوجد حق .. ولا فضيلة ولا عدل .. أين محكمة المدينة .. وحكمدارها .. ورجل أمنها .. إن أمين المحكمة يذهب إليهما لإصلاح شأنه وشأن زوجته .. وحكمدارها يقبلُ يديهما .. ورجل أمنها يبعث برجال يحرسون كلاً منهما .. والمدينة تغرق وتنزل إلى تحت .. وهم جميعاً يعتقدون أن هذه هي الحياة .. بل قمة الحياة وقمة العدالة وقمة الأخلاق الكريمة .. لا فائدة من الصراخ ولا داع لأي نصيحة .. ولا خوف ولا قلق عليهم من أي خطيئة .. إن كل خطيئة لها حل لدى الرجلين الكريمين .. هكذا استطاع سلامة أن يلم بكل الأعمال بالمدينة حينما جلس وهو في طريقه إلى فندق السلام مع رجل يطلقون عليه المجذوب .. كان يجلس في محطة الباصات .. وكان سلامة قد خرج من دار رباب قبل المغرب بقليل .. إنه لن يعود أبداً إلى هذا الحي .. وعليه أن يذهب إلى فندق السلام .. فهو خير مكان يذهب إليه الآن .. وكان الرجل يمشي في الطريق المتجه إلى الفندق ويقول بين الحين والآخر لسلامة ..

- وهل استحال على تلك الأحياء الفقيرة الواسعة إستيعابك يا بني؟

- لا يا سيدي .. لا .. ولا تلك الأحياء الغنية ..

- هل تعرف أن للعبيد في تلك القصور مكانة عالية ؟
- أعرف ..
- تعرف القليل يا بني
- ما إسمك يا سيدي ؟
- أسامة محمد
- أسامة .. أسامة .. أنت رجل تبلغ الخمسين عاماً ..
- وما يعيب ؟
- ضحك سلامة وقال :
- عيب أن تكون رجلاً كبيراً واسمك أسامة ..
- لو قلت لك إسم جدي لكان العيب عيبين .. وضحك ..
- أرجوك ما إسم جدك ..
- سامي .. أسمى .. أسامة محمد سامي ..
- عجيب إنهم كانوا يسمون أسماء الصغار في تلك الأيام البعيدة ..
- يا بني إسم أسامة قديم وتاريخي .. ولكن معك أن سامي غريب
- أن يسموه في القدم ..
- أليس لك بيت ؟
- لي بيت في أحياء العبيد التي كنت فيها .. وزوجتي كانت راقصة قديمة لحكمدار المدينة السابق .. وهي الآن تقعد في البيت تعيش على الإعانات التي تصل إليها من أغنياء المدينة .. تكبرني بسبع سنين وهي لا تعرف الله .. لا تصلي ولا تصوم وتتفوه بألفاظ قذرة .. ويبدو أن عقلها قد إختل .. فعندما لم تعد قادرة

على هذا وسطها كفرت بنعم الله .. فنعم الله عليها أن تكون
قادرة على الرقص .. فإذا لم تعد قادرة فأين الله ؟ هذا منطق
كل النساء الفاجرات في هذه الأحياء .. ولما كانت تتمتع بكامل
صحتها .. لم تكن تعرف أي شيء عن الله .. وهذا شيء طبيعي
في أحياء يلهو فيها رجال الدين فيفرق الجميع في الضلال ..

- ولماذا لا تتزوج من امرأة أخرى حتى تستريح ..

- لا بيت يقبلني في ذلك الحي .. لأنه يطلقون عليّ المجنوب
والمجنون .. يخافون مني .. حتى تلك القصور أهلها يعاملونني
كذلك .. هل تعرف لماذا ؟ لأنني أصلي وأصوم واتقي الله ..
وأمشي في الشوارع قائلاً بالليل والنهار .. إتقوا الله .. إتقوا
الله .. الرحمة يا ناس .. إنهم لا يريدون أية يقظة .. ولا توجد
إمرأة هنا تقبل رجلاً لأنه صالح .. يا بني .. لقد لفظتني المدينة
.. وأفكر في العودة إلى كان ..

- كان .. ولماذا تعود إلى كان ؟

- إنها بلدي يا بني .. بلدي التي تركتها منذ إثنتي عشرة عاماً
وإندهش سلامة قائلاً :

- أنت من كان .. من بلدي .. يا أله يا أله ..

- مهما عشنا هنا فلن نقبلنا المدينة .. ولكني الآن أفكر كيف أعود
إلى بلدي وجيوبي فارغة .. ليس معي شيء وضاع شبابي ولم
أعد قادراً على العمل ..

- وماذا كنت تعمل ؟

- طبّاخ .. طيلة عمري أعمل طبّاخاً في البيوت الكبيرة والفنادق ..

- ولماذا لا تأتي معي إلى فندق السلام لتعمل هناك ؟

- وهل هناك مكان أبيت فيه ..

- نعم .. توكلنا على الله .. وأمسك سلامة بكف يده ..

وقبل الدخول من باب الفندق نُبّه عليه سلامة بعدم الحديث مع أحد .. وعليه أن يعمل ثم يتعبد كما يشاء في الغرفة التي سينام فيها .. فوافق الرجل مغتبطاً ..

ورحّب صاحب الفندق بسلامة .. وفي الصباح إستلم عمله السابق والذي كان يقوم به صاحب الفندق .. وعمل أسامة محمد في المطبخ .. وكان رجال من المخابرات الشمالية يعرفهم أبو الفندق قد سألوا على سلامة عدة مرات أثناء غيابه الطويل .. ومُرّت الأيام فيها كانت نيروز تنن من كثرة الرقاد في فراشها ، وكانت علاقتها مع أبيها قد بلغت حداً كبيراً من السوء لدرجة أنها كانت تشتمه كلما رآته .. خاصة عندما علمت من خادمة تأتي للعمل في الصباح .. أن سيدها وصى العبد دحروج بالتقرب إليها وأنه لو نجح في ذلك فسوف يزوجه لها .. وأن العبد فرح بذلك ولكنه لم يصدّق .. وأنه قال لسيده في التو .. ولكن كيف يا سيدي مستحيل أن تقبلني زوجاً لها .. وأن ذلك سيكون حديث المدينة . ثم سأل دحروج وهو يرتعش .. لماذا يا سيدي .. أليس السيد سلامة أولى بها خاصة أنه لا يوجد رجال بالمدينة .. فبصق سيده في وجهه .. هكذا قصت الخادمة على سيدتها ما حدث بين العبد دحروج وسيدها .. ومن يومها كلما رأت أباها شتمته بأنغظ الألفاظ .. وكان أبوها يندهش ويحزن فقرر أن ينتقم منها وأخذ يجهّز دحروج فاشترى له ملابس

جديدة وحذائين وبعد أيام إشتري له بدلة وبدأ يغسل أسنانه بالفرشاة ويتعطر ويمسح وجهه بالكريم .. والحقيقة أن جميع من في البيت وأولهم سيدة البيت إندهشت من اهتمام زوجها بالعبد .. وأن العبد ظهر عليه تحسُّن كبير .. لقد إقترب من السادة في مظهره .. ولم يعد دحروج يقوم بأي عمل حقير .. وبدأ السيد الكبير ينادي على الخدم واحدة بعد الأخرى ويأمرهم بأن ينادوه يا سيدي .. ومن يتقرَّب إليه ويتملقه خاصة أمام سيده .. كان يقدِّق عليه بالمال والهدايا .. وفي عدة أسابيع كان دحروج حقاً شبيه السادة .. وبدأت المدينة كلها تتحدث عنه .. ولم يعرف أحد أن سيده يقوم بتسيده ليكون زوجاً لابنته .. وفي خلال تلك الأيام أيقنت نيروز أن حديث الخادمة إليها كان صحيحاً ، ومنحتها حقيبة ملابس من دولابها .. وفي يوم جاءها أبوها قائلاً وهو يقف بالباب :

- ما رأيك في دحروج ألم يصبح سيِّداً ؟

قالت نيروز بحدة وهي تنعدل في فراشها :

- جربوع وحقير .. العبد يظل عبداً ذليلاً .. ولماذا فعلت به هذا ؟

- أليس رجلاً مليحاً .. إذا ذهب إلى امرأة في مدينة أخرى وطلب الزواج منها ألا توافق ..

قالت نيروز وهي تحاول مداراة ما تعرفه :

- هل هذا نوع من وفاء السيد لعبده .. إذا كان ذلك فلقد حدث تطور خطير للقيم التي نعتقد فيها ..

- إنه شاب وجميل ولم يكن ينقصه إلا بعض الرعاية وسوف أوكل إليه بإدارة كثير من أعماله ..

قالت نيروز وهي تقوم من فراشها وتجلس على مقعد :

- أخاف أن تأتيني بعد يوم وتقول لنا أن هذا أخوكم من امرأة

أخرى ..

قال السيد صديق وهو ينصرف :

- سوف أقول لك شيئاً آخر ..

فردت عليه بحدة :

- مهما قلت فلن يكون لك شيء مني .. سوف أقبل ما أريده أنا ..

ومهما كنت أبي .. فإنك لست أبي إذا أملت فرضاً علي ..

فرجع الرجل وتقدم خطوتين نحوها ..

فأردفت قائلة وبصوت عالٍ جعل أمها تهرع إلى غرفتها :

- البيت مملوء بالمسدسات .. سيكون الموت بالرصاص أقرب إليّ

من أي أمر تمليه علي .. وثق لقد عرفت لماذا تقوم بتغيير دحروج

.. هذه الأحلام لن تتحقق ولن أقبل رجلاً أتزوجه من هذه المدينة

حتى ولو كان ملكاً .. فما بالك يا رجل العز والجاه إذا كان

خادماً .. إنني لن أقبله حتى عبداً بعد اليوم ..

ورجع إليها ووقفت زوجته بينه وبين إبنتها وحاولت دفعه نحو

الباب فدفعها فسقطت على الأرض ، وصرخت نيروز وانحنيت على

أمها وأخذتها بذراعيها فقامت قائلة لزوجها وأنفاسها تنهدج :

- لا داع لكل هذا كفى إبنتي مرضها وقعاها في البيت .. لا تقتلنا

أكثر من هذا .. سوف أذهب ونيروز إلى البيت القديم .. وكفاك

دحروج في القصر .. ليتني أفهم ماذا تريد ؟

وأمسك الرجل بضلفة الباب ورد علي السيدة بحدة :

- لن يستطيع أحد في هذه المدينة أن يمنعني عن فعلي ..
- حتى لو ماتت إبنتك .. نيروز المفضلة وحبيبته .. عد إلى عقلك
فأنت رجل قوي والبيت وبناتك في حاجة إلى حنوك وعطفك ..
المال مال الله والقوة والعزة لله وحده .. دع الخادم خادماً فلن
يكون سيداً أبداً لو ملك الدنيا كلها .. ولو عملت في عبدك
تغييرات الدنيا كلها فإنني لن أقبله إلا خادماً .. ولو توقفت
الحياة بيننا .. الأصول القديمة هي الأصول الآن .. وكفاك
تجارة في النفوس .. وإن كنت تريد هذه التجارة فليست في
بناتي ..

قال الرجل وهو يبصق في وجهها لاعناً ومتوعداً :

- أنت والبنات ملك لي .. أتصرف فيكم كما أتصرف في أموالي ..
وأنصرف الرجل إلى خارج البيت تاركاً لعنة زوجته ونيروز
عليه تملأ أرجاء القصر ..
وقالت نيروز لأمها :

- مازلت أحب الحياة وبيتنا والحديقة ومدينتي .. إن أبي كما ترين
لم يعد أبي .. فما الذي بقي لي ؟ ماذا ستفعلين من أجلي يا
أمي ؟

- أنا مازلت باقية على وجه الحياة .. إن أحلامه الثقيلة الغبية لن
تتم حتى لو كانت النتيجة إنفصالي عنه ..
وربتت على ظهرها في رفق ثم قامت إليها وأخذتها في
أحضانها وراحت كلاهما تبكي ..

وفي نفس اللحظة كان دحروج يرتدي بدلة أخرى جديدة ويحوم حول القصر يتطلع إلى شرفاته وأشجار الحديقة وفروعها الشامخة ويقول .. ساكون سيداً لهذا العالم الكبير .. وكان أهل المدينة قد علموا جميعاً بالخبر وأندesh الجميع وقالوا أن صديق هذا مجنون أو مخبول .. وكان أهل الحي يتفرجون على دحروج كلما رأوه كأنهم لم يروه من قبل .. وكانت النساء يضربن كفاً بالآخر على أحوال الدنيا وكان معظمهن يقول أنها أكنوية ولا يمكن أن يتم تخريف السيد صديق ..

وقامت نيروز إلى فراشها بعد إنقضاء كثير من الوقت وهي في أحضان أمها .. ورقدت الأم بجوارها تتحسس جسدها بيدها وتدلكه .. وإرتاحت نيروز لذلك كثيراً وبعد مرور بعض الوقت قالت :

- أنت لم تستشعري مرارة الموت يا أمي .. فأنت ترينني منذ شهور وأنا جثة هامدة ، ولكنك يا أماه عرفت الحب في يوم .. أي نوع من الحب .. خفقان القلب اللذيذ مثلاً .. لقد كنت أشعر أن الدنيا حولي تمشي في مد هاديء ولن يعكر صفوها أي شيء .. فمثلاً كان أبي يفعل كل شيء من أجلي ولم أكن أتوقع أنه يأتي يوم يقوم بدفني .. هل أنا خروف يعلقني ثم يذبحني .. إذا كان هذا منطقة يا أمي فالموت أحسن وأبقى من موت أبي ..

ومرّت عربة بجوار دحروج وهو يلف حول البيت فقال له قائدها وهو من أهل الحي :

- يا حمار يا أهبل .. هل صدقت أنك ستتزوج من سيدة .. وبصق تجاهه ..

وجرى دحروج وتاه في الشوارع المجاورة وقصد مكتب
سيده..

ونامت نيروز نوماً هادئاً مع أمها التي قامت بعد أن إطمأنت
عليها وهاتفت رجلاً قريباً لها :

- هالو ..

وردت عليها زوجته :

- هالو

- أنا حميدة فودة

- هلا بيك هلا .. أين أنتم منذ زمن لم نسمع بصوتكم .. أهلاً ..
أهلاً ..

- كيف حالكم وأحوالكم .. أحمد موجود

- موجود .. أناديه لك .. لحظة ..

وبعد السلام والتحيات قالت لقريبها :

- أنت لك نفوذ يا أحمد .. وأظنك قد علمت بأن صديق يريد زواج
العبد من نيروز وهذا في حد ذاته فضيحة ألا تعرف أحداً
يخلصنا منه ؟

- من صديق أو من الخادم ؟

- الخادم طبعاً

- أعرف .. دعيني أفكر وأرد عليك

وصمت لحظة ثم قال :

- سوف أتدبر الأمر مع جماعة وأتصل بك .. يومان على الأكثر ..

وكان السيد أحمد علي يعمل مديراً بإحدى المصالح الحكومية .. حيث أجرى عدة إتصالات مع معارفه ليس معاونة لقريبته فقط ولكن إقتناعاً منه بالظلم الواقع على نيروز .. وهاتفها الرجل بعد ثلاثة أيام :

- كيف نيروز الآن

- بحال سيئة ..

- سوف أخلصها من هذا الموضوع نهائياً ..

- أتمنى .. أتمنى سوف يكون لك هدية كبيرة ..

- عيب يا بنت خالتي عيب ..

- كيف تخلصنا منه ؟

- لا .. كيف هذه لي .. أين يسكن .. أين عمله ؟

- يعمل بالنهار في مكتب النقل وفي الليل ينام في بيتنا القديم ..

وفي يوم جاءت الخادمة أم إبراهيم شرفة برجل يدعى جبر صميذة يستأجره الناس في مدينة مجاورة للقتل والنهب والسلب .. ولما جلس مع السيدة حميدة طلب مبلغاً كبيراً فوافقت ، غير أنه عندما علم بأنه خادم رجل كبير مثل السيد صديق فكر قليلاً ثم طلب من السيدة إمهاله يومين وسيرد عليها .. وبعد يومين إتصل بها قريبها أحمد علي واعتذر عن المهمة فكلما قابل رجلاً لقضاء هذا الطلب .. رفض واحد بعد الآخر لصلة السيد صديق بأجهزة الدولة .. لقد خاف الجميع من العبد لخوفهم من السيد صديق وجبروته في المدينة .. وكرر إعتذاره .. وشعرت السيدة وإبنتها بغصة في حلقهما .. وفكرت السيدة في تدبير أمر هجرتها من

البيت هي ونيروز ولو لمدة من الوقت في أي مدينة أو قرية حتى تهدأ الأمور .. لكن نيروز رفضت قائلة :

- يا أمي .. عندما أتعافى قليلاً سأخلص نفسي

- كيف ..

- أنا كفيلة بإزاحة هذا الخادم من طريقي

وكررت الأم :

- كيف

- بالسياسة أولاً .. ثم العنف .. أأست مثل أي سيد أو سيدة في

المدينة قتلت عبدها دون مسئولية .. فما بالك وأنا إبنة صديق ..

- وإذا كان أبوك خصماً يا إبنتي ..

- وقتها سيفضل الإبقاء عليّ ..

- إذا كان ذلك مضموناً فلا بأس ..

- سوف أترك لك يا أمي الجانب السياسي من اليوم ..

وفي صباح اليوم التالي سافر السيد صديق إلي العاصمة ..

وهافت السيدة حميدة مكتب النقل فرد عليها العبد دحروج ..

فطلبت منه الحضور إلى البيت .. وكان العبد خائفاً وهو يذهب إلى

القصر .. ورأى الباب مفتوحاً وهو يدخل فنادى على الخادمة أم

إبراهيم وتقدمت الخادمة نحو الباب وعندما رآته قبالتها سألتها عن

سبب حضوره فأخبرها وقلبه يخفق .. السيدة الكبيرة طلبتني ..

فضربتني على ظهره قائلة .. ستموت .. ستموت يا ابن الكلب .. هل

تصدق أن العبد يتزوج سيدته .. هذا في الأحلام .. أترك المدينة

خوفاً على حياتك يا ابن الهبله .. وزفته من الباب الكبير حتى البهو

الداخلي للبيت وزعقت فيه قائلة :

- لا تجلس على الأرض حتى لا تتوسخ بثيابك البالية ..

- لم تعد بالية .. ألا ترين إنها نظيفة ..

- إنتظرنى حتى أبلغ السيدة ..

وبعد قليل عادت إليه ونصحته بالرضوخ لكل ما تطلبه منه

السيدة .. فلوماً برأسه قائلاً :

- طبعاً .. أنا عارف أنا مين .. لست مذنباً في شيء ..

ولما دخل على السيدة في إحدى الغرف الداخلية كانت تنوي

توبيخه وضربه بأحد الأحذية القديمة لكنها عندما رآته يدخل

منحنياً ويقول :

- سمعاً وطاعة يا سيدتي ..

ورفعت السيدة صوتها قائلة :

- وسمعاً وطاعة للسيد صديق

- طبعاً يا سيدتي ..

- في أي شيء سمعاً وطاعة ..

- أنا عبد .. خادم يا سيدتي .. ولو كان هناك طفل صغير في هذا

البيت ويأمرني بقتل نفسي يا سيدتي لفعلت ..

- اجلس على الأرض ..

فجلس وقال :

- بماذا تأمريني يا سيدتي ..

- ماذا قال لك سيدك بخصوص نيروز .. سيدتك نيروز ؟

- إنها سيدتي وتاج رأسي .. لقد قال لي كلاماً لا أصدق .. ومنذ
شهور قام بتنظيفي وبتغيير من أجل هذا الأمر وأنا لا أصدق
.. لا أصدق أن أتزوج خادمة في قصره فما بالك يا سيدتي ..
ولكني أطيع .. أطيع أي شيء يأمرني به سيدي وسيدتي ..
السيدة تهز رأسها مقتنعة بأنه لا ذنب له .. وإنه عبد مطيع
.. عبد ذليل ..

قالت له وهي تشعر بهدوء شديد نحو طبيته :

- ولو قلت لك إذهب إلى مكان آخر غير هذا القصر وهذه المدينة ..
- سوف أفعل بالطبع .. وفي التو .. ولكن من يطعمني يا سيدتي ..
فأنا كما ترين ليس لي أحد ألبأ إليه غيركم .. فلقد ولدت في
هذا البيت وكان أبي عبداً لكم وأبوه كذلك .. وأنا .. ما ذنبي يا
سيدتي .. لك يا سيدتي أن أركع تحت أقدام سيدة المدينة كلها
.. فلا يمكن أن أكون زوجاً لخادمتها .. إن سيدي يريد أن
يعاندها فقط يا سيدتي .. شيء من الإذلال إذا سمحت لي أن
أقولها .. والمدينة كلها تبصق في وجهي فمنهم من يصدق ومنهم
من يعرف أنها خرافة ..

- سوف أعطيك مالاً كثيراً وإذهب عن هذه المدينة ..

- حاضر يا سيدتي .. متى ؟

- الآن

وانهمرت عيناه بالدموع .. ثم عوى بصوت عال .. وقال وهو
يتقدم وانحنى على قدم سيدته :

- في عرضك يا سيدتي لو خرجت من بيتكم فلن أعيش .. كالسمك الذي يخرج من الماء .. وماذا أفعل بالمال وأنا لا أعرف كيف أتصرف فيه .. يا سيدتي أرجوك ضعيني في بدروم البيت القديم .. هناك غرفة صغيرة مملوءة بالخشب والأثاث القديم وهي مقفولة بقفل منذ سنين .. ضعيني في هذه الغرفة حتى أموت .. المهم أن أظل في هذا البيت .. أي بيت من بيوتكم .. وتصرفني يا سيدتي مع سيدي عندما يأتي من سفره .. قللي له مات .. ذهب ولم يعد .. قللي ما تشائين .. ولكن أتركيني مثل أي حيوان يعيش في أركان هذا البيت ..

وتسألت السيدة بصوت لم يسمعه دحروج .. هل كان ذلك كابوساً بون حقيقة .. أهكذا يكون دحروج بهذا الضعف إنه حقاً من المساكين .. ليس لديه إلا الطاعة .. وقالت له بصوت هاديء :
- إنهض وإذهب إلى البيت القديم وسوف أرسل لك من يفتح هذه الغرفة ..

ووقف فرحاً وقال :

- أنا أفتحها يا سيدتي أنا أعرف ..
- إذهب الآن وعد إلى هنا بعد إعدادها لتكون ملائمة لمعيشتك ..
عد إلى هنا .. ولكن بملابسك القديمة .. هل فهمت ..
وانحنى وكاد وجهه يلامس ركبتيه وقال وهو يجري نحو الباب:

- حاضر يا ستي .. حاضر .. ساعة واحدة ..

وذهبت السيدة إلى نيروز في فراشها وأخبرتها بالحديث الذي دار بينها وبين العبد وسعدت نيروز بإستسلام العبد .. وأن قتله كان حراماً .. غير أن عيب هذا المسكين أنه يطيع أسياده دون تفرقة بين المعقول واللامعقول .. وإتفقتا على محاصرة سيد البيت وتهديده بالهجرة من المدينة كلها إذا إستمرت مهاتراته مع إبنته .. ولأول مرة بعد أن كانت محزونة المحيا مكتئبة قامت من فراشها متعافية وطلبت تجهيز الحمام لتستحم .. لقد كان أول نهار متائق منذ وقت طويل ودق الأمل في حياتها من جديد .. ولبست حلة جديدة وذهبت إلى صالة البيت وأم ابراهيم خلفها تزغرد وتغني والدموع في عيون أمها بهجة وفرحة .. وطلبت طعاماً وتناولته بشهية .. ولما انصرفت الخادمة قالت لأمها :

- والله يا أمي مازال لدي أمل بأن سلامة في المدينة ولم يخرج منها ..

- نفس الإحساس يا نيروز .. أشعر أنه بين جنباتها حيٌ يُرزق ..
ونادت الأم الخادمة فأتتها تهوول وقالت لها بوجه بشوش :
- ألا تستطيعي أن تأت لي بعدد من الرجال الكانين الذين يتجمعون في الساحة ..

- أستطيع يا سيدتي أن أحضر لك مائة منهم ..
- يكفيني خمسة اليوم ..

وخرجت أم ابراهيم شرفة إلى الساحة .. وعادت إلى القصر بخمسة منهم .. وقابلتهم السيدة وطلبت منهم البحث عن شخص يدعى سلامة .. كاني .. طويل .. عريض .. وجيه .. جميل .. متعلّم ومثقف .. وأنه كان يعمل محاسباً في فندق السلام .. وأوصتهم بأن

يعمل كل واحد منهم بمفرده .. وأن يبحثوا في الفنادق أولاً ..
ونقدت كل منهم مبلغاً من المال مقدمة لأتباعهم وأن عليهم أن يعرفوا
مكانه فقط وفي سرية تامة وعليهم أن يعودوا للإخطار عن موقعه
فقط وليس من مهمتهم المجيء به .. وفرح كل واحد منهم بمهمته
وراحوا يجوبون فنادق المدينة ..

وفي فندق السلام لم يجد سلامة واحداً من العاملين فيه
الذين قابلهم من قبل .. ولما سأل عنهم صاحب الفندق أخبره أنهم
ذهبوا جميعاً واحداً بعد الآخر إلى معسكر المجاهدين .. وبعد
يومين جاءه رجل ممن بعثتهم السيدة حميدة للبحث عنه وقال له :

- هل تعرف أحداً اسمه سلامة .. كان يعمل محاسباً هنا ؟
وقال له سلامة في دهشة :

- تعال هنا .. هلا بيك .. هل أنت قريب له ؟ وأقعده على مقعد في
مدخل الفندق ..

- لا والله .. أنا أبحث عنه لجماعة هنا في المدينة .. سيدة غنية
تمتلك قصراً فخماً تبحث عنه ..

وإطمأن سلامة قليلاً .. لقد كان يخاف الجماعة .. ولما علم
أنها سيدة فهي جماعة في كل الأحوال مسالمة .. وطلب سلامة
وصف هذا القصر وأين يقع .. ولما أخبره الرجل عن ذلك .. تأكد
أنه بيت نيروز .. وسرت في أفقه بهجه وقال :

- أنا أعرفه وأستطيع أن أتى به إلى هنا في أي وقت .. ولكن ..

- لا .. أرجوك .. إن مكافأة كبيرة تنتظرني ..

- عندما تأكد من أنه لا ضرر من العشور عليه .. حتى لا أؤذي
أحداً ..

- إن سيدة تريده فأني ضرر يقع به .. سيدة تملك قصراً كيف يأتي
منها أي ضرر .. أرجوك .. سيكون لك عمولة مني .. بالله ..
- تعال غداً .. سوف أتصل بصديق لي يعرف مكانه ..
- في صباح الغد سأتي إلى هنا .. لكنني بالله لا تدل أحداً على
مكانه غيري .. لقد إتفقنا على العمولة ..
وشد سلامة على يده موافقاً ..

وعلى غير عادته لم يفكر في مغادرة الفندق .. إنه لم يحصل
على شيء عندما إنتقل إلى الحي الفقير .. وقضى على نفسه أمراً
بأن يسلم وجهه إلى الله .. وأن يترك كل كبيرة وصغيرة تمر أو
حتى تدق رأسه وعليه أن يبقى في مكانه ، ويترك تلك الأحلام
والتخيلات الواسعة التي تلعب برأسه .. فالمجتمع الغني مثل
المجتمع الفقير وفي كل مكان سيجد له متسعاً وعليه أن يعيش
الواقع كما يفعل الناس جميعاً .. ولماذا لا يذهب بنفسه إلى بيت
نيروز .. لماذا هذا الهروب الغريب منه .. هل يخسر شيئاً لو هاتف
بيت نيروز للسؤال عنهم .. ويبرر هذا الغياب الطويل بالسفر إلى
مدينة أخرى وأنه لم يستطع البعاد عنها فعاد ، وأنه أيضاً لا يقدر
على فراقها .. وأن محاولته مغادرة المدينة كانت من أجل التخفيف
من مشاكل تولد في بيتها ويكون هو سببها خاصة أن أبيها لا
يعترف به وأنه من جماعة أقل من درجة العبيد في نظره .. وفي
الصباح كان إقتناعه بمحادثة بيت نيروز أكثر وأشد وأن يروي لها
كل مبرراته في الهجرة عنها ..

وكانت نيروز سعيدة بأن رجالاً قد عملوا صباحاً ومساءً
في البحث عن سلامة وأن أملاً حقيقياً بدأ يدب في صدرها .. وفي

نفس الليلة التي فيها قرر سلامة محادثتها .. قامت نيروز من فراشها وتوضأت بعد أن سألت أمها عن كيفية الوضوء .. وكان ذلك مفاجأة لأمها التي زعقت بصوت عال :

- الله أكبر .. الله أكبر .. يا ودود يا ودود .. يا ودود .. يا مغيث أغثنا وإصرف عنا السوء ..

وقالت لأمها وهي تمسك بسجادة الصلاة :

- كيف أصلي .. أريد أن أصلي الآن يا أمي .. لقد مرّت كل الأوقات التي تصلينها .. أي صلاة أصليها الآن .. قللي يا أمي قللي ..

وإحتضنتها الأم بقوة وفرت الدموع من عينيها .. ثم وقفت الأم تصلي بصوت عال وتركع وتسجد وبعد أن صلت ركعتين .. قالت لها :

- ساقف معك أصلي .. سأصلي بصوت عال واسمعيني واركعي واسجدي وقولي في السر ما أقول من القرآن ..

ووقفت الخادمة أم إبراهيم شرفة بباب الغرفة مبهوثة تقول .. سبحان الله .. سبحان الله ..

وصلت السيدة حميدة الفودة وابنتها نيروز ركعتين ثم ركعتين .. وبعد الصلاة قعدت نيروز على الأرض وراحت تبكي .. وتركها الأم تبكي ثم ساعدتها في الوقوف وأخذتها إلى فراشها وقالت لها وهي تقبلها من جبينها :

- ليتك تستمرين في الصلاة .. سوف يحقق الله لك كل ما تريدينه وينصرك ..

- ويعود سلامة ..

- وأكثر من ذلك .. كل ما تريد ..

- ولكني لا أحفظ أي سورة من القرآن .. حتى فاتحة الكتاب ..

وهروات الأم إلى غرفتها .. وهذه مصيبتنا .. هذه مصيبة كل
هذه القصور .. لقد فتح الله عليك .. وحملت الكتاب العظيم بين
يديها وفتحته قائلة وهي تعطيه لها :

- هذه صور قصيرة .. الفاتحة والمعوذتان والطارق والنازعات ..
وأحمد الله أنك تقرأين جيداً ..

وأخذته نيروز بين يديها وانعدلت وأخذت تقرأ .. وانصرفت
السيدة وخادمتها إلى صالة البيت .. وفتح الله عليها .. وحفظت
سورة الفاتحة والمعوذتين والعصر والنصر والإخلاص ..

وكانت الخادمة لا تصلي .. وقامت لتصلي دون أن تقرأ غير
سورة الفاتحة والإخلاص .. لكنها .. قامت تركع وتسجد كما
إستطاعت .. وقامت سيدة البيت وصلت معها بصوت عال حتى
تعرف كيف تصلي .. وحفظت أم إبراهيم الفاتحة والإخلاص عن
ظهر قلب وتعلمت كيف تركع وتسجد ..

وفي صباح اليوم التالي وصل السيد صديق .. لما ذهب إلى
مكتبه وجد دحروج يرتدي ملابس القديمة .. وأمر العاملين في
شركته بربطه بالحبال في شجرة أمام الباب بالطريق العام .. وأخذ
خيرزانه في يده وطلع إليه وضربه علقه لم يتلقاها حمار في ساقية
.. ولم يفك رباطه من الشجرة وتركه حتى آخر اليوم .. وكان
دحروج يبكي ولم يجرؤ أحد من العاملين بالشركة على الإقتراب منه
.. غير أن واحداً من المارة هو الذي فك وثاقه .. ونزل إلى مأواه في

بدروم الشركة يعوي من الآلام في ظهره .. وعاد السيد إلى بيته في سيارته المرسيديس السوداء يقودها سائق حبشي يعمل حديثاً منذ أسبوع .. وكان السيد صديق يقول من حين لآخر والعربة تأخذ طريقها إلى بيته والسائق لا يفهم شيئاً :

- العبد سيظل عبداً .. لا يمكن أن يكون العبد سيداً .. لا يمكن أن يكون العبد سيداً .. العبد عبد .. والسيد سيد ..

وخاف السائق قليلاً من سيده .. غير أنه لما قهقه بصوت عال زال خوف السائق الحبشي واعتقد أن سيده حقق صفقة خلال اليوم ..

وما كاد صاحب البيت يدخل حتى دق الهاتف ولما رفعت السيدة حميدة السماعية إلى أذنها خفق قلبها بشدة .. لم يكن صوت الرجل الذي يتحدث إليها غريباً .. نعم إنه صوت رجل كان يعيش معهم في البيت .. يا إلهي إنه صوت سلامة .. وكان سلامة يكرّر وهو يتأسف .. أنا بخير يا سيدتي وأتمنى أن تكونوا بخير .. كيف حال الكريمة نيروز .. والله إنها العزيزة دائماً .. ولما شهقت السيدة من شدة المفاجأة .. قال لها .. سأعود يا سيدتي .. لن أستغني عنكم أبداً .. لقد ذهبت إلى كل المدينة وكنت أظن أن في الحي الفقير شيئاً يغنيني فوجدت الحي الفقير فقيراً في كل شيء حتى الناس هناك .. ان الناس هناك مثل البيوت الخربة وستظل خربة .. إن بيتكم عامر يا سيدتي ، وأعمر ما فيه نيروز بجمالها وصدقها وجرأتها .. فقالت له السيدة .. ولماذا لا تأتي إذاً .. إذا كان كلامك صدقاً ، وأخبرها أنه أت .. سوف يأت طواعية يقبل باب البيت الذي تقطن فيه نيروز .. وأسعد السيدة قوله هذا .. ولما قالت

له بأنّها ستخبر نيروز بذلك وافقها ولكنه رجاها ألا يحدثها الآن وطلب منها أن تصرف الرجال الخمسة الذين يبحثون عنه في المدينة لأنه سوف يأتي ويبصم بأصابعه الخمسة بأنهم أفضل بيت في المدينة لأن سيدة البيت تصلي ولم يجد هو حتى في تلك الأحياء الفقيرة والتي تحتاج إلى الصلاة .. لم يجد هناك امرأة تصلي .. وأخبرته بأن نيروز أصبحت تصلي .. وزاده ذلك إيماناً بالعودة وأنه سيتحمل كل إهانات أبيها من أجل امرأة مؤمنة .. وسعدت السيدة لذلك .. وهرول سلامة إلى أسامة محمد طبّاخ الفندق ليخبره بأن فتاة في المدينة تصلي وأن هذه هي الفتاة التي تريده ففغرفاء قائلاً:

- لا أصدق

- والله .. إنها نيروز والغرابة أنها تعيش في قصر وابنة واحد من أغنياء المدينة ..

- أتمنى أن تكون صلاتها لا رجعة فيها ..

- سوف أعود إليها في الغد لأتأكد من ذلك ..
وفحصه أسامة بعينه قائلاً :

- هل غيرت أهدافك .. أظن أنك تبحث عن المال فقط .. أعرف ذلك عن كل الكانين ..

- أصلي وأبحث عن المال وأعرف الله .. وأذهب إلى النساء لأتزوج منهن ..

- أنا أبحث عن المال وأصلي وأتقرب إلى الله فقط ..

- ولماذا لا تتزوج ثانية ؟

- في المرة الأولى تزوجت من امرأة كانت تصلي ولكنها كانت سليطة اللسان .. ولما كنت أعاملها بالحسنى فلم تكن تكف عن سبى وشتمى لأنفه الأسباب حتى أضربها ضرباً مبرحاً فتكف عن ذلك لشهر أو أكثر ثم تعود إلى خصلتها الأولى .. وإذا كانت كل امرأة تصلي وتشتم زوجها وتعيّره بفقره فإنه لا صلاة لها . وقلت لنفسى وأنا في كان إذا كانت المرأة التى تصلي تشتم زوجها فمابالك بالمرأة التى لا تصلي .. وطلقتها بالثلاثة وأحمد الله لم يكن لي منها أبناء لأن الأبناء قد يكونوا عائقاً لتطليقها .. ولو بحثت في كان أو في غيرها .. فإن كثيراً من الرجال يتحملون كثيراً من النساء من أجل الأولاد .. وهذا في حد ذاته مأساة .. وتركت كان وجئت إلى هنا لأتزوج من امرأة لا تعرف شيئاً عن الإيمان قصدت بذلك أن أجرب امرأة من الجانب الآخر .. فوجدتها أشد كفراً وضلالاً .. فماذا أفعل بعد ذلك ..

- لابد أن يكون لك شيء في الدنيا

- لي شقيقة تدعى رحاب تعيش في الدلتا أرسل لها نقوداً كل مدة لأعاونها على تربية أولادها أليس في ذلك شيء من الدنيا ..

- سلامة أقصد لك أنت

- أتركني وشأني .. هذا طريقي .. أعتقد أن ذلك عمل كبير في هذه الدنيا .. أنا رجل لا أحب أن أتفوه بالفاظ نابية .. وكنت أظن أن النساء كذلك .. إن نساء هذا العصر سافلات .. وطلبت من الله أن يعفو عني منهن .. وأحمد الله أنني تجنبت هذا الأذى ..

- وما رأيك في رجل يذهب إلى امرأة برجليه ؟

- كل واحد له طريقه ..

- أصالة المدينة كلها في الفتاة التي أذهب إليها ..

- عندما تزوجت في مدينتي .. وكانت من حي شعبي قديم .. في

يوم كنت أزور زميلاً لي بشارع باب الشعرية فوجدت فتاة عائدة

من عملها .. جميلة ورشيقة وبها فتنة رغم إرتدائها الحجاب ..

وفي لحظتها كانت تعبق في أنفي رائحة بخور وعطور تفوح من

حوانيت حواري وأزقة هذا الحي وقرب المساء كانت تمر نسيمات

باردة تحمل روائح ذكية وأخرى رائحة شحوم وخشب وكشري

.. وكلما زرت زميلي هذا امتلأت أحاسيسي ومشاعري بتلك

الروائح الغريبة والنفاذة ورأيت تلك الفتاة وهي عائدة من عملها

.. واعتقدت بقوة أنه لا توجد أصالة أكثر من ذلك .. لماذا لا

أتزوج من هذه الأصالة .. ولما تزوجتها وجدت أن رائحة

الحواري والأزقة والجوف في هذه الأحياء أقوى بكثير وله أثر

أصيل من النساء والناس التي تعيش فيه ..

- دعك من البخور والكشري ورائحة الخشب .. فليس هنا مثل هذه

الأشياء ..

- كثير من الوهم في رؤوس الرجال فلن يجدوا في المرأة أي

رومانسية أو معنويات .. دائماً يلتف بها لسان طويل وكثير من

المطالب المادية التافهة .. إن المرأة مهما كانت طيبة لن تأخذ

منها أي معنويات أو أدبيات .. انهن فقط خلقن لكي يلدن
 الأطفال ويقمن بتربيتهم ويطبخن ويفسلن وفي كل هذه الأعمال
 ثرائرات وكل واحدة منهن تتلفع بلسان يمتليء بالزفارة .. وكثير
 منهن يتفاخر بأنه يسب زوجه .. من أجل ذلك لم أذهب لأبحث
 عن الأصالة في الريف لأن رائحة الزراعة والخضرة بل رائحة
 الحيوانات أعظم أثراً وأشد أصالة بكثير من النساء والناس
 هناك .. وكانت هجرتي وبعدي عن النساء الغافلات والناس ..
 وبقي لي أن أساعد شقيقتي رحاب في تربية أولادها .. وأن
 أكون أكثر عمقاً في عبادتي لله وتقواه .. أما أنت فاذهب كما
 تريد ولكنك لن تجد شيئاً وستعود إلي في يوم وسوف أسمعك ..
 وضعت السيدة حميدة سماعة الهاتف واستدارت نحو غرفة
 نيروز فوجدتها نائمة وكتاب الله تحتضنه فوق فراشها وطرحت
 السيدة رأسها على صدر ابنتها تحتضنها في حنو والدموع تنسكب
 من عينيها فرحة وهي لا تصدق وقالت بصوت خفيض .. من يوم
 واحد يا إبنتي .. صليت يوماً واحداً وقرأت في كتاب الله فجاء
 الفرج .. يا إلهي .. وكانت نيروز نصف نائمة وشعرت بأن صدرها
 حنوناً ويداً رقيقة وأنفاساً دافئة تلفها .. وتمنت لو تظل هذه
 اللمسات .. وأخذت نفساً عميقاً واستدارت نحو أمها وأمسكت
 بيدها قائلة وهي ماتزال مغمضة العينين :
 - أشعر أنني في حلم جميل وأن شيئاً قوياً يمسك بي ويحميني وأيد
 حنونة تلامسني وتشفييني ..
 قالت الأم وهي تقترب من وجهها لتقبلها :

- هكذا يكون الله مع الناس حين يشكرونه ويعبدونه ..
وسكنت هنيئة وقالت وهي ماتزال تحتضنها :

- ماذا ستفعلين لو جاعك سلامة يا نيروز ..
فضغطت بأصابعها على يدها وقالت :

- يا أمي رجال خمسة في المدينة منذ أيام ويعودون بلا خبر ..
وكان رجلاً قد أبلغ الأم بأن واحداً في فندق السلام سيخبره
عنه .. ولم تكن قد أعلمت نيروز بذلك .. إنها تخاف على ابنتها من
أية مفاجأة .. فماذا لو أخبرتها بأن سلامة تكلم معها وأنه سوف
يأتي ويعود إليها .. كيف تمهد لها كل ذلك .. وانسحبت الأم منها
وقعدت على الأرض وقالت :

- يا عزيزتي افترضني حقاً بأنه سيعود .. ماذا سنفعل ..
وشعرت نيروز بأن أمها تضغط على حروف الكلمات وكأنها
متأكدة من أنه سيعود وقعدت وهي تمسك بالفراش وتشده فوقها
قائلة :

- كائنك متأكدة يا أمي ؟

- كل شيء جائز يا ابنتي

- يفضل أن نذهب بعيداً عن هذا القصر .. حتى لو ذهبنا إلى
مدينة أخرى ..

- والدك موقوفه غامض ولا يتكلم معي خاصة بعد مجيئه من السفر
.. إنه منصرف إلى عمله وكأنه يعيش في البيت وحده

- ربما علم بموضوع دحروج ..

- ألم تعلمي ؟ لقد ضربه ضرباً مبرحاً أمام الشركة .. وتركه وشأنه

عبداً بلا إصلاح ..

- لو ساعده دحروج على أن يكون سيداً لفعل ..

- لم لا تجيبيني بحق .. ماذا إذا جاء سلامة ؟

- سيكون ذلك مفاجأة وربما تصيبني الحمى من هول المفاجأة ..

ولكني سأفرح .. سأفرح يا أمي ..

وتشعر نيروز بشيء من الدوار .. كان فؤادها يمتليء
بالعواطف المتأججة نحوه .. ولا يستطيع أحد في الدنيا أن يجعلها
تتزوج من غير هذا الرجل ، وزاد حبها له في تلك الظلمة التي
عاشتها طيلة هذه الايام الفاتنة منذ غاب سلامة من حياتها ..
وقامت إلى النافذة وفتحتها ورأت المدينة مترامية الأطراف
واستنشقت هواء ملء رثيتها ..

وكانت الخادمة أم إبراهيم قد انتهت من إعداد طعام العشاء
لسيدها ولما إنتهى الرجل من طعامه نادى بصوت عال :

- يا نيروز .. يا نيروز ..

هكذا كان ينادي على زوجته لمعزة نيروز عنده .. وما زالت
عزيزة .. إنه منذ مدة لم يناد على زوجه .. إذاً قد يكون ذلك خيراً ..
هكذا استبشرت السيدة وهي تهوّل إليه .. وقال لها :

- إجلسي إجلسي .. منذ مدة لم نتحدث .. وأنت مازلت تحافظين
على هذا البعاد الذي طال ..

- هذه رغبتك وأنت الذي فعلت هذا في قسوتك على نيروز وهي
العالية عندك .. نحن جميعاً في البيت نحترم ما تقوله ونحاول
دائماً أن نفعل ما يسعدك .. حتى ..

- حتى .. ماذا ؟

- حتى رفضت رغبتها في الارتباط من سلامة .. بعد ذلك إنتشرت
في المدينة إشاعة دحروج .. وأنا صدقت هذه الإشاعة
بالتغيرات التي طرأت عليه من حلل وأحذية ونظافة و.. و..

- بعد ذلك عاد دحروج إلى سبيله .. وهل تصدّقيني في أنني كنت
أعد دحروج للزواج حقاً من .. كنت أريد أن أحاربها نفسياً حتى
تخضع وتقول .. وسكت ..

- ماذا تقول ؟

- تطلب أن أزوّجها رجلاً آخر من المدينة بدلاً من دحروج .. وفي
هذه الحالة تتحقق لنا أمنية كبيرة وتنسى سيرة الزواج من
الكاني الهارب ..

- هكذا كنت تفكر .. أقول لك في هدوء وأنت رجل البيت ولا نحب
نحن جميعاً إلا رفعة هذا البيت .. إن نيروز لن تتزوج من أي
رجل في المدينة .. وأنت تعرف لماذا ..

وكتمت السيدة غيظها وضغطت على الكلمات في حدة ..
قائلة .. فتاة في مثل نيروز لن تتزوج من رجل في عمر أبيها مهما
كان غنياً أو صاحب جاه وسلطان .. نيروز أجمل بناتي .. ستتزوج
من شاب تحبه ، ولم يقل أحد في الدنيا إن الرجل الغريب يعتبر
عبداً أو أقل درجة من العبد كما قلت من قبل .. وأنت رأيت سلامة
.. إن كل علامات وجهه وخصاله وأدبه .. تدل على أنه إنسان من
عائلة عريقة .. وحتى ولو اضطرت ظروفه في العاصمة قبل أن يأتي
أن يعمل بائعاً في محل للسّمك المشوي فهذا ليس عيباً .. العيب هو
العيب يا عزيزي ..

- يا عزيزي .. والله كلمة حلوة .. وقهقه بصوت عال .. وأردف يقول:

- وأين هو الآن ؟

- لا أعرف .. إذا كنت تريد مصلحة إبنتك بحق .. إبحث عنه ..
ألست عضواً بارزاً في الحزب والمخابرات .. وكل شيء .. رجلٌ
مثلك جدير به أن يفعل لأبنته كل شيء ..
- هكذا أنت انقلبت على كل رأسي ..

- أنا مازلت زوجتك وأحب كل شيء يسعد حياتنا .. فكيف ندفن
بناتنا مع رجال جاوزوا الخامسة والستين .. لم يعد في المدينة
شاب واحد .. لقد ماتوا جميعاً في الحرب وفي حربنا نحن مات
الكثير من قبل ومن بعد حرب إيران ماتوا في الجبال دفاعاً عن
حرية وحياة شعبنا الكردي المسكين .. وإذا وجدت شاباً فإنه من
الحي القديم الفقير المتهاك .. وسيموت كما مات الجميع .. إن
الثروة الحقيقية لأي أم أو أب أن يجدوا شاباً مثل سلامة لا يقع
تحت طائلة التجنيد بالجيش .. وليس كردياً له قضية يحارب من
أجلها في الجبال الوعرة ثم يموت .. إن بين أيدينا ثروة وأنت لا
تقدرها ..

- ولماذا لم يأخذه أحد غيرنا إذا كان حقيقة ثروة ؟

- ومن يعرف سلامة غيرنا ؟ إن المدينة كبيرة وهو مثل حبة القمح
ينوب وسط الآلاف من الناس ..

- دعيني أفكر .. دعيني .. وقام وقد تثاقلت رأسه من الحديث ..
- إذا صليت .. إذا قمت إلى الصلاة قبل أن تذهب إلى النوم ..
سيزيح الله الغفلة التي تعيش فيها ..
إلتفت إليها وكأن نحلة لدغته :
- هل تشتميني يا حميدة ؟

- لا والله .. إني أدعوك للحب الحقيقي .. فمن هذا الحب تضيء
قلوبنا نوراً وتذخر بيوتنا بالبهجة ..
وذهب الرجل إلى فراشه وهو يشعر بأن شيئاً يغيب عنه ..
وكان نومه قلقاً حتى الصباح .. وذهب إلى عمله دون أن يتناول
فطوره .. يعتريه الحزن والألم .. ونادى على دحروج في منتصف
النهار وأمره أن يذهب إلى البيت القديم لتنظيفه وأمهله مدة يومين
لينتهي من ذلك ..

ولما عاد من عمله في اليوم التالي .. كان هاجساً يقول له :
أنت مخطيء .. يبدو أنني لا أفهم هذه الأمور .. وصمم أن يقول
لزوجه حين يعود .. أنه لا يفهم في أمور البيت وعليها أن تفعل ما
تراه صالحاً لبناته .. وكانت زوجته سعيدة بذلك ولم تكن الدنيا
تسعها .. ولما أخبرها بأن دحروج ينظف البيت القديم .. وعليها أن
تفعل ما بهم نيروز ويسعدها .. تلعثمت السيدة وجرت إلى إبنتها
لكنها توقفت قليلاً ليكون الخبر خفيفاً عليها .. إنها تخاف عليها من
المفاجآت .. لكن الرجل مشى وراعاها دون أن تدري وفي لحظة ما
كانت تجلس بجوار نيروز مبتسمة كان الرجل يرتكن بذراعه على
باب الغرفة قائلاً :

- كيف حالك يا حبيبتي ؟

- أبي .. صحيح أنت تسأل عني .. وانهمرت دموعها ..
وتقدم الأب نحوها واحتضنها وأخذ يبكي .. ولما جفف دموعه
في كم قميصه كانت الخادمة أم ابراهيم تقف بجوارهم قائلة :

- مبروك يا سيدي مبروك يا ستي .. روح الله يبارك لك ..
وابتسم الرجل رغم بكائه .. وقال وهو يربت على كتفها ..
دخروج الخادم ينظف البيت القديم من أجلك .. ومشى حتى الباب
ثم التفت وهو يشوح بقبضته في الهواء :

- لتزوجي فيه من شئت ..
وحررت إليه نيروز .. تحتضنه بكتا يديها والرجل يشدها إليه
.. ثم أخذها إلى الصالة وهي مازالت تحتضنه وأجلسها على مقعد
وجلسست الأم وقعدت أم ابراهيم على الأرض بجوارها .. وجلس
الرجل قليلاً قبل التهن وقال :

- تزوجي من سلامة .. ماذا تريدي بعد ؟ وفي كل حال فأني أتمنى
لكل بناتي السعادة .. يبدو أنه أفضل رجل في المدينة .. كما
تشاعون .. كما تشاعون .. ثم انصرف إلى غرفته

زغردت أم ابراهيم شرفة .. زغردت وزغردت حتى وقعت من
الإجهاد ..

وكادت نيروز تفقد توازنها وجرت إلى بولابهاه كما لم تجر
من قبل .. تغني وتهتز برأسها كأنها ستبدأ الرقص .. ترتدي
فستاناً ثم تخلعه لترتدي آخر .. إنها سعادة بعد ألم وفرحة بعد
حزن ومرض .. إن شعوراً بحلاوة الأنوثة لا ينقطع ولا يوصف ..
سيعود إليها سلامة وتسمع الكلمات الرقيقة وترتدي الثياب الناعمة
.. وتذكرت كيف كان يحبها ويجلس على الأرض بجوارها .. كم

كانت تبتسم له هائمة وتنحني فوقه وتهمس له وقد لفها السكر ..
وهولت إلى أمها بالصالة بفستان عار رغم برودة الجو .. وكانت
الأم والخادمة أم إبراهيم شرفة تتحدثان في همس شديد .. كانت
السيدة تملّي ما تشتريه من السوق لشعورها بأن سلامة سوف
يأتي بين لحظة وأخرى .. ليكون الإحتفال كبيراً وهائلاً .. ثم صعدت
إلى غرفة بسنت وسميرة لتعلن عن فرحتها وسعادتها وشاركتها
سميرة في الرقص وهي لا تصدّق أن نيروز طريحة الفراش منذ
شهور طويلة .. ترقص وتغني وتصفق .. وكانت بسنت الصغيرة
تدق بيدها على خشب السرير حتى يكون للرقص إيقاع .. وغنت
بسنت أغنية .. سالمة يا سلامة هاتعود لنا بالسلامة ..

سالمة يا سلامة إرجع وعود ويانا

سالمة يا سلامة تعالى أرقص وياها

سالمة يا سلامة نيروز بتحب سلامة ..

وأخذن يرددن وراءها .. سالمة يا سلامة .. نيروز بتحب

سلامة ..

وبعد المغرب بقليل دق جرس الباب الكبير وهولت الخادمة
لتفتح للطارق .. فإذا به سلامة وانقلبت بسرعة إلى الداخل ووقفت
عند المدخل ولهت وصرخت بصوت عال فقابلتها أم إبراهيم قائلة ..
ماذا .. ماذا جرى ؟ فدفعتها بيدها .. ستي ستي .. سلامة ..
سلامة .. ولما سمعت السيدة لم تصدق وإنطلقت فرحتها من
صدرها .. ولم تكن تعرف الزغردة ولكنها زغردت .. وجرت نحو
الباب .. قائلة تعال يا سلامة أدخل يا بني والخادمة الصغيرة تندفع
نحو الباب لتفتحه على آخره وسلامة يتقدم مبتسماً نحو السيدة
التي رفعت يديها مرحبة واحتضنته وقبلته فسالت الدموع من عينيه

.. وقالت أم إبراهيم وهي تمسكه من ذراعه هل ترى معزة ستي لك .. أنت الغالي علينا جميعاً .. كيف تفارقنا يا سلامة .. ودخل سلامة وهو يمسك بذراع السيدة حميدة ويقول .. أنا أسف يا سيدتي .. أسف .. لم أكن أعرف أنني مهم لديكم .. ولم تستطع السيدة أن تمسك بالخادمة الصغيرة سعدية ابنة منصور .. لم تستطع أن تثنيها أو حتى تقول لها إنتظري لا تخبري نيروز الآن .. لكن سعدية كانت أسرع من عصفور يطير بين الشجر .. وإجتازت ردهة الطابق الثاني في ثوان حتى وصلت غرفتهن ودفعت الباب ثم وقعت قائلة .. إلحقيني يا ستي .. إلحقيني .. سلامة .. سلامة ..

- ماذا سلامة .. أين .. أين ؟

- تحت يا ستي .. تحت

ووقعت نيروز بين يدي سميرة على الأرض ولحقتها بسنت بقنينة العطر وأخذت تنثره على وجهها .. وأخذت سميرة تدعك بأصابعها في صدرها وجيدها .. حتى أفاقَت قليلاً .. ونزلت بسنت في ثوان لتجد سلامة بلحمه وشحمه جالساً في الصالة بين أمها وأم إبراهيم .. وانقلبت ووقعت هي الأخرى حتى وصلت إليهن لتؤكد أن ذلك حقيقة .. نعم إنه هو .. سلامة .. سلامة .. وأفاقَت نيروز على صوت بسنت فقالت وهي تحاول أن تتمالك أعصابها .. يا لهوي .. يا لهوي .. لا إله إلا الله .. ما هذا الخبر الذي نزل بي .. إن ذلك كثير علي .. وافق أبي بعد صلاتي ثم جاء سلامة .. وقالت بصوت عال .. لا إله إلا الله ..

- قومي يا نيروز وتماسكي .. لا تضيعي الوقت ..

وأمسكت بها حتى دخلت الحمام وعادت سميرة تفتش لأختها

عن فستان جميل ترتديه ..

لم تعد حياتها سقماً ولا مرضاً .. إنتهت الأكاذيب في بيتها ..
سوف أغلف حبي بجدران من حجارة .. إن بيتنا القديم سيكون
له أسوار عالية .. لن يخرج إلى المدينة والشوارع والحوانيت حتى لا
يذهب عني ثانية .. هكذا قررت أن تفعل وهي ذاهبة إليه وحولها
أختاها سميرة وبسنت وتتقدمهن الخادمة الصغيرة سعدية تزغرد
وتهلل وتغني .. وتقدم نحوها وهو يمد ذراعيه فدخلت بينهما وارتمت
في أحضانه .. وراحت النساء جميعهن في البكاء .. أما هي فلم
تعد قادرة أن تقف حتى في أحضانه وكادت تقع وحملها إلى المقعد
والدموع تسيل من عينيها كأنها نهر .. كانت تحتضنه بكلتا يديها
من رقبتة ولم تكن تقول شيئاً بل كانت دموعها وإندهاشة بهذا
الانفعال أقوى من أي كلام .. وأصر ألا يفارقها أبداً وأنه يجب أن
يموت من أجلها .. إنه يشعر للمرة الأولى أنه ليس غريباً عن هذا
المجتمع .. وأن في هذا القصر الكبير امرأة تحبه وتحبه .. بل إن
أهل هذا القصر جميعاً يحبونه ..

الفصل الثالث

ربما تعود إلى بيت أمها متأخرة كل ليلة .. تمضي طول اليوم في تجهيز بيتها الذي إشتراه الرجل الثري .. ولما علمت بوجود سلامة نائماً في غرفته القديمة التي كان يعيش فيها عند قدومهما من العاصمة فرحت كثيراً وذهبت إليه لتراه فوجدت فيروز بجواره تنام برأسها على صدره فانقلبت إلى غرفتها وقفلت الباب في هدوء قائلة وهي تقطع الردهة بقدمين قويتين :

- الحمد لله لقد رزق الله النساء بأزواج .. لم يعد غير سميرة وبسنت ..

وداحت في غرفتها تفكر كيف تكون زوجة لرجل في الخامسة والستين من العمر .. كيف تسعده بقدر ما جزاها .. بيت مثل متحف وأثاث وخادم وخادمة وسائق .. ثم نامت قبل إنتصاف الليل بقليل .. نامت وهي تحلم بأن تلد ولداً لرجل رزق بثلاث بنات من ثلاث زوجات .. ذلك خير جزاء من زوجة لزوج مثله .. ولما أيقنت أنها لن تستطيع ذلك إلا إذا أنعم الله عليها .. قامت وصلت ركعتين ودعت ربها أن يمن عليها ..

واتفقت السيدة حميدة وزوجها والبنات بما فيهن سميرة وبسنت أن يكون زواج فيروز وسلامة ، وربما وخليل الصغار في ليلة واحدة .. وبدأوا يهيئون لذلك .. وإنقضى الشتاء وهل شهر إبريل .. عكفت العجول وجيء بعشر نساء من الحي الفقير خصيصاً للتنقية الأرز واتفق مع مطعم كبير لتجهيز الولائم .. ومع الحلواني الذي يعد الحلوى والساقى الذي يجهز البارد .. وتم تجهيز قاعة الطعام

الكبيرة بثلاث مناخد كبيرة .. ودعى الرجل لقيفاً من قرية عامر
الاست هم أهله وعشيرته .. ودعوات لكبار المدينة محافظها ورئيس
البلدية وحكمدار الأمن وأمين الحزب ورئيس مخابرات المنطقة
الشمالية .. وفي أول مايو أعدّ صوان كبير في الجزء الواسع من
الحديقة الخالي من الأشجار .. وزين سور القصر وأشجار الحديقة
بلمبات ملونة زاهية .. وفي مغرب ليلة الفرح البهيج وصل المدعون
في عرباتهم الفاخرة وأقبل كثير من شباب الحي وفتياته الذين لم
يتجاوزوا السبعة عشرة ربيعاً .. وكانت السيارات مرصوصة في
شكل جميل في الشوارع الملاصقة للقصر .. وكانت هناك مجموعات
من عسكر الجيش وقادة من البوليس النظامي وحراس المدعين هنا
وهناك عند الأبواب وحول الصوان الكبير .. وكان السيد صديق
يقابل السادة المدعين .. ويجلس كل واحد منهم في مكانه الذي
أعدّ له .. وكان كثير من نساء هؤلاء السادة قد حضرن مع
أزواجهن ولكنهن جلسن في مكان مخصص لهن أيضاً والسيدة
حميدة فودة تقابل وترحب بهن وأجلست كل واحدة منهن في المكان
الذي يليق بها .. وكان العبد دحروج والعبد أبو حنة كوز والعبد
منصور وحظور وكثير من العبيد الطاعنين في السن جاؤا من
أحيائهم لخدمة الفرح الكبير .. يوزعون الطوفي والملبس الفاخر
والفستق واللوز على الضيوف الكبار والصغار وكانوا ينحنون في
شكل يروق للسادة فيغدقون عليهم بالنقود وكذلك فعلت النساء مع
العبيد الذين كانوا يكادون يقبلون أحذية نساء السادة فما كان من
أي واحدة منهن إلا أن تنقده ورقة مالية كبيرة .. وكانت هذه
المجموعات الكبيرة من الرجال والنساء التي تجمعت في الصوان
تزيد عن مائتين وخمسين مدعواً ومدعوة .. غير أن النساء كن أكثر

من الرجال .. وكانت هناك مجموعة من الرجال يرتدي الواحد منهم بنطالاً كالبالون وجاكتاً مفتوح الأزرار يقمن بالرقص الجماعي على المسرح الصغير الذي أعد لذلك ومجموعات من الشباب والفتيات يلتفون حولهم في مجموعات مختلفة ترقص وتغني وتصفق .. غير مجموعات أخرى تجلس وتغني وتصفق .. وكان العبيد من النساء - أم إبراهيم شرفة وسعدية بنت منصور وفتحية فراج وصبيحة ورجبية ونعسة وفتوح وغيرهن كثيرات يغنين أغنيات العبيد في أفراحهم ويزغردن .. وكان البيت من الداخل يمتليء بالنسوة أكثرهن فتيات جميلات في أحلى زينة يعيونهن الحكيلة وشعورهن المنسدلة على الاكتاف ، وكانت رائحة القصر وكأن موجات الهواء الربيعي حملت به من فوق الجبل .. وكان ثوب نيروز طويلاً عاري الاكتاف والصدر وشعرها ينسدل فوق ظهرها أسود ناعماً .. وسلامة يحتضنها برفق ويمسك بيدها بين كل مجموعة تتصور معهم .. يمشيان على مهل مخترقين المساحات الضيقة بين الناس حتى خرجا من باب القصر قاصدين مكانهما وسط الصوان الكبير .. وعلت النساء بالغناء وكان مجموعة من طيور البلبل ترفرف فوق رأسيهما وتغرّد بصوتها الجميل .. وبلغ الرقص والغناء مداه وكانت كل مجموعة تحاول أن تقترب من العروس والعريس .. يتمايلن بعنف وقوة يمنة ويسرة للخلف والأمام .. كل الأجساد تندفع وتهتز وتصرخ .. وكانت الصرخات قوية تملأ وعاءً تمتزج فيه الرغبة والفرحة والشباب .. وكان بعض النساء يتصرفن بلا حياء وعفوية خاصة تلك الفتيات التي جاءت من الأحياء الفقيرة .. وكان عازفوا الآلات الموسيقية قد بدأوا يدخلون في جماعات .. كل جماعة تمسك بالآتها وتضرب عليها ألحاناً جميلة .. وكان العريس يرتدي حلة

رمادية .. وحملت فتاة جميلة علبة مملوءة بالذهب ووقفت بجواره وأخذ العريس يهدي عروسه قطعة بعد أخرى في يديها وجيدها وأصابعها وأذنها .. لبث أكثر من ساعة يهديها وشهقت النسوة .. كل هذا الثراء .. لم يحدث لعروس من قبل .. وهذا الرجل شباب ووجاهة وقوة .. وهذا القصر وهذا الفرح البهيج .. كل هذا لنيروز .. هكذا شهقت النسوة .. وكانت نيروز تخجل من كل كلمة ثناء أو قبلة من امرأة أو فتاة .. تبتسم وتهز رأسها وتتفرج أساريرها وفي رقة تلوح بين الحين والحين لمجموعات تحيها هنا وهناك ..

وفي الجانب الآخر من الصوان كان يجلس بالحديقة كثير من النساء والفتيات والأطفال جاؤا من الحي الفقير بأطباقهم وأوعيتهم لأخذ نصيبهم من طعام الفرح .. وكان يقف أمام أحد أبواب القصر الخلفية عربة محملة بعجول البقر المملوءة وكان الجزار يأخذ واحداً منها بعد الآخر حيث جاءت مجموعة أخرى من الطهاة إلى البيت لتساعد بالمطبخ الذي يقوم بالمهمة .. ولما وجد السيد صديق أن أهل الحي الفقير يتشاجرون ويصرخون بالحديقة وضجيجهم يصل لأهل الصوان .. دخل إلى رئيس الطهاة وأمره بتوزيع مقدار كيلو من اللحم مع الأرز والخبز لكل فرد منهم .. وكان الضجيج عالياً عندما بدأ التوزيع عليهم .. وكانت رباب وأمها من هؤلاء القوم فأخذن نصيبهن وانصرفن دون أن يذهبن للصوان للفرجة كما فعل آخرون .. وكان السيد صديق يجلس مع علية القوم يرتدي شالاً من الحرير فوق رأسه ويدير الحفل من مقعده ويلبس حلة خضراء زاهية .. وأحياناً أخرى يقوم ويتمشى بين الناس ويصافحهم ويشكرهم ويقبلهم ويقبلونه ثم يعود إلى مقعده وسط الحكمدار والمحافظ ورئيس الحزب وغيرهم .. أما سميرة وبسنت وفتاة أخرى قريبة لهم

.. فكن يجرين هنا وهناك فرحات مهلات يرتدين ملابس حريرية زاهية جميلة .. ولم تكن ربما سعيدة ولم تكن أيضاً تعيسة .. ولكن كان هنا شيء يقبض على صدرها .. وحاولت أن تفعل شيئاً تعبر به عن مدى سعادتها في فرح أختها .. فقامت بصعوبة وسط مجموعة من النساء .. وحاولن إختراق الصفوف ليصلن إلى نيروز .. وهناك قبلتها قبل كل النساء واحتضنتها بقوة .. ولم تستطع أن تمسك بدموعها التي انهمرت من عينيها بغزارة ولما قدمت يدها لسلامة لتصافحه كادت تقع لولا أن أمها أخذتها بين ذراعيها .. ولما عادت إلى مقعدها جلست قليلاً .. ثم دخلت البيت وضعدت إلى غرفتها وانطرحت في السرير على بطنها ودفنت رأسها في الوسادة وراحت تبكي بشدة .. كانت تشعر بخسرة .. فليس هناك ألماً من هذا الشعور التي أحست به وأخذت تضرب بيديها الفراش ولما حاولت أن تقوم لم تستطع وأدركتها أمها وارتمت فوقها فلم تستطع أن تنبئها عن إنفعالها .. لقد خيل إليها أنها تسمع صوت برق ورعد ورياح عاتية .. ولم تنبس الأم بكلمة عندما وجدت أنها لن تغلح في أخذها إلى الحفل .. لقد كانت الأم تشدها من ملابسها .. قائلة .. مالك يا إبنتي ؟ هل ضايقتك أحد ؟ ماذا يا ربما .. قولي يا حبيبتي .. لكن ربما كانت تدفعها بيدها .. كانت تدفعها بقوة وباليدين الأخرى تضرب سريرها .. ونزلت الأم تجتاز الدرج إلى أقرب باب للحديقة فإذا بها ترى شيخ ربما يقابلها في لهفة قائلاً :

- ماذا بها ؟ ماذا بها ؟

- تعبانة ..

- هل آتي بالطبيب ..

- لا .. لا .. تعال .. الأمر بسيط إنها في حاجة إلى قليل من النوم ..

- هل سهرت بالأمس

- نحن جميعاً سهرنا بالأمس .. إنها في حاجة إلى النوم .. تعال يا رجل وشاركنا في فرحنا ..

وعاد الرجل ليجلس في أطراف عليّة القوم .. وجاءه السيد صديق ورحب به وسأله عن فرحه فأخبره بأن البيت قد تم الانتهاء من تجهيزه وما زال قليل من الوقت للإنتهاء من تشطيب الأثاث .. ومضت ساعة ثم تعالت الأصوات بالغناء وارتفع صوت الموسيقى وزاد الناس جميعاً في صخبهم ورقصهم وصراخهم .. بعد ذلك قدمت الموائد وعليها الدجاج والبط ولحم البقر والماعز منها المطبوخ والمقلي والمشوي وكانت أطباق الفتة والبرغل كبيرة في شكل القوارب وعلى زوايا الموائد وضعت أطباق الحلوى وأخرى للفاكهة .. ودخلت جماعة بعد أخرى رجال ونساء وأطفال .. كانت جماعات كثيرة تزيد على ثلاثمائة .. وبعد الإنتهاء من الوليمة كانت هناك جماعات كثيرة من المدعوين تتجول حول البيت وداخل الحديقة وفي شوارع من الحي متاخمة لسور القصر .. ولما عابوا جماعة بعد الأخرى قدمت القهوة والشاي فأعادت النشاط للبطون الممتلئة .. بعد ذلك بدأت الجماعات تغني وتصفق وجماعات أخرى تهتف باسم العريس والعروس اللذين بدءا يمران على هذه الجماعات يشكرانها على حضورهم ويصافحانهم .. ثم تبادل الجميع في جماعات وفرادى الحكايات والنكات .. ولما بدأ الليل ينتصف بدأوا يرحلون جماعة بعد أخرى .. ثم أمسك العريس بخصر عروسه والتف حولهم

الأهل والأقارب ودخلوا البيت .. ثم إنصرف الأقارب بعد ذلك .. وعندما كان ركب العروس يتحرك من أمام القصر إلى البيت القديم كانت ربما تسمع أصواتهم وتتلوى على فراشها .. كانت تتظاهر بأنها نائمة وغارقة في الأحلام وتصور أنها في عربة مرسيدس بيضاء طويلة مثل عربات القطار تزف إلى زوجها في بلاد بعيدة جداً عن هذه المدينة بلاد لا ترى فيها أحداً حتى أمها .. تريد أن تعيش كما كانت .. ولما أيقنت أن البيت المتحف الذي أعده الرجل في تلك المدينة قررت أن تدخل فيه في أقرب وقت .. وكان البيت القديم جميلاً .. وهو قصر أثري به حديقة مستديرة تقع في نهايتها سياج من الخشب يفصلها عن قطعة أرض صغيرة كانت مزروعة بالشعير يأكل منها مهرة صاحب البيت أيام كانت المهرة مثل سيارة مرسيدس .. والآن عادت تلك الأرض جرداء .. وكانت حيطان البيت مرتفعة والأسقف كذلك فان ثمة تجهيزات كبيرة عملت لتجعل منه قصر مزيناً .. وانتقلت تخدمها من البيت الكبير سعدية بنت منصور وظل العبد دحروج عبداً للبيت وأصرّت نيروز أن يكون عبداً لها عندما سألها أبوها عن تغييره .. وأخرج لها من جراج شركته عربة مرسيدس قديمة وعين لها سائقاً سودانياً .. وقعد سلامة عريساً لا يخرج من البيت أسبوعين كاملين .. وكانت نيروز تصر على أن يظل أبداً في البيت خوفاً عليه .. وهاتفه أبوها في يوم قائلاً:

- يا سيد سلامة لا تذهب بعد إلى فندق السلام .. لقد عينتك مديراً لفرع الشركة ..

واندهش سلامة .. من كان يعتبره من درجة أقل من العبيد .. غيره فجأة إلى سيد .. ومن شدة المفاجأة قال سلامة :

- هذا كثير علي يا سيدي ..

- لا تقل يا سيدي أنت من الآن إبني .. من الآن يا بني .. قل يا عمي ..

- يا عمي .. إن ما فعلتموه كثير من أجلي .. يا عمي بارك فيك ..
- لقد فعلنا كل ذلك من أجل إبتتنا .. وإذا كانت سعادتها معك
فلا بد أن نعمل لها الدنيا تحت قدميها .. وكانت الدنيا لك هذا
حظك يا بني ..

- نيروز هي عمري كله .. لقد كافأني الله بها .. سأقديها بحياتي ..
وسعد الرجل بذلك وأخبره بأن السائق ثروت سيأخذه إلى
الشركة في الصباح ..

وارتسم على وجه نيروز نظرة هي وليدة السعادة لما أخبرها
سلامة بذلك .. وبدت أجمل مما كانت واحتضنته وجرت به في
أرجاء البيت ونزلت وحدها تجري في الحديقة ونادت على دحروج
وأمرته أن يهرول أمامها وقطعت فرعاً من شجرة الصفصاف وكلما
لحقت به ضربته على ظهره .. وكان دحروج يجري ويضحك وهي
تضربه بقوة .. نادى عليها سلامة من النافذة بأن تكف عن ذلك ..
ولكنها قالت له اتركني إنه عبدي وأنا سعيدة .. دعني يا سلامة
ألست سعيداً مثلي تعال واضرب سعدية بنت منصور مثلي .. لماذا
لا نسعد يا سلامة .. وتركها ونادى على سعدية قائلاً :

- إذهبي إلى سيدتك بالحديقة وأخبريها بأنني أريدها ..

غير أنه عاد إلى فراشه وجلس يقرأ في كتاب الله وترك أمر
زوجته تفعل ما تريد على أن يناقشها فيما بعد .. ولما كان يفرغ من

القراءة قام إلى الراديو وفتح فسمع كلاماً لم يفهمه فقف المذيع وأدار شريطاً للقرآن .. وجاءت زوجته فرحة سعيدة منهكة من الجري وراء العبد .. وقعدت بجواره واحتضنته قائلة .. لا تتدهش .. عندما أكون سعيدة فأني أفعل ذلك مع العبد وعندما أكون حزينة فأني أبصق في وجهه .. غير أن سلامة أمسك بيدها وأبعدها ثم قام يتمشى نحو الباب وقال :

- بالله عليك ألا تتدبرين كتاب الله .. ألا تسمعين .. كل كلمة فيه

تدعو إلى الحسنى والخلق الكريم ..

وذهبت إليه تمسك به :

- ولكني .. ولكني أصلي .. أعرف .. أعرف

- وبماذا تفيد الصلاة إذا قمنا بضرب الخدم والبصق في

وجوههم ..

- ولكني تعودت على ذلك منذ صغري .. عودنا أبي على ذلك حتى

نكون أسياداً .. فهذه أحد الفروق بين السيد والعبد ..

- للأسف إنه مفهوم سائد في هذا الشرق والعلاج الوحيد لهذه

العادات السيئة هي تدبر كلام الله العظيم وأخلاق رسوله الكريم

.. إذا دخل القرآن بمعانيه العظيمة إلى القلب لتغيرت كل هذه

العادات السيئة والشاذة في حياتنا .. بل أضيف إلى حياتنا

معاني أخرى أعظم .. إن كل الأديان تدعو إلى هذه القيم

فالتوراة والإنجيل وموسى وعيسى وكل الأنبياء تدعو إلى

البصيرة والعدل والاحسان وإذا تدبر كل منا دينه لساد العدل

والخير بين الناس .

- خذني واحدة بعد أخرى .. فأننا لا أستطيع أن أصل إلى تلك المفاهيم الجديد مرة واحدة ..

- قولي المفاهيم الحقيقية الرصينة .. لا يوجد في هذه المدينة إلا الغنى .. كثير جداً من الطعام والمال حتى في ذلك الحي الفقير .. إن الناس تندفع بشراهة فظيعة إلى المادة .. كل معاني المادة .. لا تجد في قلوب الناس إلا الدرهم والدنيا وفي عقولهم ناراً تتأجج لهباً إلى تلك الحياة .. الحياة المجردة من أي قيمة .. ممكن أن تضفي إلى حياتنا ولو قليل من الحب والعدل والإخاء .. لكن صدقيني لا بد من هذه القيم حتى تستوي الحياة .. وسكت برهة واقترب منها ثم قال :

- في مدينتي الغني يتعامل مع الفقير بعنف وإذلال وهو بذلك يدفع الفقير إلى الكفر .. ولكن كثيراً من الفقراء يدخلون أكثر إلى دوائر الإيمان وقليل يكفرون .. والغني في إمكانه أن يكون رسولاً إذا عامل الفقير باحسان وأدب .. فالذين يدخلون إلى دوائر الفقر كثيرون في مدينتي في كل يوم .. ولكنهم يدخلون وهم عرايا إلى المساجد والكنائس فيظلمهم الله بكرمه ولما يخرجون يجدون الأغنياء على ملأ فئتهم فيعودون مرة أخرى إلى دور العبادة ولما يخرجون فلا يجدون أيدي الأغنياء تمتد إليهم إلا بالفتات .. ولما يأخذون الفتات إلى أكواخهم وعششهم فلا يكفي بطون أطفالهم .. فيخرج الأطفال إلى الشوارع يتسولون والشباب يسرقون والنساء والفتيان ينحرفن .. وتمتليء القاعدة

العريضة بكل أنواع الفقر والكفر .. فما هي رسالة الغني ..
قولي بالله .. هل توجد في تلك الحياة رسالة ..
وذهب إلى النافذة كرهة أخرى فوجد العبد دحروج يبكي وزعق
فيه قائلاً :

- لماذا تبكي ؟

- أقول لك يا سيدي على ألا تخبر سيدتي حتى لا تقسو عليّ
أكثر ..

- قل يا دحروج بالله سأعالج الأمر ..

- ضربتني بقسوة شديدة على وجهي حتى سال الدم منه ..
فوضع سلامة يده على رأسه وكأنه يربت عليها ويعتذر
لدحروج وقال بصوت خفيض :

- معلش .. معلش ..

ولما قامت إليه تحتضنه من الخلف أمسكها من ذراعها وقال:

- هل ضربت العبد على وجهه ؟

- حتى سالت الدماء منه .. ولما سالت بلغت قمة فرحي ..

- وأنا بلغت قمة حزني .. والله إني حزين ..

- وهل تحزن من أجل العبد ؟

- أنا واحد من العبيد وهو مثلي .. وأنت واحدة من العبيد ..

- لا أنا واحدة من السادة ..

- إذا كان العبيد هم الفقراء فالله سبحانه وتعالى قادر أن يمحق
الأغنياء في لحظة فيصيروا عبيداً .. فماذا لو أصابك هذا المحق

وعدت فقيرة .. هل تقبلين أن يضربك سيدك بالسوط أو ييصبق في وجهك ..

- لا .. لا .. لا تقل ذلك .. إن الأمور لن تتغير أبداً ..

- هذا نوع من الكفر .. بل إنه الكفر بعينه .. وأنا مستحيل أن أستمر في تلك المدينة وأنت كذلك .. لقد هجرت مدينتي خوفاً من الفقر والكفر فوجدت مدينتك أشد كفراً .. وما زال الفقر يملؤها .. صحيح بيوت الحي الفقير مملوءة بالزبد واللحم من بيوت الأغنياء .. ولكن كل بيوت المدينة فقيرة .. والله إن بيوت المدينة فقيرة الفقر الحقيقي .. إن الفقر الحقيقي هو قصور العقل والجري وراء الماديات .. إن فقر هذه المدينة في قلة إيمانها .. ومن يوم أن رأيت الرجلين الصالحين كما يقولون عنهما يعربدان في المدينة فقلت على هذه المدينة السلام ..

- ما تقوله غريب وما سمعت عنه أبداً . لقد صليت وأتاني الله بما كنت أبحث عنه ومازلت أصلي .. وقل لي ماذا أفعل بعد ذلك ؟
- هناك الكثير .. إقرأ أي كتاب الله أولاً وبعد ذلك سوف تفعلين الكثير ..

- ولكني لا أراك شيخاً ولا قسيساً فكيف تأتي بهذا الكلام ؟
- قلت لك إنني هجرت مدينتي خوفاً من الفقر والكفر وجئت أبحث عن حياة أختارها لنفسني بين الفقر والغنى وبعيدة عن الكفر .. فوجدت كفراً أشد وبعدت عن الفقر قليلاً .. وأعيش في بيت ليس

بيتي وأعتقد أنه طالما بقى شبابي ورجولتي فإنك ستقولين عني
إني سيد .. ولكني أسألك الآن وأجيبني .. ماذا لو ذهبت عني
صحتي ورجولتي .. فهل تقبليني بعد ذلك عبداً في بيتك ؟
فصرخت قائلة : ومن قال إن ذلك سيذهب .. إنه لن يذهب أبداً ..
- ألم أقل لك إن هذه المدينة أشد كفراً ..

واستأذنها أن يتمشى وحده في شوارع المدينة فلم تسمح له
خوفاً من أن يتيه مرة أخرى أو تأخذه امرأة وأخبرته كيف يتمشى
وهي زوجته .. هل أنادي على السائق لنتنزه في المدينة إذا شئت
في أي وقت تأمر .. هكذا قالت له .. فلم تكن نيروز تعرف أن المشي
في الشوارع هي عادة الكانين حينما يهيمنون في الشوارع بحثاً
عن أي شيء .. وسكن يأس من نوع جديد في قلبه ولا سبيل
لتفسيره الآن حيث أخفق في النهاية ..

وكانت نيروز منذ هذه اللحظة غير جديرة بحبه .. لقد تزوج
جسد امرأة تحبه بعقلها المادي الموروث .. ولقد كان يريد لها عقلاً
متفتحاً ثم جسداً ولم يكن يدرك أن الموروث فيها كثير وكبير إلى
هذا الحد ..

وفي الصباح حين كان يرتدي ملابسه للذهاب إلى فرع
الشركة التي يملكها والدها .. فمنعته من الذهاب حيث قالت له :
- هناك امرأة جميلة تعمل في هذه الشركة سوف أخبر والدي
بفصلها أولاً ثم تذهب إلى هناك لتعمل مع الرجال فقط .. ممنوع
النساء في هذا الفرع ..

ولما هاتفت والدها وافقها على ذلك والحق المرأة بفرع آخر ..

ولا توجد امرأة فقيرة إلا وحكمت .. ولا توجد امرأة غنية إلا حكمت وأذلت ..

وأول ما تتحكم فيه المرأة زوجها .. إنها تحاول وتحاول وعندما تفشل فإنها تجن أو تشذ أو تجعل زوجها مجرمًا ..
إن عقل المرأة صغير مهما كان كبيراً .. وعلى عقل الرجل ألا يخضع له .. ولكن الرجال الذين يخضعون كثيرون وعليه فإنهم يستحقون ما يجري عليهم بعد ذلك ..

إذا كان الهروب من الفقر يوقع الرجال تحت حكم النساء فكيف يفعل الرجال حين ذلك ؟ هل يعوبون إلى الفقر ؟؟
وإذا كان الهروب من الفقر يوقع الرجال في دائرة شديدة من الكفر .. فهل يعود الرجال إلى الفقر هرباً من الكفر ؟
إن مدينة أشد كفرة أفضل للإنسان أن يعود إلى مدينة أشد فقراً ..

إن مدينة شديدة في الفقر خير من مدينة شديدة في الكفر ولو كان فيها ملء الشوارع ذهباً ..

إن زوجة جميلة تملك قصراً وزوجة فقيرة تعاير زوجها بالفقر .. وامرأة فقيرة تبحث عن الغنى بالحلال وامرأة فقيرة تبحث عن الغنى بالزنا .. ورجلاً يبحث عن الحقيقة يتوقف عند كل منحني فلا يجد حقيقة حتى في تلك الأحياء الفقيرة .. ولماذا يبحث عن الحقيقة إذا كان الرجلان الصالحين ينغمسان في الرذيلة .. وأي معنى للحياة إذا كان المال والطعام والبغي هو كل شيء .. فهل ضلّ الناس جميعاً ؟ هل تلوّث كل المدن ؟ ألا توجد مدينة واحدة في هذا العالم أذهب إليها ؟ أهنالك حرية حقيقية في مدينة ما ؟ وهل هناك أحرار ؟ ولماذا لا يتجمع هؤلاء الأحرار في مدينة واحدة ؟ أم أنهم

فضلوا أن يذهب كل واحد منهم إلى مدينة ليحررها .. وتركوا
المدينة الواحدة للحرية خالية ..

هكذا قال سلامة لنفسه وتساءل وهو يجلس على مكتب فخم
رئيساً جديداً للشركة بعد أن ذهبت عنها المرأة الجميلة ..

وأرجعته هذه الكلمات إلى الماضي البعيد ، ولم يكن من
السهل أن يعود إليه وأن عليه أن يستمر في هذه المدينة .. إن
ملاقاة الكفر أهون من ملاقاته الفقر والكفر معاً .. ولما كان في
ميسوره أن يتكلم مع زوجته بحرية مستغلاً حبها له فذلك بعض من
الحرية وشيء ليس بقليل من السيادة ، ومرة الأيام فيها يذهب إلى
عمله يأمر وينهي وفي البيت كذلك ، ولما كان المال كثيراً بين يديه
كانت نيروز تقول له خذ منه ما شئت ، وفي يوم فكر أن يحتفظ
ببعض منه في أحد البنوك .. ولم يعجبه أن يضع المال في أي بنك
في المدينة .. لكنه فضل أن يذهب إلى مصاليا ليضع المال هناك
كلما توفر .. وفي يوم ذهب به السائق إلى هناك حيث أودع حقيبة
مملوءة بالدراهم في بنك يملكه شخص يدعى محمد خيرى ، ولما
كان يخرج من المدينة التي تتوسط المسافة بين العاصمة والمدينة
الشمالية التي يعيش فيها .. كان شيء في داخله ينبض يربطه بهذه
المدينة وكان لديه مشاعر قوية بأن يعود إلى تلك المدينة ولا يخرج
منها .. وساعد سلامة في الذهاب إلى مدينة مصاليا كثيراً قول
نيروز له .. إن هذه المدينة أكثر أماناً وهي مدينة تجارية وكل الناس
في هذه البلاد يودعون أموالهم فيها .. قالت له مراراً خذ من المال
ما شئت فأنت كل شيء في حياتي وإبنك يتحرك في أحشائي
والمستقبل له .. غير أنها كانت تحذره من أن يعود إلي كان وحتى
مجرد أن يفكر فيها .. غير أنه في يوم قال لها :

- بالله عليك أنت زوجتي ولا تعرفين إسم أمي ولا حتى إسم عائلتي .. صدّقيني أليس هذا أمراً غريباً ..
- دنياك وحبي لك ينسيني العالم كله ..
- منبتي .. الأرض التي خرجت منها جدير بك أن تعرفني شيئاً عنها ..
- أعذرنِي يا سلامة .. قل لي عن أمك ..
- أمي إسمها مأمعة وكانوا يدللونها ويقولوا لها جل الخالق ..
- يعني إيه مأمعة ؟
- يضحك سلامة ويقول :
- مأمعة يا بامية .. لما ولدتها أمها السيدة شلبية الشيخ وجدت وجهها جميلاً مهنداً .. فدعتها مأمعة .. يعني مهندمة نظيفة رائعة ..
- ضحكت نيروز وقالت :
- وكانت جميلة .. بالتأكيد وفاتنة ..
- وكيف عرفت أنها جميلة ..
- لأن الجمال لا ينبت إلا من الجمال
- نعم كانت جميلة في أخلاقها وسلوكها قبل جمال خلقها
- ولماذا دُلّعوها بجل الخالق ..
- قلت لك إن أفعالها وكفاحها وخلقها جعل الناس يقولون عنها ..
- جل الخالق .. يعني سبجان الذي خلق ..
- وماذا عن أبيك

- كان أبي رجلاً ميسور الحال تزوج أمي من أجل أن تأتي له
بولد ..

- تأتي له بولد ..

- تزوج أبي قبل من امرأة تدعى لبيبة درويش وهي قريبة له .. مات
له منها عشرة أبناء في عمر شهرين إلى ستة شهور لمرض في
الدم وذلك لصلة القرابة الشديدة بينهما ..

- ولما جاءت أمك عاش الأبناء ..

- كثيرون عاشوا .. ولكن أمي انصرفت عنه وتفرغت لأبنائها فكان
يحب لبيبة لأنها تعامله معاملة طيبة كإمرأة .. وكانت أمي
تصرفه عنها بقولها .. عيب يا رجل لقد جاء الأولاد والبنت ..
إذهب إليها .. الأولاد كبروا .. ولما كبرنا كان أبي يقول لي أمك
لا تحب الرجال وهي ترفس بالأربعة كالجاموسة ..

وضحكت نيروز وضحك سلامة كثيراً وأصرت نيروز أن يدعو
أمه وأباه لزيارة هذه البلاد .. غير أن سلامة قال وهو يستبعد هذا
الأمر .. إنهم لا يستطيعون الذهاب إلى أي مكان الآن .. حتى ولو
كان هذا المكان كفر شنشورة ..

ومرت الأيام فيها ترسل السيدة حميدة فودة كل ما لذ وطاب
من قصرها إلى قصر إبنتها نيروز ولم تكن الخادمة سعدية بنت
منصور تطبخ وتقوم فقط بتسخين الطعام وتقديمه للسيدة نيروز
وزوجها سلامة .. وكانت سعدية تنام في بدroom البيت وفوقها ينام
العبد دحروج في غرفة صغيرة بالدور الذي يعلو البدroom .. ولما كان
دحروج يحب النوم فقد تعودت سعدية أن تذهب إليه وهي تنزل إلى

غرفتها لتضربه على رأسه قائلة :

- انت نمت يا مضروب .. دا انت البعيد حمار ..

وتذهب لتنام في غرفتها الباردة قلقة ساهدة تفكر في رجل
يدفيء فراشها ولم تكن تجد رجلاً غير دحروج .. وكانت تلغنه بعد
أرقها وتقول حظي .. حتى العبد لا يدري بي .. حظي ..
مرت أيام كان فيها سلامة حديث المدينة .. بل بطل المدينة ..
شاب كاني يتزوج من السادة .. أجمل الجميلات تعشقه وتحبه ..
وهكذا أصبح وجيهاً ومن عليّة القوم وجاءه الثراء يلهث تحت قدميه
.. وكان الجيران يعرفون موعد ذهابه إلى عمله فيقفون بالنوافذ
يتلصصون عليه .. حتى الرجال يحسدونه والنساء يستكثرونه عليها
.. وكانت أقوالهم .. مال وجمال .. من أين جاء هذا الوجيه .. هل
تستحق نيروز كل ذلك .. لماذا تزوجت من هذا الكاني .. هل إقترف
شيئاً معها ثم زوجوه .. كان يعمل في فندق السلام ومرة واحدة
رئيس شركة وزوج هذا الجمال وصاحب هذا القصر وعبد وخدم ..
يا إلهي .. وكان الخدم من النساء اللاتي يخدمن في بيوت الجيران
بل ومن أقصى المدينة يأتون إليها ليحكوا لها الأخبار وما يقوله
أسيادهم من رجال ونساء عن حكاية نيروز مع الرجل الكاني ..
وكان هؤلاء الفجر يلففون في حكاياتهم وبيالغون فيها حتى تكون
عطايا السيدة عليهم مغدقة .. وكانت الحياة بكل ملابساتها ولم يكن
أحد في المدينة أو الدنيا يستطيع أن ينفي أو يسكن الحب من فؤاد
نيروز لسلامة .. تحبه ملء حصى الأرض وهو يحبها ويتفنن في
حبّها .. وكان يصلي ويدعو الله بدوام النعمة عليه .. ويقول له ..
والله يا ربي هذا كثير علي .. ولا أعرف ماذا أفعل بكل هذه النعم

التي حطت علي؟ ولم يكن هناك أي شيء يبعث على أي يأس أو
ضجر .. لقد ذهب الفقر وذهب الكفر إلا بقية من هذا الأخير مازال
في معتقدات وأفكار زوجته وأنه لا يستطيع بين ليلة وضحاها أن
يمحوه .. وكانت نيروز تغار عليه من الهواء وتخاف أن يذهب ولا
يعود لكن ما كان يطمئنها أن طفلها بدأ ينكش في بطنها وكانت
تطمئنه عليه وحاولت أمها كتم الخبر عن الناس لكن الخدم نشروا
الخبر في المدينة كلها .. ورغم حملها فكانت جميلة ذات براعات
ساطعة في وجهها وجسدها البض .. لكن عقلها به بعض السقم
نتيجة تلك الأفكار البالية التي كانت تعيشها وكان على سلامة الذي
يدرك ذلك تماماً كان عليه أن يطهر كل ما في بيته .. ولم يكن هناك
غير الصلاة وقراءة القرآن وسماعه حتى إنه في يوم كانت نيروز
قارئة دائمة لكتاب الله وسماعه في الصباح والظهر والمساء .. وكان
سلامة يقول لها أن هذا الطريق للعلاج في هذه الدنيا وأن الآخرة
ستكون عماراً بهذا العمار .. وكان سلامة يتعجب كيف تأتي هذه
العاطفة وهذه المودة من امرأة تربت في بيئة غريبة .. كيف تستسلم
له امرأة غنية ذات مال وجاه لرجل لا يملك شيئاً .. لقد إستسلمت
له وجعلت منه ملكاً وسلطاناً .. تزوجت ربما من رجل يكبرها
بثلاثين عاماً وكانت حديقة المتحف الذي تعيش فيه ربما مستديرة
يقع في نهايتها سياج من الخشب يفصلها عن قطعة أرض مزروعة
بالشعير وحيطان البيت عالية والنوافذ مرتفعة والأسقف شاهقة ..
فإن ثمة تجهيزات قامت بها ربما لتجعل من بيتها قصراً مزيئاً ..
وكان زوجها الشيخ ويدعى خليل الصغار يقول لها دائماً .. أين كنت
من زمن بعيد .. فتقول له كنت في قصر بالعاصمة متزوجة من رجل
نبيل .. من مناخلي هذا الشعب الذليل .. ولكنه لم يكن في مثل

عافيتك .. لقد أعطاه الله نعمة النبل والأخلاق الكريمة وكان من غير
الممكن أن يجزيه كل النعم .. فأنا سليله نبل وخلق كريم ولكني لما
جئت إلى المدينة لم أكن كذلك .. تهت في هذه المدينة .. لأنني لم أكن
خرجت من القصر لمدة عشر سنين ولم أعرف أحداً بتلك العاصمة
.. ولما جئت إلى هنا كنت أشعر بالحرية الكبيرة التي نزلت عليّ مرة
واحدة كالثوب الجميل الواسع الفضفاض .. ووقعت في بعض
الأخطاء التي لا تصل إلى حد الإثم .. ولما سألتها ما هي هذه الآثام
.. فأجابته بأنها كانت تذهب إلى بيت صبيحة .. وكان في بيت
الشيخ الصفار ثلاث نساء يقمن بتنظيف البيت والتسوق وتجهيز
الطعام أكبرهن خادمة تدعى خضرة الكارثة وعبد طويل ضخمة
الجنّة يدعى برهوم يقوم بري الحديقة وتشجيرها وله غرفة صغيرة
في آخر سور الحديقة أما الخادومات فكنّ يذهبن في الليل إلى
بيوتهن .. وكانت ربما تصعد إلى السطح أحياناً تتأمله وتستمتع
بأشعة الشمس ، وكان زوجها يعود بسرعة بعد عمله في مكتب
المقاولات الذي يملكه .. يعود متلهفاً إلى زوجته ربما قاتلاً :
- حبيبتي .. حياتي .. كياني ..

فإذا بتنورتها يرفرف فرحاً من ود اللقاء .. فيتعانقان وتأخذه
بيدها إلى الصالة وتخلع حذاءه ومعطفه .. ثم تحضر الخادمة الماء
الدافئ وتقوم بتدليك قدميه لدقائق .. بعدها يذهب الرجل إلى
فراشه ليتمتع بالحديث معها ثم يتناولان الغذاء وينام الرجل قليلاً
وقد يخرج لقضاء بعض الأعمال ثم يعود .. غير أن ربما كانت تعد
له فطوراً كل صباح قبل أن يأتي الخدم وتنزين له وتداعبه وكان من
عاداته تقبيلها من كتفها أو شعرها فتصرخ وتجري كالطفلة .. ثم

يقبّل جبينها وينصرف .. وتمتعت بالحب وتمنت أن يكون لها طفل غير أن سعادتها مع زوجها جعلتها ترجيء هذا التفكير قليلاً .. وشعرت بغربة الحياة وأن تلك الحياة لا تستمر على منوال واحد وأن تلك الحياة متقطعة .. حلقة تتبعها حلقة أخرى وكل واحدة منها كأنها حياة مستقلة .. وأن الأقدار تلعب قدراً رئيسياً في حياة الإنسان .. فلم تكن مبالغة في الحزن أو في الفرح وكان أكبر ما في حياتها الصمت والتيه والحيرة وسبحان الذي نقلها إلى تلك الحياة .. هذا البيت وهذا الزوج .. لكنّها مازالت كئي إنسان يجهل الغد .. لقد كانت في وجودها في العاصمة تصليّ لأن زوجها كان يصلي وكان حرمانها يروي حياتها ، ولم تكن تشعر بحرمانها وتصورت أن الناس جميعاً يشعرون بذلك .. غير أنها بدأت تشعر مع زوجها بالحياة فقدّرت ذلك الحرمان الذي مضى ..

ومرّت أيام أخرى سافر زوجها كثيراً إلى العاصمة بخصوص أعماله غير أنها بعد ذلك علمت بأنه يذهب إلى دار واحدة تدعى هناء وإبنتها هدى للونسة وتأكّدت من ذلك وانفضت كثير من الآمال التي كانت تعقدها وغصت شفاها واحتقن الدم في وجنتيها وأمسكت بأصابعها أطراف شعرها المنسدل على صدرها وراحت تمعن التفكير في حالها أياماً .. بعد ذلك كانت تمشي وكأنّها تزحف ورأسها يتثاقل يوماً بعد يوم .. ولم تفتاحه بالأمر وقررت أن تفعل شيئاً .. فجأة إنتهت كل مشاعرها نحو وأهمّته وعاد ينام في فراش آخر .. لقد قذف بها خارج ملعبها فقذفته . وبدأت تنام نوماً عبوساً .. وبعد ذلك هاتفّت أمها وأخبرتها بما ألّم بها فدعتها للذهاب إليها ولمّا خابرت الصفار بأن يرسل السائق لها بلغها أن تأخذ عربة أجرة فقالت له في غضب :

- هكذا بلغ الإهمال هذا الحد ..

- خذي برهوم معك لتعرفي أنني لم أهملك ..

- نعم سأخذ هذا الخادم وأتخذه مركبة هل تعني هذا ؟ قلت أريد سيارة ..

- كل المركبات خارج المدينة ..

وقفل الهاتف وقفلت بعده ولعنته أمام إحدى الخادومات ..
ونصحتها أمها بالصبر كما تفعل كل امرأة وأن زوجها سيعود إليها في النهاية .. وبعد ذلك بدأت تتساهل في كثير من الأمور وباتت شبه منعزلة عنه .. عاشت في بيته الكبير وحيدة مقهورة كما كانت .. غير أن برهوم كان يأتيها إلى غرفتها كل صباح ومساءً ليسألها إذا كانت تريد شيئاً ويذهب إلى غرفته عند الحديقة .. وفي يوم بعد القيلولة بقليل هبَّت رياح عاتية تعريد في كل اتجاه وكانت جنبات البيت تصفّر من شدتها واستمر ذلك حتى المغرب ونزل المطر غزيراً دون انقطاع .. وكانت تجوب البيت متوترة وإرادت ملابس ثقيلة وذهبت إلى فراشها تقرأ في كتاب قديم .. وجاءها برهوم يسألها إذا كانت تريد شيئاً فشكرته .. غير أنه عاد بعد أن مشى خطوات قانلاً :

- يا سيدتي إن السيد سافر إلى العاصمة ولن يعود .. أقصد لن يعود لأيام ..

وانعدلت مندهشة تقول :

ولماذا لم يخبرني ؟

- لقد أخبرني منذ الصباح وأمرني أن أعلمك في المساء ..

- أين ذهب ؟ حقيقة أين ذهب ؟

- يا سيدتي .. ماذا أقول لك ؟ إن له في كل مدينة امرأة ؟

- قل يا برهوم .. وماذا ؟

- إنه قريبي ولكنه ليس قريبي .. هو ذلك دائماً يا سيدتي ..

وكانت ربما قد علمت من الخدم منذ مجيئها إلى البيت بأنه
برهوم ابن خالة الصفار ولكن أمه كانت فقيرة وأبوه وكانوا جميعاً
يعيشون في بيت الصفار القديم ..

وأشارت إلى مقعد عند الباب قائلة :

- إجلس .. إجلس

وهز رأسه علامة على أنه يعرف الكثير عنه .. وفهمت أن
عليها أن تستدرجه فقالت له :

- كم مرة تزوج يا برهوم ..

- كثير .. من هذه المدينة أربعة وطلقهن .. والآن واحدة قديمة من
أربيل وله منها بنت متزوجة والثانية من مصاليا وله بنت عبيطة
منها .. والثالثة من دهوك صغيرة السن لا تتجاوز الخامسة
والثلاثين ولم تنجب بعد .. ثم أنت يا سيدتي ..

- لكننا لم نكن نعرف هذه التفاصيل ..

- ولماذا لم يسأل الأهل عنه ؟

- أمي لا تعرف عنه شيئاً ..

- والباشا صديق لم يسأل ..

- من ليس له أب ليس له شيء ..

ثم قامت إلى غرفتها وشدت الغطاء فوقها وهي تدرك تماماً أن هذا البيت الكبير ممتليء بالحشرات وأن حياتها مع أمين كانت حياة نظيفة .. إن شيء غريب ترتاح إليه امرأة هو أن يكون لها زوج لا تشاركه فيه امرأة أخرى حتى ولو كان عليلًا .. هكذا همست لنفسها .. من أحارب .. أحارب رجلاً قوياً هو زوجي أحارب كل هؤلاء النساء .. أو ذلك الشيء المخيف الذي أشعر به يملأ هذا البيت .. إن كل شيء حولي خبيث مخيف .. لقد قذفني الأهل إلى ذلك الرجل الفظيع .. هذا الرجل الذي هجرني وأهملني بعد شهر قليل من الزواج .. أين الحياة في حياتي ليس لي الحق بعد اليوم في أن أحلم بطفل بعد بطشه بي .. وبعد هذا اليوم كانت الحياة قاسية على ريماء وبدأت تفكر كيف تتخلص من هذا الزوج وتعود إلى بيت أمها .. وقامت لتصلي صلاتها وتدعو الله أن يأخذ بيدها .. وكانت تشعر بالحنين إلى بيت صبية ..

من حب نيروز لسلامة كانت تقول له كل يوم حتى يصبح .. إذا كنت تصلي حقاً فلا تنظر لامرأة غيري .. وعندما يمسي تقول .. إنني أحبك ملء هذه القصور والحدائق الجميلة .. ولقد بعث هذا طمأنينة في قلبه مما جعله يركن إليها ويفضي بكل مشاعره وكان يحبها لأنه يحبها وأن أفعالها معه وإصرارها عليه زائد عن الحد .. لقد كان فقيراً مسكيناً يتسول في المدن بين المطاعم والفنادق ليعمل .. ولكنه الآن أصبح سيداً غنياً .. متزوجاً من ابنة أغنياء هذا الحي ويعيش في بيت كبير ويقوم في خدمته خادمة وعبد وسائق هذا غير السعاة والعاملين في شركته .. ولما كان يجلس بعد صلاته يقول لربه .. شكراً يا ربي .. هذا كثير عليّ .. لماذا أغدقت عليّ كل هذه النعم ؟

ومرّت أيام أخرى .. ورزقت نيروز بطفل جميل .. ملك صغير .. جميل مثل أمه ووجيه مثل أبيه .. وكانت السيدة حميدة فودة وزوجها سيد المدينة صديق الخالدي وسميرة وبسنت أسعد هذا العالم الصغير بما أتاها الله .. وذبحوا البقر وأقاموا الولائم وقالت السيدة لزوجها صديق .. تصدّق من أموالك على الفقراء .. فتصدّق بالكثير .. ولكن معظم هذه الصدقات غير جائزة لأنه ليس في المدينة فقير حقيقي يستحق الصدقة .. وكان سلامة يقول .. ليت فقراء مدينة أخرى يأتون حتى تجوز هذه الصدقات .. وأخذت السيدة الفاضلة تدعو زوجها السيد صديق للصلاة حتى يشكر الله لأنه ليس بالأسرة كلها ولد منذ زمن بعيد .. حتى صلّى .. وصلّى بقوة بعد أن علمته الصلاة .. وكيف يقرأ القرآن وأقنعت به أن كتاب الله يخرج من الخزائن ويفتح ويقرأ كل يوم وليلة حتى تنتشر المحبة والإخاء في أرجاء الأرض .. وفعل .. وهده الله .. وكان سلامة يدعو الله بالبركة والسلامة وأن يهدي البشر جميعاً .. كان سعيداً بالهداية التي نزلت على والد زوجته .. وفي غمرة هذه الفرحة كان بيت ريماء مهجوراً فقيراً .. هجره الرجل وتزوج من فتاة تدعى إيمان من الحي الفقير .. وكان عمرها تسعة عشر عاماً .. وأقام لها بيتاً أجمل من بيت ريماء .. فتحسّرت على حظها وبكت كثيراً وتألّت .. وكانت أمها سعيدة بما جزاها الله في نيروز .. وفي نفس الوقت متألّة أشدّ الألم لما أصاب ريماء في حظها .. ومرّت أيام أخرى كانت أشدّ قسوة .. وفي يوم لاحظت أن برهوم يرتدي ملابس خفيفة لا تحميه من البرد فأخرجت ملابس ثقيلة قديمة من دولا ب زوجها وأعطتها له فقال :

- سيضربني يا سيدتي ..

- لا يستطيع .. خذها وارتردها فوراً .. ثم تعال حتى أراك بها ..
ولما عاد كان مليحاً وشكرها وإنصرف .. وذهبت في نوم
عميق حتى الصباح .. ولما نفذت شمس الضحى من النافذة وثبت
من فراشها وشعرت بنشاط يدب في جسدها وذهبت إلى غرفة
برهوم تناديه ، ولما دخلت عليه وجدته يصلي فتسمّرت وقدماهما
بالباب وقالت :

- يا إلهي .. هكذا أنت ..

ووقفت حتى انتهى وقام إليها وقال :

- وماذا تظنين يا سيدتي .. هذه صلاة الضحى .. لقد صليت
الفجر في موعده .. ولكن أرجوك لا تخبري الصفار بذلك حتى لا
يكرهني ..

وهزت رأسها قائلة :

- وأين الصفار حتى أخبره ؟ إنه لن يعود أبداً ..

وقبل أن تنصرف وجدت غطاءه خفيفاً ممزقاً فدعته أن يتبعها
فتبعها وأعطته لفة كبيرة من البطاطين القديمة الصالحة للاستعمال
فأخذها بين يديه معتنأ داعياً لها بالخير وشكر الله لما دخل غرفته
وأخذ يفك اللفة ويغني .. بعدها طرق الخدم باب البيت فأسرع
يفتحه ..

وكانت ربما تنتظر قدوم المساء كل يوم حتى يأتي إليها
برهوم في غرفتها ليحكي لها ويسلّيها وهي تسمع وتعرف المزيد عن
زوجها .. وبدأت تصرف الخدم مبكراً ويجلس معها برهوم في غرفة
نومها ومرة في الصلاة وكان ينحني حين يجلس إليها وينحني حين

ينصرف وطلبت منه في يوم ألا يفعل فلم يستطع أن يقلع عن عادته، وفي يوم أقبل الأصيل حاراً وكان ذلك في أواخر أذار ولم يصل زوجها بعد من العاصمة .. ولما جنحت الشمس إلى الغروب ثم أقبل الليل وكان حاراً قامت وارتدت ثوباً حريراً وطلبت من برهوم أن يحكم قفل باب البيت ولما جاءها يجلس انحنى كعادته وكانت تريده أن ينظر إليها ولا يخجل .. ليرى صدرها وذراعيها العاريين وشعرها المنسدل على كتفيها ووجهها وعينيها .. لكنه كان عبداً ذليلاً يستحي أن ينظر إليها وتلعثم في حديثه الذي تعود عليه كل يوم .. وطلبت منه أن يقترب منها وجلس على حافة فراشها ومدت له ذراعها قائلة :

- ذراعي تتألم منذ فترة .. دلّكها .. خذها بين يديك وافعل وارتعش جسده كله وقال متعجراً :

- وسيدي .. سيدي ..

- ألم تحكم قفل الأبواب ؟ إنه لن يراك لأنه ليس هنا ..

- إنه يراني يا سيدتي ..

- كيف يراك وهو ليس هنا ؟

- أشعر أنه يراني في كل وقت حتى وأنا نائم .. أنا غلبان يا

سيدتي .. لا أعرف .. لا أعرف ..

- هل أمرك بشيء وترفض ؟

- في الدين حرام أن أرى امرأة عارية .. فما بالك يا سيدتي لو

أمسكت بذراعك ..

وقام وابتعد خطوتين عن فراشها وكان يريد أن يجري إلى
غرفته لكن قدميه تسمرتا فقالت له :

- لابد أن تعرف أنك عبد في هذا البيت ..

- ولأنني أعرف ذلك تماماً فإني لا أستطيع أن أعمل شيئاً يخالف
تلك العبودية ..

- أنا سيدة هذا البيت وأنا الذي أمرك أن تجلس وتفعل ..

- إن عبوديتي يا سيدتي الكريمة .. أصلها عبودية أكبر من

عبوديتي لك ولسيدي .. إني عبد الله سبحانه وتعالى ولا أستطيع

أن أخالفه .. إني أعبد الله وأسجد له وأصلي والناس نيام لقد

دخل في قلبي ما هو أكبر وأكبر .. فكيف أغضب الله وهو سيد

العالمين .. أرجوك يا سيدتي .. إعفني من عمل لا أقدر عليه ..

وسأظل عبدك المطيع ما حييت .. وإني أنحنى لك في أن تلمي

طلبي .. وانحنى .. إنحنى حتى كادت رأسه تلامس ركبتيه ..

- في ميسورك أن تقول الكثير ، ولكنك أنت عبدي وستظل عبدي ..

- أنا عبدك ولكني سأقوم بالعمل الذي أكون فيه عبداً دون الإخلال

بعبوديتي الكبرى والعظيمة لله تعالى .. ولن يكون في إمكانك يا

سيدتي أن تدليني على شيء آخر غير الذي أعتقده .. فطريقي

مع الله طويل هناك في تلك الغرفة التي تقع عند الباب ..

وسيكون في ميسوري أن أقول سبحان الله والحمد لله والله أكبر

ومن الأدعية وقراءة القرآن ما شئت .. لا توجد قوة في الوجود

تستطيع أن تثنيني عن ذلك .. سأقول وأظل عبداً لك ولسيدي

لأن هذا عملي .. أقوم بعملتي الذي تعودت عليه ..

- أنا لا أفهم كيف تعيش ؟ من أنت ومن الذي أتى بك ؟

- أنا من بيت الصفار ومثل هذه الغرفة كان يسكنها أبي وأمي عند

بيت الصفار القديم .. ولقد ولدنا مع الصفار وعشنا معه وهو لم

يأت بنا من بعيد .. وكان أبي يري الصفار وهو صغير يبغني

ويظلم ويفسد .. وكان دائماً يقول .. الحمد لله الذي خلقني فقيراً

.. وأنا يا سيدتي أقول مثله الحمد لله الذي خلقني فقيراً .. وهذا

هو السر بين الفقر الحقيقي والفقر المزيف في تلك الحياة ..

ثم إنحنى وهو يقترب منها وقال :

- أنا يا سيدتي عبدك .. هل تريدين شيئاً قبل أن أذهب إلى النوم ؟

فكظمت غيظها وقالت وهي مندهشة :

- إذهب الآن فأنا لن أريدك بعد ..

ومرّت أيام ولم يعد الصفار .. لقد عاد إلى المدينة في بيت

آخر من بيوته وتحدث مع ريماء في الهاتف وأخبرها أنه لن يعود

الآن .. واستسلمت للأمر الواقع .. ولم يكن لديها غير أن تستمع

إلى برهوم في غرفتها يحكي لها وتسأله وتعرف يوماً بعد آخر

الكثير عنه وعن الصفار والمدينة .. وفي يوم قالت له إنها لم تكن

تتصور أن ترى حكيماً مثله ..

وفي ذات مساء جلست إلى النافذة تتأمل الأشجار والزهور

وحقل الشعير البعيد وحدائق أخرى قريبة .. كانت الخضرة والمياه

وأفرع الأشجار والماء يجري بين الجنود وغرفة برهوم عند الباب

يبعث في الهواء عطراً نفاذاً .. وشردت أفكار ريماء بين ماضيها

وحاضرها .. وشعرت بأنها ضعيفة لا حول لها ولا قوة مع هذا الزوج ومن غير وعي منها راحت قدماها تسير نحو غرفة برهوم .. كانت نفسها تعباً وتريد أن تريحها وتنسى الوجود كله .. وطرقت الباب ثم دفعته فوجدته ساجداً على فرشاة قديمة . لقد فرغ من صلاته وهو ساجد يدعو الله .. ولما أحس بها قام وقال :

- تفضلي يا سيدتي ..

واندفعت نحو وناداهـا مشيراً إلى مقعد قديم .. هنا يا سيدتي هنا .. وجلست وقالت .. ماذا تفعل ؟ هل تعبد الله في كل وقتك ؟ من أنت ؟ هل في بيتي عابد حقيقي ؟ وجلس برهوم فوق سجاده بالارض وقال :

- يا سيدتي أنا أقرب من الأربعين وليس لي في الدنيا شيء ولا أريد منها أي شيء .. فما تبقى قليل ..

- لكن الرجال هنا لا يفعلون ولا يعتقدون كما تعتقد ..

- ومن أدراك قد يكون في كل هذه البيوت عبد يعمل مثلي ..

- ولماذا العبيد بالذات يفعلون ؟

- لا يوجد أمر يلهيه في الدنيا وليس في رأسه أية طموحات .. يا سيدتي .. إذا كان الأغنياء أحراراً لأنهم يستطيعون شراء العبيد .. فهذه ليست حرية .. ولا يوجد بينهم حر واحد .. إنهم عبيد هذه الدنيا بأموالها وقصورها .. والعبيد مثلي في كل بيت هم الأحرار الحقيقيون لأنهم يلاقون ربهم في كل يوم وليلة عشرات المرات ..

- ولماذا لا تنتشر هذه الحرية بين الناس ؟ أو بين العبيد ؟

- أنا لست زعيماً ولكني عابد لله .. وإذا قمت بهذا مثلاً فإن
الصفار سيطردني من هذا الكوخ وأصبح بين يوم وليلة بلا
مأوى .. وفي كل حال فإنني لم أفكر في هذا الأمر .. لكنني
أخرجت شيئاً من صدري لك يا سيدتي .. منذ صغري وأنا أكلّم
نفسي ولم يكلمني أحد غيرك يا سيدتي .. حتي سيدي الصفار
لم يقل لي في يوم كيف حالك .. لأنني من العبيد ولا يصح
للسادة أن يسألوا عنهم أو يكلموهم .. هذه قيم هذه البيوت ..
وكنت أتكلّم مع فراشي ومع الحيطان فلا يرد عليّ أحد .. حتي
جئت يا سيدتي إلى هذا البيت فبدأت أشعر بشيء من إنسانيتي
لأنك تكلميني

قالت وهي ترتعش كأن برداً أصابها :

- أشعر بالبرد يا برهوم خذني إلى الفراش .. أدفئني في فراشك ..
كيف يا سيدتي ؟ وهل تنامين على هذا الفراش .. إنه حقير يا
سيدتي .. تتوسخين منه ..

- أنا سيدتك يا برهوم .. وأقول لك .. تعال .. احملني إلى فراشك ..
- سوف أجري إلى الشارع يا سيدتي .. ولن أعود .. سوف أذهب
إلى العراء .. هذا أمر لا أقدر عليه .. أرجوك يا سيدتي .. قالها
وهو يمد ذراعيه إليها متوسلاً ..

- إذا كنت عبداً للصفار فلقد ذهب الصفار .. وأنا الوحيدة سيدة
هذا البيت وأنت عبيدي ..

- أنا عبدك ولكن عبوديتي لله أكبر ..

وقامت إليه ثم إنقلبت لتقفل الباب وأمسكت بخشبة في يدها
كان ينظف بها فراشه من التراب واندفعت نحوه تضربه بقسوة على
رأسه وانحنى حتى ركبتيه يحمي رأسه بذراعيه وهو يصرخ وكان
يحاول أن يكتم صرخاته حتى لا يسمعه أحد من الجيران ..
وانهالت على جسده تضربه بقسوة .. وكان يمكنه أن يخرج إلى
الحديقة ولكنه أثر أن يتحمل حتى لا يراه أحد فقد تجري خلفه
بعضاها .. وانحنت عليه تمسك برأسه محاولة تجفيف الدماء
بمئذيل في يدها وسكت صراخه واستسلم ليدها وربطت جبينه
بمئذيه .. وكان يقول العفو يا سيدتي .. العفو .. وامتدت يدها
لتمسك به وسلمها نفسه وكرة أخرى .. العفو يا ستي .. العفو يا
ستي .. ولما تأكدت من رجولته تركته قائلة وكل ذرة في جسدها
يرتعش .. أنت هكذا رجل لا ينقصه شيء .. وقال وهو يتهاوى على
أرض الغرفة :

- أنا مستعد لكل شيء ماعدا هذا .. إقبليني يا سيدتي عبداً واعفي
عني ..

وتقدمت نحو الباب شبه منهارة وقالت له محذرة :

- إياك أن ترفض ما أمرك به .. وإتبعني إلى البيت فإن عليك أن
تستحم وتكون نظيفاً وعندي ملابس جديدة ترتديها بدلاً من هذه
القدرة ..

فهز رأسه وتبعها ودخلت غرفتها وجمعت ملابس لا يرتديها
الصفار وذهبت إلى الحمام وأمرت أن يخلع ملابسها وفعل وصارت
عبدة له .. هي التي صببت الماء فوقه ودعكت جسده بالليف

والصابون وكان ينحني على عورته فتركته يفعل وكانت تضحك عليه .. جمعت ملابسه القديمة ثم لفت جسده بالمنشفة وجففت الماء فوق رأسه .. وألبسته ملابس نظيفة قطعة بعد أخرى بيديها .. وفتحت الباب وقالت :

- أنت حر الآن .. لن أجبرك على شيء .. اذهب إلى غرفتك ..
وجرى إلى بيته وكاد يقع لكنه نهض ولما دخل كوخه أغلق بابه وشهق وحمد الله على نجاته غير أنه ظل مندهشاً لعشق سيدته له .. ونام حتى الصباح مخبولاً بأحداثه .. وفي الفجر قام وصلى وقعد على فراشه يسبح بحمد الله .. ثم سمع طرقاتاً شديداً .. ولما استرق السمع كان رجل يصيح قائلاً : يا برهوم .. يا يوم الشوم .. إفتح يا جحش .. إفتح يا حمار .. سيدك مات .. يا يوم الشوم علينا .. وجرى نحو الباب الكبير وهو يتمنى ألا يسمع ما سمعه عن سيده وظهر قبالبته رغم الظلمة خفير المكتب .. إنه صوته ووجه النحيل يظهران من فتحة الباب الحديدي .. وأصر الخفير عندما وجد برهوم يجري نحوه ثم يقع ثم يقوم ويقول ماذا .. ماذا .. أصر الخفير أن يصرخ بصوت عال في وجهه وكأنه يعلن للناس جميعاً عن المفاجعة .. الصفار مات في الطريق .. إنقلبت به السيارة ومات هو والسائق .. إفتح يا حمار .. بلغ سيدتك .. ولما فتح الباب لاذ بملابسه وأمسك برهوم بفمه محاولاً إسكاته لكنه لم يستطع .. وكان برهوم لا يريد أن يقول لأنه لا يريد أن يصدق .. غير أن الخفير دفعه إلى الخلف قائلاً :

- عد إلى سيدتك وأخبرها أن الجثة بالمستشفى العام ..
وانقلب إلى البيت وتلوى متوجعاً وأمسك برأسه وكاد يلطم

خديه ، ولكنه رفع يديه إلى أعلا قائلاً .. يا رب .. يا رب .. ووقف عند الباب هل يطرقه أم ينادي وماذا يقول ؟ إنها فاجعة في هذا الوقت المبكر غير أنه تشجع قليلاً لما تذكر أن الصفار هجرها وأن الخبر لن يكون له وقع حزين عليها .. ودق الباب في ترفق ولم تسمعه ونادى بصوت خفيض .. وكانت ربما تغط في نوم عميق .. وانتظر طويلاً عند الباب لأن صوته الخفيض وطرقه الرقيق لا تسمعه ربما وهي يقظة .. وعاد إلى كوخه ثم خرج منه وتمشى حتى باب السور وكان النهار قد انتشر وظهر ضوءه جلياً .. وفجأة سمع امرأة تصرخ وصوتها يقترب من باب السور ولم تمر لحظات حتى كان الصوت يملأ الشارع المؤدي إلى البيت ، وفتح الباب وخرج منه فإذا بامرأتين تقبلان نحوه وقد شقت كل منهما صدرها ووضعتا الطين فوق رأسيهما وقذفت إحداهن بقطعة من الطين في وجهه قائلة وهي تجره بيديها إلى داخل البيت :

- الصفار مات .. مات الصفار .. فبن سبك يا حمار ؟
ولاذ بها يمسكها ويقفل فاما قائلاً :

- لا تقولي .. لا تصرخي .. السيدة نائمة لا تزعجها .. لا تزعجها ..

وجاعته الأخرى تضربه على وجهه قائلة :

- وماذا بعد الصفار ؟ وماذا بعد الموت ؟ متى تنزعج إن لم تنزعج من موته ؟ أين هي يا كلب

وتركهما وتبعهما وهو يرفع يديه إلى السماء قائلاً :

- إنا لله وإنا إليه راجعون .. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ..

وانهدم البيت فوقها في لحظة وانزعجت وقامت من نومها
فزعة تصرخ متجهة نحو الباب الذي دقت عليه المرأتان بعنف .. ولما
فتحت إندفعت المرأتان عليها تنديان ..

- جوزك مات وانت نائمة .. قومي جوزك مات .. مات الصفار ..
مات الصفار .. يا هو يا مش هو .. يا هو يا مش هو ..

ترفسان الأرض بقوة .. تنديان كما يندب نساء المدينة في
المآثم يلطمان خدودهما بقوة وفي لحظة شقت كل منهما الجلباب
حتى القدم .. ووقعت ربما بالأرض غير مصدقة واقترب برهوم منها
وانحنى عليها .. نعم يا سيدتي مات .. إنقلبت به العربة ومات ..
والسائق مات .. لما تاكدت منه صرخت .. صرخت .. ولكنها لم
تندب ولم تلطم خديها ولم تشق ملابسها .. وحاولت أن تنهض
وساعدها برهوم وهو يبكي .. وكانت تصرخ وتقول يا بختك .. يا
بختك ربما .. يا قهري يأمه يا قهري .. وكان كثير من النساء
يدخلن وجاءت فرقة النذب من النساء وهي فرقة تذهب إلى كل مآثم
في المدينة تندب وتولول مقابل أجر ومصدر هذه الفرقة ذلك الحي
الفقير فمن الحي الفقير يخرج كل شيء .. ويوجد عدة فرق للنذب
تغطي المدينة في هذه المناسبات .. ومن السوء أن دخلت ربما حلبة
النذب تفعل كما يفعلون .. وجاءت أمها السيدة حميدة فودة
وابنتاها ورجل المدينة المهاب السيد صديق وجلسوا جميعاً في
جانب من الصالة .. وأمر النساء بالتوقف عن العويل فسكنن
وتقدمت السيدة حميدة اليهن وقالت :

- هذا حرام وماذا تفعلين يا ريما ؟ هل أنت من الفرقة .. إنصرفن

جميعاً فإن بيوتنا تذكر الله ونصلي
وقامت صاحبة الفرقة إليها قائلة :

- أتعابنا يا سيدتي وننصرف لقد تعبنا كثيراً وعلى إستعداد أن
نكمل مهمتنا ..

- من غير هذا التعب خنوا ما تريدون رحمة على الرجل ..
ونقدتهن جميعاً زيادة عن أجرهن ولاذت ريما في صدر أمها
وربت على ظهرها السيد صديق وانصرف قائلاً :

- سأذهب للمستشفى للقيام بإجراءات الخروج .. القوة من الله يا
إبنتي .. لا تحزني .. لا تحزني ..

ونادت سميرة على الخادمة لتحضر الماء لأختها وأخذت
بسنت الصغيرة تمسح دموع أختها بمنديل ورقي وبين الحين والحين
تدخل واحدة من الجيران أو من أقارب صاحب البيت .. ورفعت
السيدة حميدة يدها إلى أعلا وهي تحضن ريما بالأخرى قائلة :

- يا رب .. أمر دنيائي وأخرتي بيدك لا بيد غيرك .. اللهم إني
أسألك العفو عن ذنوبنا وألهمنا جميعاً أن ندعوك آمنين الرحمة
على المتوفي ونسألك مستأنسين بأنك أنت الغفور والمحسن إلينا
هذه إبنتي بين يديك تسألك ونسألك الرشد والنجاة ..

وبدأت ريما تستريح لدعاء أمها ونامت في حجرها بأرض
الصالة والتفت كل من سميرة وبسنت حولها .. وامتلا البيت بالنساء
الموشحات بالسواد وكان العبد برهوم يبكي عند الباب والخاديات
الثلاث يقمن بأعمالهن بهمة وكانت كل واحدة منهم تبكي بشدة ..
وسألت ريما أمها :

- هل يأتي إلى البيت ؟

- لا يا إبنتي .. لقد علمت أنه وصى المرأة الجديدة بأن يخرج من بيتها ..

- ألسنت الجديدة يا أمي ؟

- لقد تزوج إمرأتين بعدك .. واحدة تدعى إيناس والجديدة أنغام ..
ولو عاش شهراً واحداً لتزوج .. وبعد شهور قليلة كان سيطلقك
حتى يتزوج بالرابعة ..

وقصدت الأم من ذلك أن تخفف عن إبنتها وألا تستغرق في
أحزانها ..

وجاءتهم نيروز وزوجها سلامة الكاني .. وبدأ النساء
ينصرفن .. وقامت السيدة حميدة لتشرف على الخدم بالمطبخ .. ثم
وضعت في المسجل شريطاً للقرآن الكريم أحضرته معها .. وصدق
الكلام العظيم يفيض رحمة وغفراناً وموعظة للعالمين .. فسكن كل
من في البيت ونزل عليهم الصبر واطمأنوا ..

وكان لا يمكن للحياة أن تسير على منوال واحد .. فهي
متقطعة وحزينة دائماً والسعادة فيها قليلة بل ومتوترة حلقة بعد
أخرى وتستمر الحياة بكل ما فيها من عجز إنساني وفجور حيواني
.. وتلعب الأقدار دوراً هائلاً في حياة ذلك الإنسان .. فلا تكن بالغ
الحزن أو الفرح وكن تقياً .. وأين هذا التقى إذا كان الناس قد
هجروا الحب والمودة والرحمة .. من أين تبدأ الحياة الفاضلة ..
وكيف تكون حياتنا ذات معنى .. كيف ينتشر قليل من الرحمة بين
هؤلاء وغيرهم .. كيف يموت زوج حتى وإن كان متزوجاً بأخرى وفي
الليلة الثالثة لموته تدعو تلك الزوجة المترملة والتي مازالت بلباسها

الأسود .. تدعو العبد ولما يرفض تكويه بالنار .. فهل من الحريق
تأتي الحياة وهل من العنف يأتي الحب .. أمن القسوة والحيوانية
يتسلط الناس بعضهم على بعض بلا رحمة .. هكذا قال سلامة
لنفسه وصرخ عندما جاءه العبد برهوم وقال له :

- يا سيدي .. أنت من بلاد بعيدة .. وقد أجد في حكايتي إليك
رشاداً منك أو مسلكاً أتخذه في سبيل النجاة ..
فقال له سلامة :

- أنا لست سيدك .. إن سيد الجميع فوقنا جميعاً .. والله لا أعرف
كيف سيد الناس أنفسهم عليكم .. وكأن الإنسان إلهاً على أخيه
.. والله مرة ثانية وثالثة وإلى الأبد .. أنك يا برهوم سيدي وسيد
هذه المدينة بهذه الأخلاق الكريمة ..

وحكى له برهوم كل شيء واستحلفه على ألا يبوح بأسراره ..
لأنه في كل الأحوال يريد أن يظل في بيته ذلك الكوخ الصغير عند
باب قصر العبدية ربما .. إنه يلتقي في هذا البيت مع ربه .. وهذه
سيدة القصر تدعوه .. فكيف الخلاص ؟
وقال له سلامة قبل أن ينصرف ..

- يا برهوم .. سوف يظلك الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .. فانت
واحد من الذين دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني
أخاف الله .. إذهب إلى بيتك واطمنن فسوف أفعل لك ما
أستطيع ..

ودخل إلى نيروز فوجدها نائمة والطفل يلعب في الفراش
فانحنى عليها وقال :

- ومن يدري قد تكون طالحاً أو سيّداً مثل أسياد المدينة .. إن عليّ
يا بني أن نهجر هذه المدينة حتى لا تكون واحداً منها ..
وسمعتة نيروز وانقلبت نحوه قائلة :

- ما هذا الكلام الذي تقوله ؟

- كما سمعت .. وما سمعتة من برهوم جعلني أقول وأقول وسوف
أفعل ..

- من برهوم ؟ من برهوم هذا ؟

- خادم ريماء .. عبد الصفار .. سيد هذه المدينة ..

- خادم وعبد ثم سيد .. برهوم هذا الأهل سيد .. إنه عبد ابن عبد
فكيف يكون سيّداً ؟ ماذا بك يا سلامة ؟

- والله إنه سيدي وسيدك وسيد هذه المدينة ..

- هل جننت .. ماذا بك .. هل أتيت من كوكب آخر هذا المساء .. لا

تقل هذه الأفكار لابنتنا وهو صغير هكذا .. إن ابني سيكون

سيّداً مثل جده وأهل جده وأمه وكل أسياد هذه المدينة

وانعدل سلامة في جلسته بالمقعد الملاصق للفرش وقال :

- ولماذا لم تقولي مثل أبيه ؟

- أبوه جاء من مدينة أخرى بعيدة ..

- يشرفني ألا أكون من هذه المدينة

- ولماذا إذاً تعيش فيها فهي التي سقيتك وأطعمتك وجعلت منك

سيّداً .. ألا تدري ماذا كنت وكيف كان حالك عندما جئت مع

ريما ضيفاً في بيت أبي ؟ أبي وأنا وأهلي جعلناك سيّداً واليوم

تقول .. إن برهوم سيد المدينة ..

وقام سلامة إليها وكظم غيظه وحاول أن يهدأ قليلاً وقال :

- وكيف أكون سيداً وأنا من سلالة برهوم ؟ ما الفرق بيني وبينه ؟

- خدعني فيك وجهك وملامحك تقول أنك شبيه بالسادة .. ولكنك في

الحقيقة كما تقول مثل برهوم وغيره من ..

- من ماذا ؟ قل لي يا فاجرة ؟ يا سافلة ؟

وتقدم نحوها وصفعها بقوة على وجهها .. فأسرعت إلى

الصالة تصرخ وتقول :

- سيكون هذا آخر يوم لك في المدينة .. آخر يوم لك في المدينة ..

وهاتف أمها وهي باكية تصرخ .. غير أن الأم قالت لها في

ثبات :

- أنا قادمة في لحظات .. لا تهاتفني أباك بهذا الخصوص .. لقد

أخطأت خطأ كبيراً .. ينقصك كثير من التربية .. وأنت مثل بنات

هذه القصور .. سافلات ..

وكان السيدة حميدة فودة قد أعادت لها ثباتها .. فذهبت إلى

الحمام وغسلت وجهها غير أنها دخلت غرفة الطعام وانهارت في

دموع غزيرة وكأنها تندم على فعلها ..

وكان هذا الخيط الذي انقطع هو الخيط الرفيع الذي كان

يمسك سلامة بالمدينة .. ولم يبق غير طفله فهل يصدر من إبنته

الصغير ما يجعله يحمل أمتعته ويهجر المدينة .. وقال هو يحتضنه

والدموع تسيل من مقلتيه .. هل تأتي معي أم تسكن في أحضان أم

سافلة .. إن كل الأطفال يفضلون أن يسكنون صدور أمهاتهم حتى

ولو كنُ سافلات .. فالأم أم .. سكينه وعش حتى ولو كانت فاجرة
في عيون الناس لكنّها في رؤوس الأبناء أم .. يا له من ثقل ثقيل ألم
بي هذا المساء .. ما أقطع هذا الإزعاج الذي بلغني ممن كنت
أعتقدّها امرأة خارقة بعثتها الأقدار في طريقي .. وسمع صراخاً
عالياً .. إنها نيروز وصوتاً آخر عاقلاً رزيناً يلقّنها .. وبعد ذلك علا
صوت الأم ولما إسترق السمع قرب الباب وهو يحمل ابنه بين يديه
.. كانت صفعات الأم قوية ونيروز تستغيث .. وبكى سلامة لما سمع
الأم تقول بصوت عال :

- هذا الرجل الذي جعل منك امرأة ورزقت منه بخير طفل تسيّني
إليه بهذه الوقاحة .. يا لك من ملعونة .. والله إني أفضله عليكم
جميعاً .. (وكلمات أخرى لم يستطع سماعها) .. ونيروز تقول
.. صحيح يا أمي صحيح والله إني خاطئة .. اضربيني واقتليني
وافعلي ما تريد .. كانت لحظة من جنون .. إذهبي إليه يا أمي
وأصلي شأني معه ..

ودفعت الأم بشدة حتى كادت تقع على الأرض .. وسبق الأم
صوتها الرخيم قائلة :

- يا حبيبي .. يا حبيبي يا من جاء بك الله لنا .. يا حبيبي هذا
خطأي أنا وليس خطؤها ..

ووجدته خلف الباب يحمل طفله ويضع رأسه على وجه
الصغير .. واندفعت نحوه السيدة تحتضنه وتمسك بذراعيها ظهره
قائلة :

- أنت إبني .. أنت إبني الذي لم أله .. لأنك أحنّ من أبنائي عليّ
.. وأنا إن قبلت يا بني أن أكون أمك فهذا شرف كبير سوف

أذيعه على كل المدينة .. أنت يا بني سيدي وسيد أبي وجدي ..
وأنا أعرف أنك مؤمن لأنك جئت من بلاد بعيدة .. ولو لم تكن من
بلاد بعيدة لكنت مثل أبناء هذه المدينة .. ومن أجل هذا سعدت
بأن تكون زوجاً لابنتي .. وهي في كل الأحوال يا بني امرأة
ناقصة مثل كل النساء ..

وأخذته برفق بين يديها وحملت عنه الطفل فأعطاه لها
بارتياح شديد .. لأنه لن يجد في هذا العالم أحناً عليه منها ..
وأجلسته على المقعد وقعدت قبالة على الأرض .. وقال لها
بصوت خفيض متألم :

- لا يهمني أن أكون عبداً أو سيداً .. ولو خيروني لفضلت أن أكون
مثل برهوم ودحروج .. ولكن ما أمني أن تعالمني زوجتي وهي
التي كنت أعتبرها أفضل نساء العالم .. لقد كنت أعتقد أنها
تعتبرني فاضلاً أو كريماً أو نبيلاً .. أي شيء فيه معنى ..
والفاجعة أنني وجدت أنها تحمل معنى وأفكاراً سافلة لي .. وما
الغيب يا سيدتي إن كنت بالأمس جائعاً واليوم أشبعني الله ..
وما الحياة كلها إلا يسر وعسر وجوع وعطش وشبع .. أليس
هناك قادر على كل شيء يفعل بالإنسان ما يشاء .. إذاً هي لا
تسلم بمشيئة الله ..

ورفعت إليه يدها قائلة :

- يا بني .. يا بني هل تعتقد أن كل الناس مثل .. إنها إبنة صديق
جبار المدينة .. لم تصل أبداً ولم تعرف ذلك إلا بعد أن إرتبطت

بك .. مازال هناك الكثير الغائب عنها مثل كل الناس في هذه المدينة .. بل إنها تعتبر في مرحلة متقدمة منهم لأنها إرتبطت بك أنت الذي جئت من مدينة أخرى .. وكل هؤلاء الناس من أهل المدينة في حاجة إلى ناس آخرين من مدن أخرى حتى ينزعوهم من ظلامهم ..

- وأنا يا سيدتي لا أستطيع أن أكون بعد ذلك زوجاً لها ..
- أنا أعرف يا بني .. إذا تطاولت زوجة على زوجها فمن حقه أن يتزوج بأخرى حتى يؤدبها .. إذا أردت يا بني أن تتزوج بثلاث نساء حتى تؤدبها فأنا معك في كل إصلاح .. ولكنني أتمنى أن تغفو عنها وتسامحها ..

وفيما هو مستغرق في التفكير وقد أطارق برأسه إلى الأرض .. قالت له السيدة بصوت خفيض :

- سوف أخذها معي إلى البيت حتى تستريح منها ..
- أنا لا أفكر فيها الآن ولكنني .. أفكر كيف أرحل من هنا ..
وحاولت السيدة أن تمسك بانفعالاتها وقالت وكأنها ترجوه :
- إلى أين ترحل وتترك أهلك .. هل تتركني يا بني أموت من أجلك .. ولم يحدث شيء كبير .. إن أكثر من هذا يحدث في كل

البيوت .. ولو كل الرجال فعلوا ذلك ما بقي رجل في بيت ..
وكانت كلمات السيدة قوية عليه .. وسكت .. لقد شعر أنه مشى مائة كيلو متر على قدميه وأن هناك جماعة من الناس ضربته في كل موضع بجسده .. وأن رأسه كبيرة وثقيلة وأنه في حاجة إلى

أن يستريح من هذا العناء الشديد .. ونهض وتلوى متوجعاً وترنح
ثم وقع على الأرض .. فصرخت السيدة ووضعت الصغير من يديها
وهولت وارتمت فوقه :

- ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟

وأمسكت برأسه تفحصها وتدعك في وجهه وعينه .. وزعقت :

- هاتي بارقان .. هاتي بارقان ..

وفي لحظات كانت نيروز أمامها تنتثر فوقه بأصابعها قنينة
عطر .. وكانت تبكي وأمسكت بقدميه وقبلتهما .. فأحس بها ..
وأخذت كالمجنونة تبحث عن أي شيء في جسده .. ثم اندفعت إلى
الهاتف وطلبت طبيب المدينة المشهور .. ولما جاء الطبيب نصح
بالهدوء وعدم الانفعال وكتب له الدواء وانصرف ، وذهبت نيروز
بنفسها لتحضر الدواء ولما وصلت إلى البيت كان سلامة يغط في
نوم عميق وأما تطبخ له أرنباً .. وكان الطفل يبكي بشدة .. وحملته
نيروز برفق في حجرها وقالت .. أعرف لماذا تبكي لأنك غاضب مني
يا محمد ، لك كل الحق لقد أغضبت أباك .. من حقد يا بني .. والله
يا بني إنني نادمة أشد الندم .. لقد أحببته يا بني حباً عارماً
ومازلت أحبه أكثر .. أحبه أكثر مما أستطيع أن أتكلّم .. أقصى
مما تعبر عنه الكلمات وتقلب سلامة في فراشه .. إنه يشعر ببعض
الألم في رأسه ونادى قائلاً :

- يا أمي .. يا أمي ..

فسارعت إليه نيروز .. حبيبي .. حبيبي .. أألسأ أجدي من
أمي .. أألسأ أجدي .. وأمسكت بكف يده وقبلته واحتضنته وبكت
على صدره فأمسك برأسها .. وقال :

- لو أساء إليّ كل العالم .. ما كنت أظن أنك ستفعلين هذا في يوم ..

- أنا مخلوقة يا سلامة ولا يمكن أن أكون ملاكاً .. وكل امرأة في بيتها تتفعل على زوجها وأنا أقلهن .. ومع ذلك فإني لن أفعل .. ما كنت أتصور أنك ستحمل كل هذه الجهود والآلام نتيجة ذلك .. أرجوك أن تعفو عني حتى أستريح .. أرجوك فأنت كل حياتي والدنيا دون رضاك عني لا شيء ..

فأمسك بذراعيها وشدها إليها وضغط عليها .. وفرحت نيروز وقامت تحضر له الدواء في يد وفي الأخرى تحمل إليه ولده .. ومرت الأيام على ريم .. وأصبح زوجها الصفار في عداد الموتى وحياتها وحيدة مرة ثانية في بيت كبير حقيقة واقعة ومؤلمة .. ورغم أنها ورثت كثيراً من المال والأرض والعقارات إلا أن هذا الغنى جاءها فوق غنى لم يغنها عن حاجتها إلى الحياة كإمرأة .. إنه غنى بلا معنى وبدون طعم ، فكيف تحلو الحياة لإمرأة بلا رجل يدفع حياتها ويملاً وحدتها .. وأصبحت حالة الإغماء تلازمها بصفة مستمرة ، إنها تعيش الأيام بلا جدوى .. وإن رجلاً بعد رجل يموت .. هل هي إمرأة تجعل الرجال يموتون .. وتعيش هي بعذاب الأيام الثقيلة .. أوجب عليها أن تعيش بلا رجال وتبقى على حياة رجال آخرين قد يعتزمون الزواج منها .. وإذا احتاجت إلى رجل فلماذا لا تذهب إلى بيت صبيحة ثانية قد تجد هناك رجلاً مخبئاً ..

أو تجد فتاة تهديء من روعها .. واسترخت في فراشها ذات مساء
وقالت لنفسها .. أهذا كل شيء من بيت إلى بيت ومن رجل يموت
إلى رجل سوف يموت .. أنا إذاً امرأة تفني الرجال ، وأغمضت
عينها ثم ما لبثت أن ارتعشت ودقت جرساً إلى برهوم ليأتي إليها
.. وكان برهوم يرتدي جلباباً نظيفاً وتفوح منه رائحة عطر .. لقد
نقذ تعليماتها إليه .. فهو يستحم كل يوم ويخلق ذقنه ويتعطر كل
صباح ومساء كما أوصته .. ولما هرول إليها دخل منحنيّاً قائلاً :

- أمرك يا ستي

- ممتاز .. تمام .. إنك الآن نظيف ..

- الحمد لله .. من خيرك يا ستي ..

- إعمل شاياً .. وهات كوباً من الماء ..

- حاضر .. وانصرف ..

وداعبت شعرها بيدها .. واعتدلت قليلاً وشدت الفراش فوقها
وقالت في نفسها .. ولماذا لا أحاول ثانية .. ولما جاءها بالماء أجلسته
بجوارها فجلس وأمسكت برأسه فأسلمه لها .. وأمسكت بذراعه
فسكت ثم وضعت أصابعها في حجره فاعتلى وجهه حمرة وتصيب
عرقاً .. وفاجأته قائلة :

- لماذا لا تتزوج ؟

- أنا أتزوج ؟ وفغر فاه .. ومن يتزوجني يا ستي ؟ في مرة فاتحت

سيدي بالزواج من خادمة كانت تعمل هنا .. فصفعني على

وجهي وطرد الخادمة .. وقال .. إنه لا يحق للعبيد مثلي أن

يتزوجوا .. ومن يومها يا سيدتي لا أجرؤ حتى على لفظ كلمة
زواج ..

- ولو قلت لك تزوج من أي خادمة هنا ..

- أنا يا سيدتي .. معقول .. يا سيدتي إن سيدي قال لا يحق لمثلي
أن يتزوج ..

- لقد مات سيدك ..

- إنه في كل مكان يا سيدتي .. أشعر أنه يراني الآن .. وأنا خائف
منه يا سيدتي .. أنا خائف منه .. أشعر أنه سيضربني بل
سيقتلني لأنني أدخل غرفتك ..

- لقد مات .. مات ولن يعود يا برهوم ..

- لكنني أشعر أنه حي وسوف يدخل علينا في يوم ..

- هكذا كانت عبوديتك .. حتى بعد الموت تخافون من أسيادكم ..

وأمسكت بذراعه بقوة وشدته إلى صدرها فأوى إليها ودفن
رأسه في الفراش كأنه يحمي نفسه من أصابعها
وهمست في أذنه قائلة :

- سأزوجك الخادمة ..

- أ .. أنا .. لقد ذهبت ..

- أي خادمة ؟

- لا يعجبني واحدة هنا ..

- إذا فانت تحب .. وهل تعرف الحب ..

- يا سيدتي إن لي قلباً مثل الناس جميعاً ..

- أليست قلوب العبيد عبيداً ؟

- والله يا سيدتي إنني أعرف أن قلوب الناس حرة ومهما كان العبد

عبداً لسيده .. فإن قلوب العبيد حرة لأنها خاضعة لله وحده ..

وهذا مجال الحرية والرحمة للعبيد مثلي .. إن السادة يا سيدتي

لا يملكون غير السطح والشيء الزائل .. المادي الباهت .. فأنا

أنحني وأقول حاضر وأترك وجهي لسيدي يصفعني .. وقلبي

يكره كل هذا الزائف .. القلب يا سيدتي لا يحب إلا كل معنى

سام ونبيل .. وقلب العبد دائماً لا يحب سيده .. والسادة ليس

لهم إلا السنة الطاعة العمياء .. وهي كاذبة ..

وتركته يقول وهي تلعب بأصابعها في حجره .. وبرهوم

مازال ينحني ويدفن رأسه في الفراش .. واسترسل قائلاً ..

- السادة يا سيدتي ليس لهم قلوب فأنت تجدينهم بلا رحمة ..

السادة في هذا الزمان يملكون المال .. وكل هؤلاء السادة كانوا

حفاة عراة ورعاة للشاه .. والسادة الحقيقيون إنقرضوا .. لقد

ماتوا ولكننا لا نعرف أماكنهم .. والدائرة النظيفة في مدينة

كهذه .. لا تفكرُ أن تجديها في الحي الفقير .. فالشيخ

والقسيس يقطنون في الحي الفقير ويعيشون حياتهم .. والناس

في الحي الغني سادة وعبيد والدائرة النظيفة تجدينها في

إحسان الغني على الفقير مثلاً .. أو في معاملة طيبة من سيد

لعبد .. لكن ذلك كله ينقرض يا سيدتي .. يا سيدتي الفاضلة

أتوسل إليك فإن هناك دائرة نظيفة في ذلك الكوخ الصغير بيني

وبين الله .. دعيني أذهب يا سيدتي أعمر هذه الدائرة .. صحيح
أنا عبدك لا أستطيع أن أخالف لك أمراً .. ولكن أمر الله أقوى
وأبقى .. أرجوك .. وأنا مازلت أنحني .. دعيني أذهب إلى
الكوخ ..

- أنت غير متعود على الأماكن النظيفة .. سأتترك تذهب ولكن
عندما أدق الجرس بعد قليل من الوقت أريدك هنا في لحظة ..

- لقد تعبت الليلة يا سيدتي وأريد أن ألتقي مع ربي ..
- أنت عبدي وملك لي ويمكن أن أخصص لك ساعات ولتكن آخر
الليل مع ربك .. أما باقي اليوم والليل فستكون معي .. هل
تسمع أيها العبد ؟

- أسمع يا سيدتي أسمع .. أريد أن أذهب إلى دورة المياه ..
فدفعته .. وجري نحو الباب ولما تأكد من أنها لن تراه .. أخذ
يضرب على رأسه حتى وصل كوخه .. يا خسارتي .. يا خرابي
سوف أذهب إلى مكان الليلة وفي الصباح يجعل الله مخرجاً
لكربتني .. ودخل كوخه وأخذ بطانيته وخرج ثم قفل الباب وهو
يرتعش وجال ببصره نحو القصر واقترب من الباب الكبير وفتحه ثم
قفله ولف جسده ورأسه بالغطاء ومشى قليلاً حتى ميدان صغير
وطرق باب أحد القصور .. ولما رد عليه العبد بالداخل قال :

- إفتح أنا برهوم .. أنا برهوم ..

واقترب العبد من الباب وهو مندهش :

- ماذا بك يا برهوم ..

- أدخلني أناام معك الليلة ..

- وبينك .. هل حدث شيء ..

- لا شيء .. إن في كوكبي ثعبان كبير ولا أستطيع قتله في هذا الليل المظلم .. فقفلت عليه الباب حتى لا يؤذي أحداً وفي الصباح يفرجها المولى عز وجل ..

وقدّم له زميله طعاماً فأكل منه .. لكن اللقمة كانت تنحسر في زوره .. وطلب أن يتوضأ .. وتوضأ من صنبور مياه بالحديقة وصلى .. وأخذ يصلي حتى بعد إنتصاف الليل ثم نام حتى الصباح .. ولما صدحت الشمس ذهب إلى قصره .. وماكاد يدخل إلى كوكبه حتى دق الجرس فانقلب إلى سيدته مسرعاً .. وفي لحظات كان برهوم يدنو منها وسأله أين كان .. وفيما بينها وبين نفسها تعرف أنه هرب منها .. إنه لم يغادر الغرفة من منتصف ليلة البارحة حتى هذا الصباح العالي إلا من أجل أن يكون بعيداً عن أمر سيدته .. فقال وهو يتلعثم .. كان زميلي في قصر القطان مريضاً .. كنت أزوره يا سيدتي ..

وقامت إليه وضربته بقبضة يدها في صدره .. منذ ليلة أمس حتى الصباح وأنت تزوره يا كلب .. ولماذا لم تخبرني بذلك .. سوف أؤدبك يا صرصار .. وطوّحت بيدها نحو الباب الكبير قائلة :

- إذهب عند الباب واصرف الخدم ولا تجعلهن يدخلن البيت هذا اليوم ..

- هل أخبرهم أن لا يعودون أبداً ..

- لا .. لا .. اليوم فقط .. قل لهم أن الست لا تريدكم اليوم ..

وأخبر برهوم الخدم ما أمرته به سيدته .. ولما دخل عليها

وجدها عارية في فراشها فانقلب نحو الباب يجري .. فصرخت فيه
قائلة :

- هات الكرباج من المطبخ القديم ..

- حاضر يا سيدتي ..

وكانت في الحديقة غرفة صغيرة تقع بجوار الباب الخلفي
للقصر إتخذوها من قبل مربطاً للفرس أيام الجد الكبير .. ولما
جاءها بالكرباج أمرته أن يذهب إلى تلك الغرفة .. وتبعته بعد قليل
بعد أن وضعت على جسدها العاري روباً من القماش الأسود ولما
دخلت إليه وجدته يقف في مكان الفرس .. وقالت له إجلس على
الحجر .. فجلس على حجر كان يتخذه الأجير مقعداً وهو يناول
الفرس طعامه .. وكان وجهه إلى الحائط فقالت له :

- أنظر إلي ..

فاستدار نحوها في حياء .. فخلعت روبيها الأسود .. وحيأوه
هو حيأوه وأدبه هو أدبه .. فلم يتغير لما رأى سيدته عارية أمامه ..
كل شيء فيها عار .. فنظر إلى الأرض التي كانت وسخة ولم تنظف
من زمن بعيد في حياء أشد .. ولما وجدته كالحجر الأصم لا حراك
فيه قالت له وهي تطوح بالكرباج وتسقط به على رأسه ووجهه :

- أنت حيوان سافل ، هل تعرف من أنا ؟

فأمسك برأسه يحميها وانخرط في البكاء وقال :

- أنت سيدتي وتاج رأسي وكل شيء ..

ومرة أخرى سقطت بالكرباج على جسده ..

- ولما كنت سيدتك لماذا لا تطع أوامري

- أطيعها يا سيدتي في كل شيء .. ولكني .. ولكني يا سيدتي ليس

لي في ما يملكه رجال المدينة ..

- لكنني وجدت فيك قوة لا يجاريها رجل في المدينة ..
- أنا يا سيدتي أصلي وأعرف الله وبينني وبين ربي عمار لا ينقطع .. فكيف أهدم ذلك كله ..

- ولكنني سيدتك .. هل يجرو عبيدي أن يخالفني ..
- لكنه جل شأنه سيد الناس جميعاً .. وإن عذابه لشديد .. وهو صاحب الفضل الأعلى على العالمين .. أنا لا أقدر على عصيانه .. إن رجالاً آخرين غيري من السادة يستطيعون ذلك يا سيدتي لأنهم لا يعرفون الله ..

- سأعذبك حتى الموت .. حظيرة الفرس هذه ستكون مقبرتك يا برهوم ..

- ليس لي شيء في الدنيا أبكي عليه .. وإن موتي في سبيل مرضاة الله لكرم كبير لي .. وما فائدة أن أحيأ وأقترف الذنوب يا سيدتي .. إن ذلك ليس طريقي .. واضربييني حتى الموت ..
- لم أكن أتصور أن أجد في حياتي حيواناً جربوعاً مثلك .. فأنت فعلاً عبد حقير ..

- نعم يا سيدتي أنا عبد حقير وحيوان .. كل هذه المسميات لا تهمني .. ولكنني قد أكون عند الله من المقبولين .. أنا يا سيدتي كنت أتحمل الآلام حتى آخر استطاعتي .. لأظل في هذا البيت .. يا سيدتي الفاضلة .. ألا تعتقيني لوجه الله ولك عندي أن أترك قصرك إلى أي مكان في أرض الله الواسعة .. هذا رجائي

يا سيدتي وأنا أعرف أن فضلك على الناس كثير ولن تبخلي على عبدك بهذا الكرم ..

وانهارت تقذفه بالألفاظ وتضربه بقسوة على رأسه وجسده حتى سال الدم في وجهه .. واقتربت منه قائلة .. هل مازلت عند رأيك ؟ أستطيع الآن أن أعفو عنك .. تعال معي إلى الفراش الآن أريدك الآن بألك وبدمك وبأوجاعك .. إذا لم تكن تريد فراشي التنظيف .. تعال إلى غرفتك .. تعال الآن يا برهوم أريدك يا برهوم وارتعشت واحتضنته تمسح دمه بقميصها وبكفي يديها .. بل ومسحته بوجهها وركعت تحت قدميه تمسك به .. وكان يبعتها برفق قائلاً .. أرجوك يا سيدتي .. ربي ربي .. ربي يا سيدتي .. دعيني يا سيدتي .. لا أستطيع ذلك إلا بالحلال .. بالحلال يا سيدتي .. وأخذت تضربه بيديها على جسده ووجهه وتقول :

- يا لك من مجنون مجنون .. وهل أتزوجك أنت ؟ أنت ؟

- عفواً يا سيدتي .. أقول أنني لا أستطيع أن أفعل إلا بحلال الله ..

أعرف مقامي يا سيدتي فانا لا أستطيع أن أتزوج حتى عبدة

مثلي إلا بإذن منك .. أعرف ..

ولما كان العبد قوياً يمسك بكفي يديها بكف يده الواحدة

ويبعدها عنه فكانت تبصق في وجهه .. ولما كان لا يستطيع أن

يقاومها وانهارت قواه .. جرى نحو الباب وتركها .. تركها مذهولة

كالمجنونة تهذي وتلطم خديها ولم تستطع أن تجري خلفه فقد

انهارت من شدة اليأس مع عبدها .. وخرجت من حظيرة الفرس

واتجت نحو سلم خلفي يُفضي إلى غرف قديمة ، وكان كل ما

ملابسها دماء ويدها ووجهها حتى قدمها بها آثار دماء .. ولما

وصلت إلى الرواق أغلقت الباب الذي يفصل هذا الجانب القديم عن بقية البيت الكبير .. ودقت الساعة الثانية عشرة قبل الظهر وفتحت دولا بها وتناولت ملابس نظيفة ودخلت الحمام وما زالت عيونها تسيل منها الدموع بغزارة .. ولما إنتهت دخلت إلى المطبخ وتناولت بعض الطعام بعدها ذهبت إلى غرفتها ودقت الجرس .. ولم يأتها أحد .. فدقته ثانية وانتظرت طويلاً .. وذهبت إليه ودفعت الباب فوجدت الغرفة خالية .. ونادت .. يا برهوم .. يا برهوم .. لا أحد .. يا إلهي .. أين ذهب ؟ ولم تجد أثراً لأية ملابس له ولا حتى حذاءه ..

لقد إنطلق برهوم بعيداً إنه يسير الآن قرب حدود المدينة ولما إقترب من أطرافها خاف وعاد إلى سلامة الكاني وهناك قص عليه كل شيء .. فأخذه سلامة وأنزله في فندق السلام حتى يجد حلاً .. كانت فارعة الطول جميلة لها جيد رشيق وهذه البشرة البيضاء الصافية .. أما هاتان العينان السوداوان فقد بان عليهما آثار الحزن .. إن شيئاً جديداً يدخل عليها .. شيء مثل الخراب .. إن امرأة جميلة يموت منها رجل بعد رجل .. بلا طفل .. ورثت كثيراً من المال والأرض والعقارات .. تحاول إغتصاب عبدها .. لا تريد أن ترتبط برجل آخر ثري من المدينة فكفها الموت .. وقالت لنفسها كل هذا ولا أستطيع الحصول على عبد .. وكظمت غيظها وقررت أن تنتقم من العبد .. وخابرت أمها وشقيقتها نيروز وعلم سلامة بإصرارها على أن تجد برهوم .. غير أن نيروز قالت لها كيف يجزؤ عبد على مغادرة قصر سيدته .. وقالت لسلامة :

- إن شيئاً قوياً جعل برهوم يهجر القصر

- ماذا تقصدين ؟

- أعرف أنه رجل عابد يعرف الله .. هل حدث شيء ؟

إبتسم سلامة وقال :

- إذا كان حقاً ودعته ربما وهجر البيت من أجل ذلك .. فهو على حق ..

- وكيف يجرو عبد في المدينة على مخالفة أوامر سيده ..

- وهل هذا حق ؟ أن تأمر السيدة عبدها بذلك ؟

- في كل الأحوال مخالفة للطاعة ..

- وإذا كان ذلك مخالفة لله .. فهل يضل الناس حتى ينفذوا أوامر أسيادهم ..

- يا سلامة .. أنت تعرف أن ربما بلا رجل .. ماذا يحدث هل

إنهدمت الدنيا عندما تدعو العبد لذلك .. إنه عبد وهو مكلف بأن

يفعل كل شيء يأمره به سيده .. لماذا إذاً أسميناه عبداً ؟

- لو مات زوجك يا نيروز .. فهل يكون العبد مثل زوجك ؟

- لن يكون العبد زوجي أبداً .. لكن العبد في بيوتنا جميعاً يقضي

أي شيء ..

- ولكني لا أعرف ذلك إلا الآن .. وكنت أتمنى ألا يكون هذا رأيك ..

- هذا ليس رأيي لكن هذا ما يحدث في هذه المدينة .. أقصد في

هذه البيوت ..

- وهل هذا صحيح يا نيروز ؟

- لست حاكمة في هذه البلدة .. ولن أكون أبداً حاكمة .. وإذا

حكمت فسوف أحكم بما يريده الناس ..

- ولماذا نزلت الأديان إذا ؟ ألم تنزل حتى تسير على طريق مستقيم ؟ لماذا هذا الضلال ؟

- إذهب يا سلامة واطرق باب كل بيت .. وبشّر بينهم بالعدل والحكمة والطريق المستقيم .. وأقول لك من الآن لو فعلت فسوف يقتلونك يا سلامة .. يا سلامة يا زوجي ويا والد طفلي عش كما يعيش أهل المدينة .. هل أنت أفضل من شيخ وقسيس يعيشان في المدينة .. إذهب هناك في الحي الفقير وسوف ترى كيف يعيشون ..

وحاول سلامة أن يكون هادئاً وأن يمسك بتلابيب نفسه وحتى لا يضربها مرة ثانية .. إنه الآن وبعد هذه الحقائق في حاجة إلى الحكمة والتدبر وأن الإنسحاب بهدوء هو الحل الوحيد .. وقال لها وهو يجلس قبالتها متظاهراً بقبول الأمر والإذعان له :

- هل يعيشون كما يعيش الناس ؟

- كما يعيش الناس .. ويحكمون في الأمور بما تهوى الناس ..

- كان عليهم أن يحكموا بما أمر الله ..

- هل ترى شيخاً وقسيساً قد تحالفا في مدينة .. أنا لا أعرف لأنني لم أر غير هذه المدينة .. لكنهما رجلان واقعيان .. إنهما يريدان أن يعيشا في مدينة كهذه .. ولو حاول كل منهما أن يدعو بما أمر الله لكان كل منهما في عداد الموتي منذ زمن بعيد ..

- هكذا إذا كل شيء يخضع للحياة .. فمن أجل الحياة نفعل كل شيء ونحلّه ونقبله ..

- وهكذا كان العبيد وكانت البيوت التي يعيشون فيها ..

- البيت يملك العبيد والعبيد يملكون البيت .. والسادة عبيد والعبيد سادة ..

- لا السيد سيد .. والعبد عبد ..

- أقصد أن العبد يفعل كل شيء من أجل سيده .. وأن العبد في كل بيت عاشق لسيده الجميلة في أي وقت ..

- إنه عبد يا سلامة إشتراه السيد من سوق العبيد حتى يكون عبداً لسيده وبيده ..

- وهل هناك سوق للعبيد يا نيروز ..

- سوق العبيد هناك بين جبلين عند الحدود .. هناك البائعون ومئات العبيد رجالاً ونساءً

- ألا أستطيع أن أكون عبداً يا نيروز ..

- وكيف تفعل ذلك وأنت سيد ؟ بل سيد في قصر صديق يحيى ؟

- أريد أن أكون عبداً لأنني أريد أن أعيش كما يعيش العبيد .. وأن أدخل في كل قصر لأكون عبداً وعاشقاً لكل سيدة جميلة فيه ..

- إذا كنت تريد ذلك .. فهذه الأمنية بين يديك ..

- لا أرى شيئاً بين يدي .. لقد أصبحت أرى بصعوبة
- إذا حاولت أن تكون عبداً في قصر آخر .. فإن تلك ستكون
النهاية ..
- ولما كان قد وضع قراره لأنه لا بد من الهدوء والتريث .. إن هدفه في النهاية أن ينسحب في هدوء .. إقترب منها وقال وهو يضع أصابعه على ذراعها :
- أنت تعترفين في النهاية بأنني عبد في قصرك ..
وتلعثمت وقالت :
- أنت والد طفلي ولن تكون في يوم من هؤلاء العبيد .. إنك .. إنك ..
- إنني أرقى من العبيد درجة ..
- درجات .. أنت من السادة يا سلامة طالما تزوجت من امرأة مثلي .. أنت سيد الناس جميعاً وأنا التي أسيّدك ..
- إن الله قد سيّد الناس جميعاً .. وإن الناس جميعاً قد خلقهم الله من نفس واحدة .. وإن مسألة العبد والسادة التي صنعها الناس في تلك المدينة هي ضلال هؤلاء القوم في تلك الأرض .. وإن عليّ إن كنت حراً حقيقياً أن أختار طريقي ..
- وأي طريق تريد .. ماذا تريد بعد .. زوجة وطفلاً وقصراً وشركة .. لماذا تدنو دائماً إلى تحت .. إن العبيد هم الذين يأتون بمثل هذه الأفكار .. لماذا لا تتحرّر ..
- الحرية في نظرك أن أسير في ضلال وأن أئوس على الحق .. وأن أعيش كما يعيش الناس بعيداً عن الله ..

- الحرية أن تعيش بدون تلك الأفكار .. الحرية أن تصعد إلى أعلى .. وأن يكون في قصرك كثير من العبيد .. الحرية أن تضرب هؤلاء العبيد بكل ما أوتيت من قوة حتى يكونوا تحت سلطانك ويفعلون لك ما تريد في عبودية .. الحرية أن تكون فوق رؤوس الناس جميعاً بكل قوة ولن يتحقق ذلك إلا بكثير من المال وبالتحرر من أفكار الدين ..

- التحرر من أفكار الدين .. ولماذا نزل الرسل محمد وعيسى وموسى ؟ لماذا نزلوا برسالات الله إلى البشر .. ألم ينزلوا من أجل الحق والعدل .. لقد نزلوا من عند الله برسالات الحب والأمن والنور حتى لا يضل الناس .. إن امرأة مثلك قد شملها الضلال ويبدو أن نساء المدينة كلها في مثل هذه الدرجة من السوء .. وأن رجالها أكثر .. وإن عليّ يا ابنة السادة أن أعود .. إن ما في رأسي فعلاً هو ميل شديد لرفع الظلم عن البشر ويبدو أنني لا أستطيع وحدي في هذه المدينة .. وسوف أذهب إلى أرض أخرى من أرض الله عسى أن يكون فيها سعة ورحاب لتلك الأفكار العادلة ..

- إن خروجك من المدينة مستحيل .. إننا نملك المدينة ومن عليها .. لا أحد يقدر علينا ..

- إنه شيء مخزن يدعو إلى الأسى الشديد .. فإذا استمرت تلك الحياة أن أعيش حياة بلا فائدة منها .. وخروجي من دراكم

مستحيل .. فإلى أين يكون مخرجي ؟ وكيف تقبلين أن تعيشي مع رجل لا يقبلك بعد هذا اليوم .. والله إنني سأكون أكبر عبد في تلك البيوت إذا قبلت أن أحيا هذه الحياة ..

- دعك من تلك الأفكار .. إن تلك الهواجس المخبولة التي تعيش بها .. من عدل وحرية إلى آخر تلك المتاهات .. هذه مسالك الفقر والجوع .. وإنك ستكون عبداً حقيقياً إذا بقيت تلك الشعارات في رأسك .. إن حريتك في هذه المدينة ومعني أنا .. إنك تعيش في ظل أبي ..

- أحمد الله أنني ما زلت أملك حريتي .. وأن بيني وبين الله عمار كبير .. فأتأ أصلي كثيراً من الليل وأقرأ كتاب الله .. وفي قلبي كثير من العبودية لله وحده .. وعلى ذلك فأني حر حقيقي .. وإن الله سبحانه وتعالى سيجعل لي مخرجاً ..

- إن حدود المدينة كلها من صباح الغد سيكون لديها إسمك .. إنك لن تخرج من المدينة إلا بأمرني ..

- هكذا ظهرت القوة وبيان البطش والتسلط .. بأي شيء تحكمون على الناس وتستعبدونهم .. إنني أيتها المرأة السافلة .. لن أحاول الهروب من مدينتكم .. ولكنني سأخرج بأمر الله وحده .. وكل ما سافعله أنني سأدعو الله وأنا أتعبد له .. وإن أمر الله سوف ينزل وينفذ .. فهل يستطيع أحد أن يقف أمام أمره ..

- إن الله خلق هذه المدينة وهؤلاء أهلها .. والدليل على أنه يرضى عنها .. أن كل الناس في المدينة يعيشون في رخاء وهناء ..

وماذا تكون ؟ أنت الذي تريد أن تخرج منها .. إن هذه المدينة وهذه البيوت وهؤلاء أهلها منذ عهود قديمة .. فلماذا هذا التمرد ؟ ألا ترضي بأن تكون واحداً من أهلها ؟

- وهل أَرْضَى بالضلال .. وهل أقبل زوجة تؤمن بأن العبد في بيته يعمل لها أي شيء في أي وقت تريد .. وأن هذه هي مهمة العبد الأولى .. وأن على برهوم عبد ربما أن يكون طيعاً لسيدته في أي شيء خاصة وأنها بلا زوج .. أي أفكار هذه .. ومنك أنت التي كنت أعتبرها امرأة غير كل النساء .. غيّرِي تلك الأفكار لاكون لك كل شيء .. إن عليك أن تؤمني .. وإن يكون إيمانك إلا إذا أيقنت تماماً واستطعت أن تفرقي بين الرزيلة والفضيلة والخير والشر .. وهذه هي الإنسانية في أجل صورها .. وما فائدة الغنى الذي تعيشون فيه إذا كنتم في ضلال ..

- نحن لنا مقياس آخر .. إن الله يعطينا كثيراً من الرزق والخير وهذا دليل على أنه يرضى عنا ..

وضحك سلامة وسخر من قولها الساذج ..

- إن الله يعميكم في ضلالكم .. لأنكم تنغمسون في الحيوانية وتعيشون في سراديب الجهل والظلام .. لقد أعطاكم حتى تنغمسون في ضلالكم ويكون عذابكم شديداً .. وماذا أعطاكم .. أين الرجال في مدينتكم .. إن مدينة يسهر معظم نساؤها في الملاهي والفنادق من أجل رجل آخر الليل لا خير فيها .. إن مدينة تشتري العبد من سوق العبيد ليقوم بدور خطير في بيوتها

لشيء فظيع .. إن مدينة يضل فيها الشيخ والقسيس لا أمل فيها
.. ما هذه المدينة ؟

- هذه المدينة مدينة الله .. لقد خلقنا الله بشراً ولم يخلقنا أنبياءً ..
إنك مجنون يا سلامة عليك أن تكون عاقلاً ..

وخفض بصره إلى الأرض وكأن شيئاً يخنقه ثم جال ببصره
إلى طفله الذي يلعب في فراشه ، واستغفر في نفسه ومشى خطوات
إلى النافذة وحاول كتمان حزنه الشديد عليها .. لكن الأسى كان
يملاً حلقه .. ثم عاد إليها قائلاً وهو يخرج من الغرفة :

- إن في ميسوري أن أقول .. سأعيش مثل الناس في المدينة ..
ولكنني لا أستطيع أن أقول شيئاً مستحيلاً حتى ولو كان الثمن
عدم رؤية إبني مدى الحياة ..

وأثارت كلماته سخطها عليه والتهبت مشاعرها نحوه وانفعلت
وقالت بصوت عال حتى يسمعه :

- يا ربيب الفنادق .. ليس في مقدور من هم مثلك أن يعيشوا في
القصور ..

وهاتفق والداها في المكتب فرداً عليها أحد العاملين وأخبرها
بأنه ذهب إلى البيت لمرضه .. وسألت عنه في البيت فأخبرتها أمها
بأنه لا يتكلم ويهذي بكلمات غير مفهومه وأن الطبيب وخزه إبرة
لينام .. وارتدت ملابسها وحملت طفلها وفي دقائق كانت في بيت
أبيها .. ومشى سلامة في الشوارع قاصداً فندق السلام .. كان
يتظاهر بالقوة لكنه كان يترنح ويكاد يقع لأنه كان يرى أن هجرته
إلى مدينة أخرى أمر شديد عليه لتركه إبنه .. ولم يكن في يوم

يعتقد أن تعامله نيروز كما عاملته رباب وكان يعتقد أنها من طراز
يختلف عن كل أهل المدينة .. وهناك وجد برهوم يساعد الطباخ
أسامة محمد في عمله بمطبخ الفندق وسعد لذلك كثيراً .. وحجز
غرفة في النزل ونام ليلتين لم يتصل فيها بزوجه .. واعتقدت نيروز
أنه غادر المدينة .. وكانت صحة والدها قد تحسنت قليلاً فأخبرته
بما حدث بينها وبين سلامة فأمسك بالهاتف واتصل بالمسؤولين عن
منافذ المدينة ليخبرهم بعدم خروج سلامة الكاني من المدينة إلى أي
جهة أخرى .. ثم إتصل بالشرطة للبحث عنه في داخل المدينة .. ولما
وجدوه في أوتيل السلام أخبروا السيد صديق بذلك فأمروهم بإعادته
بالقوة .. غير أن سلامة طلب منهم عدم استخدام أي عنف معه ..
إنه سيعود طواعية إلى أي مكان يريدون .. وأعادوه إلى بيت نيروز
.. ودخل من الباب في حراسة ثلاثة من مخبري الشرطة المدنيين ..
ولما إطمأنوا إلى وصوله حتى عيون سيد القصر عادوا إلى أعمالهم
.. وكان سلامة يشعر بالحزن يملأ قلبه ولم ينبس بكلمة واحدة
وجلس قبالة طفله وجاءه محمد يمشي على قدميه قائلاً ..

- تاتا .. تاتا ..

ورفعه إلى قلبه وبكى الطفل وأسقط رأسه في وجه أبيه ..
وكان صراخ الطفل شديداً .. وبكاء سلامة من قلبه أشد من الدموع
التي تسيل بغزارة من عينيه .. واقتربت نيروز قائلة :

- أرايت من أنا ؟

وهز رأسه قائلاً في سخرية :

- أنت ملكة المدينة .. وتملكين الكثير أنت وأبوك .. وفي
استطاعتكما التتكيل بأهل المدينة جميعاً .. وقتلي .. كل شيء

تعملون .. لكنك لا تملكين أن أكون لك زوجاً بعد اليوم ..

- هل تعرف ماذا ستكون بعد اليوم .. ستكون .. وسكتت ..

- ماذا سأكون ؟

وافلت حوله مرتين .. ومشيت خطوات إلى دولا ب صغير
وسحبت منه حقيبة صغيرة وفتحتها وأخرجت منها كريباجاً قديماً ..
واقتربت منه وطوحت به في الهواء وقالت :

- إنني أستطيع أن أجلك بهذا الكريباج .. وأجعل لك سجناً في
هذا البيت .. ولن يثنيني أحد في هذا العالم عن ذلك .. لكنني
سأمنحك الفرصة ..

وحمل ولده بين يديه وقام إلى النافذة ورأى في السماء رحاباً
واسعة .. وأن هذه الرحاب تستطيع أن تحتويه .. وتمنى لو كان له
جناحان وطار بولده إلى قريته في كان .. إنه يريد أن يترك المدينة
ليس إلى مدينة أخرى لكن يتركها إلى مسقط رأسه إلى شنشور ..
يترك كل شيء حتى أمواله في بنك مدينة مصاليا .. وكانت تتكلم
لكنه لا يسمعها .. إنه لا يريد أن يسمع منها شيئاً ولا حتي أن
يلتفت إلى وجهها .. واقتربت منه وهي تطوح الكريباج فوق ظهره ..
والفتت إليها قائلاً :

- إن الطفل يشعر بما تفعله أمه في أبيه عودي إلى عقلك ..

- أي عقل ؟ ألم تقل أنك لن تعود لي زوجاً

- ليس بالقوة أكون زوجك .. وإذا أتيت بجلادي سجن الأندلس

لاكون لك زوجاً .. لن يستطيعوا .. إنهم يستطيعون فقط أن

أكون لك عبداً .. ولكن أليس في المدينة كثير من العبيد .. أنت
لست في حاجة إلى عبد آخر .. إنني حرياً نيروز وأعتقد بأن
هذا الطفل إبني .. والطفل سيكبر .. وسيعرف بأن أمه في يوم
عاملت أباه كالعبد ..

وفي اليوم التالي خرج إلى عمله وكلف واحداً من المحاسبين
ويدعى محروس سالم بحمل حقيبة بها أكثر من مائة ألف درهم
ويذهب إلى بنك مدينة مصاليا ليودعهم ويعود إلى عمله .. وفعل
محروس وعاد إلى عمله في اليوم التالي وزوده بقسيمة الإيداع ..
ولما عاد إلى قصر نيروز مساء ذلك اليوم وجدها تجلس على مقعد
بالصالة وقد عرت عن ساقبها .. وكان العبد دحروج يستحي مما
يفعله ولما دخل عليهما سلامة وجد العبد يدك قدم سيدته بحجر
أسود .. ولما اقترب سلامة منهما كاد يقع .. وعرّت عن ساقبها أكثر
وتسمرت يدا دحروج في الوعاء ولم يستطع أن يجول ببصره نحو
سيده .. وضحكت بصوت عال ورفعت بساقبها اليمنى وضربت
دحروج في وجهه بقدمها وقالت :

- إدك يا عبد .. إدك ونظف قدمي يا ابن اللبوة ..

غير أن العبد لم يكن لديه أية قوة حتى يستمر وجري نحو
الباب وسيدته تتوعده .. وقال سلامة قبل أن يطرح بيده على
وجهها :

- أكبر ما فيك وقاحتك .. حقيقة أنت سافلة ..

وفي لحظة ملأت كفي يديها بالماء الوسخ ورمته فوق وجهه
ورأسه وكاد الماء يغطي وجهه حتى صرخ بصوت عال :

- وماذا يبقيني بعد في هذا البيت ؟ غداً ماذا ستفعلين مع العبد ؟
هل أدخل هنا بعد اليوم لأرى مهانة أكبر .. سوف أرحل الآن
من هذا البيت الملعون .. سوف أرحل ..

واجتاز الدرج بسرعة إلى دوابه ورمى بملابسه في أرضية
الغرفة وأخذ يملأ بها حقيبة كبيرة .. وجاءه ولده يمشي وبدلاً من أن
يقترب من أبيه إقترب من الحقيبة التي ملأها سلامة وأقفلها ..
وكانت يد الطفل تمسك بقفل الحقيبة وكأنه يحاول فتحه .. وجاءت
إليه تصرخ وتلطم خديها وأمسكت به من قميصه وصرخت قائلة :

- ماذا تفعل ؟ ماذا تفعل ؟

ودفعها بعيداً عنه بقوة فوقعت على الأرض .. وقامت واندفعت
نحوه ..

- لا تكن مجنوناً إنك لن تستطيع .. لن تستطيع أن تغادر المدينة ..
- سأغادر هذا البيت .. يكفيني أن أغادر هذا البيت .. إلى أي
مكان .. سأبحث عن .. عن ..

- لقد فعلت ذلك حتى ترى كيف يكون العبد في بيوتنا ..

- أليس العبد رجلاً .. رجلاً ليس زوجك يدعك ساقيك ويدلكهما ..
يا لها من مصيبة وكارثة .. تتعيرين أمام العبد بهذا الشكل
وتتركين له جسدك يراه ويمسك به .. بالله عليك .. هل تكوني
سيدة هذا العبد بعد ذلك .. إذا إنكشف عليك العبد هكذا .. هل
يشعر هذا العبد بعبودية بعد هذا ؟ إن سيدته عادت بين يديه ..
وينشأ ابني في كنف أم .. لا يعرف إن كانت سيدة أو كانت

عبدة .. إنك لن تصبحي سيدة بعد ذلك أبداً .. إن العبد بعد أن جعلته يفعل ذلك معك .. أصبحت أنت وأبنك وهذا القصر كله ملكاً لهذا العبد .. إنكم تسيّدون عبيدكم بهذه الأفعال وتجعلون منكم أخطأ أهل الأرض .. إن السيادة الحقيقية أن تعيش المرأة بشرفها لا يرى أي رجل ظفر قدمها غير زوجها .. غير زوجها .. لقد خلطتم الأمور بعضها ببعض وليس لكم من السيادة بعد ذلك شيء .. والله إنه من الحق أن تنزل عدالة .. وكنت أظن قبل هذا اليوم أنني سأجمع عبيد هذه المدينة ليحطموا تلك القصور .. ولكنني تأكدت اليوم أنه ليس كل العبيد يقدرّون على ذلك .. وأن كثيراً منهم يرضون بهذا الأمر .. ويطمحون أن يظلّوا عبيد هذه القصور إلى الأبد ..

وقالت وكأنها ترجوه وكانت تقترب منه .. لكنه كان يبعد عنها :

- إنك لن تستطيع أن تجعل العبيد يفعلون ذلك .. إن مدينتنا قد بنيت على ذلك منذ عهد بعيد ..

- أستطيع أن أذهب إلى مدينة أخرى لآتي بناس آخرين يستطيعون معي أن يحطموا تلك الأغلال والأسوار والأبواب ..

- إنك لن تستطيع ذلك لأن أبي وغيره الذين يحرسون تلك المدينة لن يسمحوا بأن يدخل هؤلاء القوم هنا .. وإذا دخلوا فإننا نستطيع أن نجعلهم جميعاً عبيداً كما ترى .. إن كل أهل المدن حولنا فقراء بطونهم خاوية لا يستطيعون أن يفعلوا .. وماذا ستعطيهم

أنت حتى يفعلوا .. لكنهم إذا دخلوا سنملاً فراغ بطونهم
فيصبحون في لحظة عبيداً .. عبيداً لهذه القصور وأستطيع أن
أحوي في هذا القصر وحده عشرة منهم ..

- والله لو خرجتم من بيوتكم هذه وأقمتم بيوتاً أخرى من القش
والبوص كان لكم نصيب من السيادة أكثر .. أطلقوا سراح
العبيد من بيوتكم .. حرروا العبيد في بيوتكم ..

- هذه شعارات لا يفهمها كل أهل المدينة .. ولو جئت بكرابيج
العالم كله لتخرج هؤلاء العبيد ففي هذه البيوت الكبيرة حريتهم
وسيادتهم ..

- لقد خرج برهوم من قصر ريماء حراً يرفض الزنا الذي يغضب
الله .. لقد فضل العراء عن القصر .. لأنه يعرف الله ..

- أتيت الإجابة بنفسك .. ليس كل العبيد يعرفون الله ويتعبون كما
كان يفعل برهوم .. لا فائدة من الحديث معك .. أستحلفك بهذا
الطفل البريء الصغير الذي لم ير ضلال هذه الدنيا بعد ..
أستحلفك بأي شيء كان بيننا طيباً أن تجعلهم يخرجوني من
هذه المدينة ..

- لا أستطيع أن أفعل لك ما يضرني .. لقد أصبحت في نظري
أكبر عبيد هذه المدينة .. لقد عملت لك كل هذا حتى يكون كل
شيء فيك ملكي أنا .. فكر في واقع تلك الحياة سوف ترى أن
قيمنا وتقاليدينا التي نعيش بها أفضل كثيراً من تلك التي تريد

بها أن تحرر مدينة كهذه .. إنهم سيقتلونك لو عرفوا ما في رأسك من جنون ..

إقترب منها وكأنه يرجوها :

- أرجوك سوف أترك لك إبني لكن اتركيني حراً أخرج من هذه المدينة ..

- لو رضيت أنا .. فإن أبي لن يرضى .. لأنه هو الذي فعل لك كل هذا بأمواله فكيف يتركك .. إنه سيجعلك عبداً لإبنته بكل قوته ولن تقدر على أبي أبداً مهما علا صراخك ..

- وماذا لو دخلت قصر ك مرة أخرى ووجدت هذا العبد يعاشرك معاشرة الأزواج ..

فهزت رأسها وضحكت بصوت عال :

- إنه لن يفعل الآن أكثر من أن يدعك قدمي بالحجر .. ولكن بفرض أن أبي وأنا عتقناك وذهبنا فلا تتركني حتى لا يفعل .. إنني لن أتزوج مرة أخرى لأنه لا يوجد في مدينتي غير الرجال الكبار وإذا تزوجت منهم فإني سأستخدم عبيد هؤلاء الأزواج .. إنني في قصري سيدة وأستطيع أن آتي بكثير من العبيد .. فإذا أردت لهذا القصر مزيداً من الحرية والسيادة كما تدعي .. فلا تترك هذا القصر أبداً .. إن هذه يا سلامة هي الحرية الحقيقية والسيادة الحقيقية إذا أردت أن تتعلم شيئاً في هذه الحياة .. عش في قصري وأقبل الحياة ..

- هكذا إذاً قيم تلك المدينة علي أن أبقى في القصر .. حتى لا

تستخدم زوجتي عبدا ..

وتركها وخرج إلى الردهة يتحدث مع نفسه .. بالتهديد والخوف .. ولولا إبني لما أفكر في هذا الأمر لحظة .. هل يكبر إبني ويرى العبد عاشقاً لأمه .. هل أختار حريتي وحدي بمقياسي .. أم أخضع لحرية هذه المدينة .. هل أبقى في هذا البيت حتى يرى إبني أن والده هو العاشق الوحيد لأمه .. أم أترك هذا القصر بحثاً عن حريتي وأترك الذلة والمهانة لإبني .. هل عليّ أن أحمي إبني وأن أبقى في هذا القصر أجيراً لتلك القيم .. وقال وكأنه يحدث نفسه في صمت .. عليّ أن أحتمي في هذا القصر وأنحني وأكون رجلاً لسيدة منه .. حتى يأتي الوقت الذي تموت فيه قوة هؤلاء القوم .. فأهجر هذه المدينة أنا وإبني .. إنني لن أخذ مثل هذه المرأة معي .. وسوف أتركها سيدة في قصرها عاشقة لكل العبيد ..

وإندفع إلى الأمام وكاد يقع على الدرج .. لكنه فجأة وجد دحروج يقف عند باب البيت الداخلي منادياً عليه :

- أرجوك يا سيدي .. إسمعني لحظة .. أرجوك ..

وأمسك بكم قميصه فوقف مندهشاً :

- وماذا تريد أنت يا عبد ؟

قالها لأول مرة .. وكاد يضربه أو ييصق على وجهه لكنه حاول أن يمسك زمام نفسه ووقف إليه منصتاً :

- أنا .. أنا يا سيدي عبد .. شديد الأسف على طاعة أمر سيدتي .. أنا أعرف أنكم في بلادكم لا تستخدمون العبيد الرجال هكذا لنسائكم .. إنه كان يجب أن تقوم بذلك سعدية بنت منصور ..

لكنها يا سيدي أرادت أن تكيد لك .. مع أي رجل حتى ولو كان عبداً مثلي .. يا سيدي صدّقني إن أفضل بيت في المدينة هذا البيت .. وأن سيدتي نيروز لم تستخدم أبداً أياً من العبيد .. لقد عايشتها منذ أن كانت طفلة حتى كبرت .. إنها كانت تفعل يا سيدي شيئاً واحداً هو .. وسكت ..

- ما هو .. ما هو ..

- كانت تضرب العبيد من الرجال بقسوة .. أخذت هذه العادة عن أبيها .. ولو أخذت شيئاً واحداً من خصال سيدتي الكبيرة لما فعلت هذا .. يا سيدي إن سيدتي فاضلة ولم تعمل في حياتها بغيّاً .. وسبحان الله الذي خلق من ظهر الجاهل طاهراً .. يا سيدي إن أم زوجتك .. السيدة حميدة فودة وهي السيدة الوحيدة في قصور تلك المدينة التي تصلي وتزكي وتتقي الله وانهمر في بكاء شديد وانحنى نحو الأرض وكاد يقبل حذاه وقال وسلامة يمنعه من ذلك ..

- يا سيدي أرجو ألا أكون سبباً في ضيق بينك وبين سيدتي وإلا قتلت نفسي .. أرجوك يا سيدي لقد سمعت كل شيء دار بينكما .. ولشعوري بالذنب فالموت أقرب لي من أن أكون سبباً في أي ضرر بينك وبين البيت الذي كفلني وكفل أبي وجدي من قبل .. أنا يا سيدي عبد أمين .. أنا يا سيدي مثل برهوم عابد لله رب العالمين .. وأنا أحبك وأحب هذا البيت وقبل كل شيء .. فأنا حبيبي رب هذا العالم .. أرجوك تعال معي .. تعالى يا سيدي

فأنت مني .. وأنت قريب إلينا .. هكذا قال لي برهوم .. وأنا أراك قريباً من هؤلاء المظلومين الذين لا يستطيعون أن يقدموا في حياتهم إلا الولاء لأسيادهم .. تعال يا سيدي فإن في بيتي تحت القصر عالماً أريدك أن تراه وأن تحميني فيه ..

فاندesh سلامة إلى درجة جعلته ينسى ما كان فيه .. ونزل الدرج المظلم إلى بدروم القصر خلف دحروج وكانت الأضواء الباهتة التي تنبعث من مصابيح داخله تجعل هذا المكان مثل بيوت العائلات الكبيرة في كان والتي كانت تضاء بلمبة كيروسين .. لقد كان البيت نظيفاً وتنبعث منه رائحة بخور وتختلط به رائحة عطور .. لدرجة أن سلامة لما جلس على كنبه بالصالة .. شعر بأن هناك امرأة .. امرأة حقيقية تعيش في هذا البيت مع دحروج .. وفي لحظة دخل دحروج إلى الغرف ثم جاء إليه وجلس بالأرض على سجادة قديمة وأمسك بكف يده واستحلفه أن يهديه النصيحة فيما حدث له .. ولما أنبأه دحروج في أن في حياته شيئاً خطيراً .. ولم يجد في المدينة كلها من يطلعه على أمره غير سيده سلامة غريب هذه المدينة .. ولما حاول سلامة شد كف يده من بين راحتيه .. أمسك دحروج به أكثر وقال يا سيدي إنني أريد أن أستحلفك بكتاب الله لا تترك يدي :

- بالله العظيم .. ثم .. ثم برسول الله محمد .. وعيسى وموسى .. وبالحق لكل رسالات السماء في هذا العالم .. أحكم بيني وبين الله أولاً .. وسأرضي بحكمك وأنا في كل الأحوال عبدك وسأظل عبداً في هذا القصر ..

أخذ سلامة نفساً عميقاً وقال :

- يكفي .. يكفي هذا قل يا دحروج .. ساكون معك صادقاً وأميناً ..
قل ماذا ألم بك ؟

- في يوم توسلت إلى سيدتي نبروز بأن أتزوج من العبدة سعدية بنت منصور فضربتني على وجهي .. ولما كان تحقيق ذلك في العلن أمراً عيباً يستحق عليه العبد القتل وكان يا سيدي أمراً مستحيلاً أن يعيش رجل وامراً (في مكان كهذا دون معصية .. تروجت بها ..

- وهل أتيت بالقسيس والشيخ ليعقدا قرانكما كما يفعل أهل المدينة؟

- يا سيدي لا .. إنه ليس بشيخ لقد كان إماماً لأحد المساجد وانحرف فطرده إدارة المساجد بالمدينة .. فهو شيخ ضال .. ولم يعد شيخاً .. ولكن هذه شهرته ولقد بغى الآن وفسد وهو رجل عادي ككل الناس ولكن ماذا نفعل بالناس إنهم يطلقون على الناس ألقابهم الأولى .. والقسيس يا سيدي كان راعياً للكنيسة .. أحد الكنائس في الحي الفقير وانحرف كما انحرف الشيخ وطرده إدارة الكنائس بالمدينة .. وما انطبق على الشيخ إنطبق عليه .. إن عقود هذين الرجلين باطلة ولكن هناك رجل غني بالإيمان يعقد عقوداً يرضى عنها الله يدعى الشيخ سيد أحمد حبيب .. عقد علينا هذا الرجل الصالح منذ ثلاثة شهور .. عقد علينا في هذا البيت المستور الذي من به الله علينا وشاهدا هذا

الشيخ هما دائماً حداد سالم الصاوي وعبد الحميد السيد
القطان رجلان صالحان أيضاً .. وثلاثتهم يعملون من أجل
رضاء الله سبحانه وتعالى .. إنهم يفعلون ما ينفع البشر وما
يزيد من حرية العبيد والمظلومين في هذه المدينة ..

- وماذا لو حملت سعديّة ؟

- نعم يا سيدي لقد حملت وأتيت لها بطبيب صالح يدعى محمد
يسري وأكد لنا الحمل .. وهي ترتدي جلابيب واسعة حتى لا
تكشفها سيدتها من الآن .. والله يا سيدي أنا لا أعرف ما الذي
سيحدث لنا عندما تعرف بالأمر ..

- لقد فعلتم كل الخير .. كل الخير ..

- صحيح يا سيدي .. صحيح ..

- فعلتم ما يرضى عنه الله وهذا هو الحق

- وسيدتي .. وسيدي الكبير صديق ..

- لا يهم .. سيجعل الله لكم مخرجاً ..

- إن الموضوع لا ينتهي يا سيدي عند هذا الأمر ..

- سوف أصبر عليك .. قل يا دحروج .. أكمل ..

- إن رجلاً عبداً تعرفه أنت كان قد أخبرك بأمر يعيش معنا .. إنه

عبد صالح يا سيدي وكان يعمل عند سيّدة تعرفها أنت ..

- يعيش معك هنا .. وكيف تقبل أن يعيش معك وزوجتك رجل آخر ..

- إنه يعيش معنا وزوجته هي الأخرى تعيش معنا ...

- من هذا الرجل .. من هو ؟
- إنه .. إنه .. برهوم يا سيدي ..
- برهوم .. ووقف سلامة يمسك بشعره .. برهوم .. ومن أتى به ؟
- سيدته هي التي .. سيدته .. هي السيدة ..
- وصرخ سلامة وأمسك به وأخذ يهزه بعنف ..
- قل ماذا بعد ؟ ماذا تخبيء أيها العبد .. حقيقة أنت لست بعبد ..
- لا يمكن لعبد أن يفعل ما فعلت ..
- يا سيدي أنا عبد .. ولكنني عبد لله قبل أي شيء .. والله ينير
- طريقي ..
- هكذا إذاً أنتم العبيد في كل هذه القصور ..
- لقد أجبرتنا سادتنا أن نفعل هذا يا سيدي .. وما فعلنا شيئاً
- يعصى الله ..
- وهل تزوج برهوم من عبدة قصر آخر ..
- يا سيدي أرجوك .. أرجوك أن تمسك بتلابيب نفسك ..
- بتلابيب نفسي .. وصرخ للمرأة الثالثة تقريباً .. هل تزوج من
- سيدة هذا القصر ؟ هذا ما بقي من حالك معي اليوم .. تزوج
- من أي سيدة يا دحروج ؟
- تزوج من سيدة يا سيدي .. إنه لم يتزوج من عبده وهذه هي
- المفاجأة .. المفاجأة يا سيدي ..
- برهوم تزوج من سيدة .. ولما تزوج من سيذة لماذا يعيش هنا ..
- إن بإمكانه أن يعيش في قصر السيدة ..

- يا سيدي إن السيدة لا تستطيع أن تأخذه زوجاً في العلن .. وأن يعرف السادة أن سيدة منهم تزوجت عبداً .. إن السيدة يكفيها خمسة عبيد في قصرها .. هم لها ما تريد .. إن السادة يقبلون هذا فقط .. ولكن لا يقبلون زوجاً عبداً لسيدة ..

- في مدينة كهذه .. يخاف الناس من الناس .. ولا يخاف الناس من الله .. فأنت تخاف من سيدتك .. والسيدة زوجة برهوم تخاف من أهلها السادة .. ولكنكم أيها العبيد إذا كنتم تخافون الله حقاً .. فلماذا لا تعلنون عن قيمكم ومبادئكم ..

- إننا يا سيدي نخاف الله ولكننا نريد أن نعيش في المدينة .. وليس في مدينة أخرى .. ولا تنسى أننا فعلنا أشياء لم يكن أجدادنا قادرين عليها ..

- وهكذا سيظل العبيد عبيداً .. مازالت تنقصهم الشجاعة .. إنهم يطيعون في صمت .. ليسوا ثواراً .. يعرفون الله في صمت .. أم أنهم مازال أمامهم الكثير لكي يعرفوا الله ..

- يا سيدي إذا كان الناس سواسية كأسنان المشط .. فإنه ليس كل سنّة في هذا المشط بقوة السنّة الأخرى .. إن لكل سنّة جنود وحروف تختلف عن الأخرى .. يا سيدي لو كان كل الناس سواسية كأسنان المشط .. لكان كل الناس قد إهتدوا إلى قليل من القيم ولتغيرت كثير من مظاهر الحياة الرديئة .. إن هذه قيم نبيلة أكدتها رسالات الأنبياء .. وكان النبي محمد أول محرر

للعبيد في هذا العالم الضال .. لكن مازال هناك عبودية مستترة
وفي كل مكان في هذا العالم يوجد العبيد .. وسيظل ذلك حتى
تقوم القيامة .. إن الناس يا سيدي جبابرة وهم الذين لا يقبلون
أن يكون كل الناس سواسية ..

- بالله عليك وبعد هذه الفلسفة ... لقد ورمت رأسي .. من هي
السيدة التي تزوج بها برهوم .. ولماذا لا تنادي على برهوم
ليكلمني .. أدخل إليه وأخبره أنني أريده ..

- أه يا سيدي لقد أطلت عليك ولكنني أشعر براحة لا نهائية لأنني
أفضيت إليك بكل أسراري والراحة التي أشعر بها أنك أمين
عليها وأنت ستساعدنا نحن عبيد هذا البيت ..

- يتعين عليك أن توجز وأن تذهب لتأتي ببرهوم ..
فأرخص أصابعه أمام وجهه واتجه إلى الغرف وكان يتمتم
بكلمات غير مفهومة .. ولكن صوته كان يحمل طاقة غريبة شعر بها
سلامة وكأنها قنديل زيت لا ينطفئ .. إنه ذلك الصوت الخفيض
القوي الذي ينبض في داخل كل الذين يتألمون من ظلم الناس .. هو
الصوت الحي الذي يحمل شكواه إلى الله وحده .. وكان سلامة
يشعر بأن أجساماً غريبة تطفو داخل صدره .. أجسام تتلاطم فيه
كالموج .. القلق والخوف والاندحاش .. وخيل إليه في اللحظات التي
دخل فيها دحرج إلى الغرف .. أن رياحاً عالية شديدة قد تأتي
لحظة وتقصف بقصور هذه المدينة حتى يستطيع مثل هؤلاء أن
يخرجوا من مظالمهم .. وأن يبعث الله بحياة جديدة في كل المدن
بيدأها قوم آخرون .. وجاء برهوم ينحني كلما تقدم إليه .. وكان

يتمتع بصوت خفيض قائلاً :

- سيدي سلامة إني أجلك إني أحبك .. أرجوك لا تظلمني وأرحمني .. وإذا كان خطأي كبيراً فيما فعلت فانا أرضي بك قاضياً عليّ ..

- ولماذا الإنحناء يا برهوم .. فليس لي فضل عليك .. حتى تنحني وتطلب مني العفو .. وصاحب العفو موجود .. وماذا فعلت يا برهوم حتى أصبح قاضياً عليك ..

- لقد تعودت أن أخاف يا سيدي .. وكنت أخاف قبل أن أكون .. فكيف وأنا فعلتها .. كيف لا أخاف .. إني خائف حتى من زوجتي .. ولا أصدق حتى الآن أنا ذلك العبد .. أتزوج من السيدة الكبيرة .. يا سيدي هي التي تزوجتني .. أنا لم أفعل شيئاً .. إني لا أستطيع أن أواجه أي واحد في المدينة سيسخر مني العبيد وسيقتلني أي طفل من السادة وأنا لا أستطيع حتى أن أدافع عن نفسي وذلك لشعوري بإني إقترفت إثماً ..

- وكيف وأنت عابد لله تخاف من الناس ؟

- أنا عابد لله .. وكنت أريد أن أظل دائماً عابداً له في كوخ وحدي .. ذلك الكوخ في قصر السيدة ربما التي تزوجتني وأنت تعرفه يا سيدي .. إن سيدتي هي التي أتت بي من فندق السلام وجاءت بي إلى هنا .. إن سيدتي قالت بعد زواجي بها .. أنها لم تحب رجلاً كما أحببتني .. وأنا أسمع وأندهش .. ما الذي تحبه في .. وقالت سيدتي أيضاً أنها تعبد الله الآن وتصلّي لأنه أسبغ

عليها نعمة بزواجها مني .. إن سيدتي يا سيدي لا تريد أن تعود إلى قصرها .. وتريد أن تعيش معي في هذا البدروم طالما أنا موجود معها ..

وكان سلامة قد وقف من شدة المفاجأة وأخذ يدور حوله وهو لا يصدق .. أن المرأة التي أتت به من العاصمة وكان في يوم يتعناها زوجة .. تتزوج من عبد .. لكنه العبد الذي كان مع الله وكان الله معه .. وعليه فإنه ماذا يفعل .. إنه لن يفعل أي شيء إلا أن يكون صديقاً وعوناً لهما ..

ونادته من الداخل .. إنه صوت ريم .. نادته قائلة ..

- يا سلامة .. إنه الله قادر على كل شيء .. وإنه علينا أن نسعى .. وأنا سعيت .. إن زواجي من هذا الرجل كان مسعاي بعد أن رفض أن يعيش معي في الظلام .. لقد أحببت قوة إيمانه بالله التي لم أكن قد وصلت إليها من قبل .. عرفت من خلال هذا العبد الفقير المسكين قوة أن يكون الإنسان على معرفة قوية برب العالمين .. يا سلامة .. لن نتكلم في أية تفاصيل الآن ولا بعد الآن .. فإني لا أتكلم في أي تفاصيل إلا مع زوجي .. وليس لأحد علي في هذا العالم من حق إلا الله .. وفي هذه الأرض من بعد رب العرش العظيم .. إن السلطان لزوجي هذا العبد المؤمن .. سوف أعرف كيف أحرره وسوف أجعله سيداً .. سيداً حقيقياً .. إن ما سأفعله له هو سيادة الدنيا من مظهر وملبس وإطار خارجي كاذب .. سوف أفعل من أجله الكثير حتى يكون

سيداً مثل أسياد هذه المدينة .. لكنه في داخله هو سيد حقيقي
لأنه يعرف الله معرفة حقة .. وإنه لا يوجد أحد في المدينة في
مثل سيادة برهوم .. أقصد سيادته مع نفسه وعبادته القوية
لله ..

وهز سلامة رأسه وكان عليه أن يبدأ معها من آخر كلامها
فقال بصوت عال حتى تسمعه :

- أنا سعيد بزواجك من برهوم .. والله ما فعلت إلا الخير .. وإن
هذه المعاني النبيلة التي وصلت إليها لو حققت قليلاً منها في
هذا الواقع الأثم لكنت سيدة حقة .. ولكن يا سيدتي الفاضلة ..
ستجدين حرباً ضارية قد لا تقدرين عليها إذا أردت أن تحققي
ذلك في هذه المدينة ..

- وأين سأذهب إذا وهذه مدينتنا ؟

- في مدينة أخرى .. الهجرة يا سيدتي .. أرض الله واسعة
وستجدين في مدينة أخرى رزقاً وفيراً وحياة أفضل ولا داع
للحرب مع أهلك .. إنهم لن يقبلوا هذا .. وقد يقتلون زوجك .. يا
سيدتي هل تأتين معي وزوجك إلى مدينة أخرى ؟

وكانت تحدثه من خلف باب الغرفة .. ولما طرح عليها فكرة
الهجرة إنشرح قلبها وفكرت قليلاً وقالت :

- إنها فكرة جيدة .. لكن قصورنا وأموالنا وأراضينا ..

- إننا نستطيع حمل تلك الأموال وسنترك تلك القصور .. إنها لم
تفعل لكم شيئاً فلم تبكين عليها ..

- سوف أؤكل محامياً بالمدينة أن يبيعهاه وعلي أن أراجعه بين فترة وأخرى .

- إذاً هناك حلول لكل شيء ..

- عليك أن تدبر أمورك مع نيروز وإبتك أولاً .. ودعنا نحن في هذا القصر الساحر .. دعني أحب زوجي وأنعم به .. إنها أيام ممتعة حقاً ..

وجدت لفكرة سلامة في رأسها سحراً غريباً فتصوّرت أنها تعيش في غرفة مسدلة الستائر تتناثر في أرضيتها الزهور والخدم يأتون ويخرجون وهم يحملون ألة الطعام والشراب .. وكانت دائماً ترى في مرور الأيام عليها وهي تهناً ببرهوم أنها تركب زورقاً جميلاً يدور حول جزيرة مغلقة لم يدخلها أحد من قبل .. وكان صخب المدينة القديم يتلاشى يوماً بعد يوم وجبروت السيد صديق يصدأ على الحائط العتيق .. صحيح أصوات السادة يخبو وعواء الكلاب ونهيق الحمير .. إن كل الأصوات المزعجة تتلاشى .. إنها وبرهوم ينعمان ويتمرغان على فراشهما ويتعانقان في حب لم تذقه من قبل .. إنها تتمنى أن يقضي العمر كله في هذا المكان .. إن خريف الماء وحفيف النسيم بين الأشجار كان يدخل إليها وهي في تلك الغرفة مع زوجها .. لقد كان شيء جميل يدخل إليها وتشعر به قريباً منها .. وكأن الطبيعة تحمل إليها كل جميل .. إنها لم تكن تدري أي معنى للجمال من قبل وأن حياتها مع هذا الرجل الساحر جعلها تشعر بخدر لذيذ لا ينتهي .. وخيل إليها في ليلة أن ضياء القمر تطل على فراشهما ..

ومرت الأيام كان سلامة يدبر مع رفاقه العبيد أمر رحيلهم

من المدينة .. وهجر نيروز وكان ينام في غرفة أخرى ، وكان
كبرياؤها يمنعها عن أن تسأله عن سبب هجره لها .. وكانت تشكو
لأمها التي كانت تلقي اللوم عليها ، غير أنها في ليلة شعرت به
يتسلل من غرفته ويفتح الباب وينزل الدرج ، ولما حاولت أن تقوم من
فراشها لترى أين يذهب غلبها النوم .. وفي ليلة أخرى شعرت بأن
هناك أقداماً تزحف على الدرج ولما قامت قائلة :

- من بالباب ؟ من بالباب ؟

عاد سلامة مسرعاً إلى أعلا ونزل دحرج هلعاً إلى تحت ..
وقال سلامة وهو يفتح الباب بالمفتاح :

- أنا .. أنا .. لماذا إنزعجت ؟ كنت في طريقي إلى الحديقة ..
وقابلته عند الباب ..

- الحديقة .. ومن في الحديقة تنزل إليه ؟

- الزهور وأوراق الشجر الخضراء ..

- أنت تنزل كل ليلة .. هل الزهور تحولت إلى نساء ؟

- ألا يوجد في الدنيا غير النساء ؟

- أنت لا تحب غير النساء .. وكنت أحسب أنني المرأة التي تغنيك
عن نساء العالمين ..

- وأنت المرأة الذي دحك العبد ساقها أمامي .. وأنا أعتبر أن
ساقِي المرأة منطقة حرام قاصرة على الزوج .. وأعتبر أن ساقِي
المرأة هي روح جسدها ..

إن نيروز كانت تحمل أجمل ساق في المدينة

إن يد العبد لوئث هذا الجمال

إن يد العبد جعلت ساقيك عبدة
إن يد العبد أدخلت ساقيك السجن
إن يد العبد قبضت على روح جسدك ..
فماذا بقي منك ؟

لا شيء .. لا شيء بقي حتى أحبه ..
أنا حزين لأنني أجبرت أن أكره شيئاً كنت أحبه ..
وبكت نيروز بحرقة وارتمت علي صدره تقبله وتحضنه بيدها
وحاولت أن تقبل قدميه لكنه أثنأها عن ذلك قائلاً :
- كفى كفى .. دعيني الآن ..

وجاء الطفل يمسك بيد أبيه وكأنه يرجوه أن يغفر لأمه ..
وحمله أبوه إلى فراشه وظل بجانبه حتى نام .. وكانت نيروز تبكي
حتى قام إلى غرفته وتبعته قائلة ..

- إغفر لي .. إن الله يغفر ويسامح .. سامحني يا سلامة .. لا
أستطيع أن تجافيني بعد اليوم ..
فرجع إليها وقال :

- كيف وقد عقدت العزم على أمر ..
- أي أمر عزمت عليه ..

- عزمت على إقامة حواجز تفصل بيني وبين العالم الطائش ..
- هذا العالم أنت منه وحياته فيه .. وإذا كانت حرمة ساقِي غالية
لهذا الحد .. فنحن نستطيع أن نذهب إلى مكان نظهرها فيه أو
نقطع يد العبد أو نفقع عينيه ..

- إن الأعمال الطيبة وعدم الرجوع إلى الخطيئة هي الدليل القاطع

على التوبة ..

- لم أفعل شيئاً أتوب عليه .. لا توجد خطيئة بالمرة .. لقد كانت
مكيدة لك ..

- إعتقي هذا العبد ..

- كيف أعتقه وهو عبد أبي .. قل لأبي يعتقه ..

- هل طلب منك دحروج في يوم أن يتزوج من سعدية بنت منصور ؟
- نعم ..

- وماذا قلت له ..

- صفحته على وجهه ..

- إذا أردت أن تعلمي عملاً طيباً وافقي على زواجه ..

- إذا وافقت على ذلك فانه لا يستطيع ولا هي القيام بخدمتنا على
الوجه الاكمل ..

- دعيهما يتزوجان ويخدماك على وجه مقبول خيراً من أن يعيش
كلاهما مع الآخر في معصية الله ..

- أنا لا أستطيع أن أعطي عبداً إذناً بعمل مثل هذه الأشياء .. إن
أبي بيده كل شيء ..

- وافقي أنت لأن هذا في قصرك وأبوك لا يرى شيئاً ..

- لا أوافق .. لا أستطيع أن أعمل شيئاً لا يرضى عنه أبي ..

- إن أبوك لا يرضى عن كل الأعمال الطيبة .. إن عدم رضاه يجعل
الناس تعيش في معصية ..

- أي معصية .. نحن لا نعرف هذه المعاني التي تأتي بها .. نحن نعيش حياتنا والعبيد عبيدنا وهذه حياتهم من قديم الزمان ..
- لا فائدة من الحديث معك .. وكل ما أستطيع أن أفهمه حتى الآن أنني عبد أعيش في قصر كالكبير لأحرسه من العبيد .. حتى يكبر أبني .. حتى يكبر ..

- أنت لا تستطيع أن تحرسني من العبيد .. ولكني أحرس نفسي لأنني لم أعود عليهم .. أنا سيدة مثل سيدات القصور .. ويكيد مني كما تكيد النساء أردت أن أبلغك وظيفة العبيد .. حتى تنتهي الحياة على هذه الأرض .. إن هؤلاء لا يمكن تحريرهم أو جعلهم سادة .. إنهم يموتون في حياتهم كعبيد .. حرر نفسك يا سلامة من أفكارك .. وعش كما يعيش السادة في المدينة ..
واقتربت منه وقبلته كأنها تقول له تخلى عن أفكارك وعن تلك الأشياء التي تنغص حياتنا .. ولما رفع بصره إليها بعد أن فارقت ذراعيه قالت له :

- تعال .. لقد جننت من أجل المال .. وهذا هو المال وأنا .. وكل ما لذ وطاب في هذه الحياة ملك يديك .. فلماذا هذا الجنون الذي يأتيك ؟ هل أنت من هؤلاء العبيد ؟ أنت وجيه من الوجهاء وزادت تلك الوجاهة والوسامة عندما تزوجت بك .. فكيف وقد أنعم الله عليك بكل هذا .. كيف تؤلني وتأتي لنا بقضايا لا فائدة منها ولا طائل .. إن هؤلاء العبيد الذين تتعب نفسك من أجلهم إذا عاملتهم بقليل من الطراوة انشقوا عليك ولن تقدر على واحد

منهم .. إن الله خلق البشر جميعاً ويعرف أن هذا يجب أن يكون
سيداً وأن هذا يجب أن يكون عبداً .. فهل لك أن تتدخل في
حكمة الله ..

- أيرضى الله بأن تمنعوا عنهم الزواج ؟ أيرضى رب السماء أن
تفرضوا عليهم المعصية .. أيرضى ؟ أن تجعلوا العبد عبداً
لنزواتكم .. هذا ما أبحث عنه وأسأل الله مخرجاً منه ..
واقتربت منه مرة أخرى وقبلته بعنف .. وتركها تفعل .. ولما
إنتهت قال لها ..

- إن حكمة الله في خلق الناس شيء والظلم والقهر بين الناس
شيء آخر .. وهذا ما لن أتخلى عنه ما حييت ..
وانهمر المطر الغزير .. وذهبت نيروز إلى غرفتها لترتدي
ملابس أخرى شفافة .. إنها تريده .. تريده إلى الأبد .. ولما عادت
إليه لم تجده .. كان سلامة قد نزل إلى الشارع يتمشى وماء المطر
يغسل ملابسه وكان يرفع رأسه لأعلى حتى ينزل عليها المطر بقوة
مثل صنبور المياه .. كان يريد أن يغرق في مياه تنزل من السماء
خيراً من أي شيء آخر يغرقه في هذه الأرض ..
تمت بحمد الله وعونه ..

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

٩٦/٤٦٣٨

الترقيم الدولى I.S.B.N.

9 77-0624-0

دار ومكتب
الإنتاج التعاوني للطباعة والنشر
شارع سيدى بلال من جسر السويس